مجموعة من المؤلفين

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

القصة القصيرة الروسية السّاخرة

ترجمة: د. نزار عيون السود

مجموعة من المؤلفين

القصة القصيرة
الروسية السَّاخرة

ترجمة : د. نزار عيون السود

-عن الروسية -



القصة القصيرة
الروسية السّاخرة



Author: **Maxence Fermine**	اسم المؤلف: مجموعة مؤلفين
Title: **Satirical Rusian Short Stori**	عنوان الكتاب: القصة القصيرة الروسية السّاخرة
Translation & preparing & submitting:	ترجمة وإعداد وتقديم:
Nizar Oyoun el soud	د. نزار عيون السود
cover designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2016**	الطبعة الاولى: 2016



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مقدمة

«أدب العدسة المكبرة»

حين تلامس الجرح، وتظهر العيب وأنت ترسم الابتسامة على وجه القارئ باستخدام ألفاظ تجعله يضحك، فأنت تسخر... وحين يضحك الموجوع من ألمه، ويعيش واقعه بضحكة تخفف عنه آلامه ويضع حلولاً ولو بالأحلام، فهو يسخر... وحين نعبر عن حالة رفض للواقع دون الاصطدام أو خلق مواجهة مباشرة مع السلطة، فنحن نسخر!...

وقد عرّف أحد علماء النفس السخرية بأنها «سلاح ذاتي يستخدمه الفرد للدفاع عن جبهته الداخلية ضد الخواء والجنون المطبق، إذ أن السخرية رغم هذا الامتلاء الظاهر بالمرح والضحك والبشاشة إلا أنها تخفي خلفها أنهاراً من الدموع».

والأدب الساخر فن له أصوله وقواعده الكتابية. فمن حيث المضمون، يتسع الأدب الساخر لنقد أي موضوع من مواضيع الحياة العامة والخاصة، كالمواضيع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. فمجاله واسع بلا حدود. والسخرية فن شعبي، قريب من الجماهير، ومواضيعها من صميم حياتهم وهمومهم واهتماماتهم، إنها سلاح الضعيف في مواجهة الطغاة والنفاق والفساد. ومن حيث عناصره الفنية والشكلية يتميز الأدب الساخر بالعناصر التالية:

- كسر ظاهر اللفظ وتكثيفه باستخدام لغة غير تقليدية، مجازية، مزدوجة المعنى تبعث على الطرافة، بحيث تتحول الكلمة إلى حركة مع مراعاة السلاسة والوضوح.

- القدرة على التخيل وطرح المغزى بين سطور الموضوع، بعيداً عن المباشرة في الطرح، والإلغاز المؤدي إلى إثارة تفكير القارئ وحدسه ودفعه لإدراك الفكرة بعيداً عن طرحها المباشر.

- تضخيم العيوب وجوانب الضعف التي يسخر منها الكاتب بتهكم لاذع يتحاشى التهجم والتعرض للأشخاص بالسب أو الشتم أو القذف والقدح - فهذا يدخل في باب الاستهزاء وليس الأدب الساخر.

- استخدام النقائض والمفارقات والمتضادات، فقد نضحك من الألم حين يصل الجرح إلى أقصى مداه.

- بث عنصر التشويق باقتباس قصة خفيفة معروفة أو مثل شعبي أو بيت من الشعر.

***

ثمة علامة فارقة تميز الآداب عامة، والأدب الروسي خاصة. وهي ازدهار الأدب الساخر، أو ما يمكن أن ندعوه مجازاً بـ «أدب العدسة المكبرة»، في المراحل الانتقالية الصعبة التي يمر بها هذا المجتمع أو ذاك. وهذه ظاهرة طبيعية إيجابية. فمن الملاحظ في الآداب عامة، أن ازدهار السخرية والفكاهة، وانتشار التورية والعبارات القارصة والتلميحية، والمبالغة، يتزامن أكثر ما يتزامن، مع مراحل التحولات

الثورية والتغيرات الاجتماعية الكبيرة، والانتقال من نظام اجتماعي – سياسي إلى نظام آخر. و لم يشذ الأدب الروسي عن هذه القاعدة. فقد ازدهر الأدب الروسي الساخر، والقصة الروسية القصيرة الساخرة تحديداً، وانتشر انتشاراً واسعاً في السنوات العشر الأولى التي أعقبت ثورة أكتوبر عام ١٩١٧، وفي أعقاب «البيريسترويكا» وانهيار الاتحاد السوفييتي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وتعد هذه الفترات الزمنية المذكورة بحق (العشرينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين) من الفترات النادرة والفريدة في مجال الأدب الساخر، والقصة الروسية القصيرة الساخرة والانتقادية الفكاهية. ولعل أصدق دليل على ازدهار هذا الأدب الساخر، في المراحل المذكورة، صدور الأعداد الكبيرة من المجلات الساخرة والفكاهية فيها. ورغم انتشار الأدب الساخر في الأجناس الأدبية المختلفة (الرواية، المسرحية، القصة، القصة القصيرة إلخ) لكنه كان أكثر انتشاراً وتركيزاً في أدب القصة القصيرة.

ففي المرحلة الأولى (العشرينيات والثلاثينات من القرن العشرين) اعتمد الأدب الروسي الساخر على تراث عريق غني، تمثل، من ناحية أولى، في الفولكلور الروسي والإبداع الشفوي الشعبي العريق، وفي التقاليد الأدبية الكلاسيكية الساخرة العميقة الجذور في الأدب الروسي والتي تجسدت على أروع وجه في أعمال ومؤلفات غوغول وسالتيكوف – شدرين وتشيخوف من ناحية ثانية. أما في المرحلة الثانية(الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين) فقد ارتكز الأدب الروسي الساخر إلى تراثه

السابق والمنجزات الأدبية السوفييتية من ناحية وإلى منجزات الأدب العالمي الساخر الذي تُرجم عن اللغات الأخرى إلى الروسية من ناحية أخرى.

إن السخرية والفكاهة فن أصيل وأدب عريق التقاليد، عميق الجذور لدى جميع الشعوب. وقد حظي هذا الأدب الساخر بتقدير عديد من النقاد والأدباء والفلاسفة. ففي معالجته لهذا الموضوع، أشار هيغل في كتابه «علم المنطق»، إلى «أن السخرية تمسك بالتناقض وتجسده. وتعبر عنه، وتقارن الظواهر المتناقضة، بعضها ببعض، وتوضح المفاهيم وتلقي الأضواء عليها من خلال تناقضاتها». كما عبر مكسيم غوركي عن تقديره الكبير للأدب الساخر، وبرز ككاتب ساخر رائع في قصصه الساخرة في مرحلة ما قبل الثورة مثل «مدينة الشيطان الأصفر» و«حكايات روسية». وقدّر الناقد الأدبي الروسي الكبير ميخائيل باختين الأدب الساخر تقديراً رفيعاً، ورأى في الضحك «صيغة عظيمة الأهمية، قوية التأثير. فهو يقرّب الموضوع من القارئ بصورة غير عادية، ويزيل أي بعد أو مسافة تفصله عنه، سواء بسبب الخوف أو العظمة. إن الصورة الفنية الملتقطة للعالم من بعيد لا يمكنها أن تكون مضحكة. فالضحك هو المقدمة الأولى للواقعية وشرطها الأساسي لأنه يجذب الموضوع إلى مجال المعاصرة والبيئة القريبة المحيطة، بحيث يمكن لمسه باليد وتجزئته، والتغلغل إلى أعماقه وتحليله»[1].

لقد كانت القصة القصيرة الساخرة والقارصة، الفكاهية المضحكة أهم جنس أدبي برز في العشرينيات والثلاثينيات- رغم التضييق والتهجم على الأدب الساخر في الثلاثينيات-، وفي الثمانينات والتسعينيات

١- ميخائيل باختين: «مقالات نقدية أدبية». موسكو، ١٩٨٦، ص ٥١٤

والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين – في ظل انتشار النزعات الجنسية والفوضوية والإباحية والسوريالية في أدب هذه الفترة في روسيا. فالقصة الساخرة الضاحكة هي تجسيد حي للأفكار والملاحظات الانتقادية والفكاهية الساخرة التي تعبر عن الصراع الاجتماعي. وفيها يتألق رأي الكاتب وحكمه وموقفه، ومقاربته ونظرته واستنتاجه من خلال التناقض الذي يجسده بوساطة الشخصيات الهزلية الكوميدية، والطرق الأسلوبية الساخرة الخاصة، كالتلاعب بالألفاظ، والجناس والطباق، وازدواجية المعنى، والنبرة الساخرة المقلدة، و«العدسة المكبرة»، والمبالغة وخلط العناصر الكلامية المتباينة، وما شابه ذلك.

اخترنا في هذه المجموعة للمرحلة الأولى نماذج من أفضل القصص القصيرة الروسية الساخرة الفكاهية، الأقرب إلى فهم القارئ العربي لأبرز الكتاب الروس الساخرين في العشرينيات والثلاثينيات وهم: ميخائيل زوشينكو، بوريس سمسونوف، ليبيديف – كوماتش، ليف نيكولين، سيرغي زاياتسكي، ميخائيل كوزيروف، ميخائيل بولغاكوف، بانتيليمون رومانوف، إيلف وبتروف. وقدمنا لكل كاتب بموجز عن سيرته وأشهر مؤلفاته، أتبعناها بنماذج مختارة من قصصه القصيرة الساخرة. أما بالنسبة لفترة الثمانينيات والتسعينيات وأوائل القرن الحادي والعشرين – القصة القصيرة الروسية الساخرة المعاصرة –، فاخترنا مجموعة هامة ومعروفة من القصص القصيرة الساخرة لأفضل كتاب الأدب الروسي الساخر في هذه الفترة، ونخص بالذكر: ميخائيل جفانيتسكي، ميخائيل زادورنوف، سيميون آلتوف، فيكتور كوكليوشكين، غريغوري غرين، أركادي أركانوف، وغيرهم.

يتميز ميخائيل زوشنكو بنظرته الدقيقة وملاحظته الصائبة في كشفه

لملامح الشر. وتتميز قصصه الساخرة بالتفاصيل الدقيقة والموقف المركب بصورة منطقية لا تقبل الاعتراض، واللغة الفردية المتميزة لأبطاله وشخوصه. ويستشف القارئ في هذه القصص صوت الكاتب المفعم بالشك والقلق، لأنه أدرك أن التغييرات التي حصلت بعد الثورة قد اقتصرت، في كثير من المجالات والجوانب، على العبارات والأقوال والألفاظ الجديدة، دون أن تمس جوانب الفرد الروحية وأعماقه السيكولوجية.

وترك الكاتب الساخر فاسيلي ليبيديف - كوماتش بقصصه الساخرة الانتقادية العديدة، المنشورة في العشرينيات، أثراً ملحوظاً في الأدب الروسي الساخر في تلك الفترة.

ويحتل الكاتب الساخر والمسرحي الشهير ميخائيل بولغاكوف مكانة خاصة في الأدب الروسي الساخر. لقد ارتكز بولغاكوف في منهجه الأدبي الساخر، على تقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي العريقة، وبخاصة غوغول، وكشف بطريقته الخاصة عن الصدامات والنزاعات التناقضات والسلبيات في العشرينيات والثلاثينيات في الحياة الروسية، وعرّى العيوب والأمراض الاجتماعية، معتمداً بصورة رئيسة على وسيلته المفضلة وهي أسلوب المبالغة.

أما الكاتب ميخائيل كولتسوف فقد اعتمد في انتقاده اللاذع للفظاظة والأنانية والمراءاة على المقابلة بين الوقائع المتعارضة والمتناقضة.

لم تكن فترة الثلاثينيات مناسبة أبداً، من حيث الموقف السياسي الرسمي وتعاظم الديكتاتورية الستالينية، لازدهار الأدب الساخر. فقد تم إغلاق القسم الأكبر من المجلات الأدبية الساخرة، عام ١٩٣١ ولم يبق منها سوى مجلة واحدة «كروكوديل» (التمساح)، كما بدأ

النقاد الرسميون الموالون للسلطة بالتشهير بالأدب الساخر والأدباء الساخرين، وعملوا على طمس أسمائهم وتلفيق الاتهامات المختلفة ضدهم، ومضايقتهم بشتى الوسائل. ولعل زوشنكو وبولغاكوف كانا أكثر من تعرض من الكتاب الساخرين للمضايقات، إلى أن توقفا نهائيًا عن الكتابة. ولعل الكاتبين الشريكين إيلف وبتروف كانا الوحيدين تقريباً اللذين تابعا النشر والكتابة الأدبية الساخرة. حيث تمكنا بذكائهما وأسلوبهما الأدبي الاستمرار في نشر القصص القصيرة الساخرة والضاحكة، التي كانا ينتقدان فيها الظواهر السلبية الاجتماعية المختلفة، كالبيروقراطية والانتهازية والنزعة الثورية المزيفة، بل وحتى بعض الأخطاء السياسية في التربية والتعليم.

أما فترة الثمانينات والتسعينيات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين فقد شهدت موقفاً أيديولوجياً مغايراً من الأدب والثقافة، منفتحاً على جميع الأجناس الأدبية ورفع الحظر عن جميع رجالات الأدب والثقافة، ارتبط بالتغيرات السياسية الجذرية التي حدثت في الاتحاد السوفييتي كالبيريسترويكا (إعادة البناء) التي رفع شعارها غورباتشوف، ومن ثم أدت إلى سقوط نظام الحكم الشيوعي وانهيار الاتحاد السوفييتي، ونشوء مجتمع روسي رأسمالي أوليغارشي منفتح إلى أبعد الحدود، بل ومتحلل في كثير من جوانبه، حيث انتشرت الاتجاهات الأدبية المختلفة والمتناقضة بما فيها النزعات الجنسية والفوضوية والسادية وغيرها. كما ازدهر الأدب الساخر ازدهـاراً كبيراً وبرزت أسماء هامة من الأدباء الساخرين مثل ميخائيل جفانيتسكي، ميخائيل زادورنـوف، فيكتور كوكليوشكين، غريغوري غرين، أركادي أركانوف، سيمون آلتوف

القسم الأول

القصة القصيرة الروسية السَّاخرة
في العشرينيات والثلاثينيات

ميخائيل زوشنكو

يعد الكاتب ميخائيل زوشنكو(١٨٩٤-١٩٥٨) من أبرز كتاب القصة القصيرة الساخرة الضاحكة الانتقادية في الأدب الروسي السوفييتي في العشرينيات والثلاثينيات. ولد في مدينة بطرسبورغ في أسرة فنان جوال فقير. أنهى المدرسة الثانوية ثم انتسب إلى كلية الحقوق عام ١٩١٣، لكنه ترك الجامعة لعدم استطاعته تأمين الأقساط الجامعية بعد وفاة والده. تطوع في الجيش القيصري عام ١٩١٤، وشارك في الحرب العالمية الأولى، ثم انضم بعد الثورة إلى الجيش الأحمر وأصبح ضابطاً برتبة نقيب، ثم سُرح في العشرينات بسبب مرضه، فمارس أعمالاً عديدة. بدأ بكتابة قصصه القصيرة الساخرة منذ عام ١٩٢١، وأصدر مجموعته القصصية الأولى بعنوان «قصص نازار إيليتش، السيد ذي البنطال الأزرق». عمل خلال العشرينات والثلاثينات في عدد من المجلات السوفييتية الساخرة مثل «الفطر السام»، «فرس البحر»، «التمساح» وغيرها، وتعرض في الثلاثينيات لكثير من المضايقات والانتقادات من جانب النقاد الرسميين الموالين للسلطة. اكتسب زوشنكو شعبية كبيرة في أوساط القراء. صدر له أكثر من عشر مجموعات من القصص والخواطر الأدبية. وقد اخترنا القصص القصيرة الساخرة التالية: «حاسة الكلب»، «الزوج»، «سيرة المرض»، «الممثل»، «الحب»، «اللصوص»، «الحمام والناس»، «الاعتراف»، وهي تمثل أصدق تمثيل إبداعه الساخر الرائع في العشرينيات والثلاثينيات.

حاسّة الكلب

سُرق معطف من الفراء من التاجر (بابكين). فولول التاجر، متحسراً على الفراء، قائلاً:

– إن المعطف جيد جداً، أيها المواطنون، ولن أبخل بالمال، وسأعثر على السارق وأبصق في وجهه.

استدعى بابكين الكلب البوليسي الجنائي الكشّاف. فجاء رجل بثياب رثة، وقد غطى رأسه بقبعة، وإلى جانبه الكلب البوليسي. كان الكلب بني اللون، حاد التقاسيم، بشع الوجه.

دفع العميل الجنائي كلبه نحو الأثر بالقرب من الباب، وقال له «بسْ!» وابتعد. شم الكلب الأثر، ومرّ بعينيه على الحشد المجتمع من حوله. وفجأة اقترب من العجوز (فاكلا) القاطنة في الشقة الخامسة، وأخذ يشم طرف ثوبها. ابتعدت العجوز عنه باتجاه الحشد، والكلب يشدها من ثوبها، وتنحت جانباً والكلب في إثرها.

انهارت العجوز، وجلست على ركبتيها أمام الكلب البوليسي، وهي تقول معترفة:

– نعم، لقد وقعتُ. لن أنكر. سرقت خمسة أسطل من الخميرة، كما

سرقت الجهاز أيضاً. كل شيء سرقته موجود عندي في الحمام. خذوني إلى الشرطة.

أخذ العجب من الجمهور كل مأخذ. ثم سُئلت العجوز:

- وماذا عن المعطف؟

- لا أعرف شيئاً عن المعطف، و لم أره. أما الباقي فقد اعترفت به. خذوني، اعتقلوني، أعدموني.

واقتيدت العجوز...

أخذ العميل كلبه من جديد، ودفعه من أنفه نحو الأثر ثانية، وقال «بسْ!» ثم ابتعد. حرك الكلب عينيه، واستنشق الأثر، وأخذ يقترب نحو المواطن مدير البناء. صرخ المدير قائلاً:

- قيّدوني، أيها الناس الطيبون، أيها المواطنون الواعون. لقد جمعت منكم الأموال لقاء تزويدكم بالماء، لكنني صرفتها على هواي ومزاجي.

وبالطبع، هجم السكان على مدير البناء وأخذوا يقيدونه. وفي أثناء ذلك، اقترب الكلب من المواطن المقيم في الشقة السابعة، وشده من بنطاله.

شحب المواطن، واصفر وجهه، وانهار أمام الجمهور المحتشد، وهو يقول:

- مذنب، مذنب. لقد زوّرت تاريخ ميلادي في بطاقة العمل. كان يجب علي، وأنا الشاب، أن أخدم في الجيش وأدافع عن الوطن، بينما أنا أقيم في الشقة السابعة، وأستفيد من الطاقة الكهربائية، والخدمات البلدية الأخرى. خذوني.

ذُهل الجمهور المحتشد وارتبك، وكان كل واحد يقول في نفسه: «يا له من كلب ذكي فطن!».

وهنا، حرّك التاجر بابكين عينيه، ونظر من حوله، ثم أخرج نقوداً من جيبه، وقال لعميل الشرطة الجنائية:

– خذ كلبك إلى الشيطان، وليذهب معطف الفراء إلى الجحيم، والكلب معه...

وهنا، وقف الكلب أمام التاجر، وأخذ يلّوح بذيله.

شعر التاجر بابكين بالخوف، وابتعد جانباً، والكلب يجري في إثره، ثم اقترب منه، وأخذ يشم «كالوشه».

امتقع وجه التاجر واصفر، ثم اعترف قائلاً

– إن الله يرى كل شيء، ويعرف الحقيقة. أنا سارق، وحرامي، وابن كلبة. فالمعطف ليس لي، وقد سرقته من أخي... وأنا أنوح وأبكي.

تفرق الناس وهربوا كل واحد في اتجاه. وأما الكلب، ودون أن يستنشق أي أثر، لحق باثنين أو ثلاثة، وأمسك بهم. واعترفوا، وندموا على ما فعلوه. أحدهم سرق أموال الدولة، والثاني ضرب زوجته بالمكواة، أما الثالث فقال ما لا يمكن قوله أو التعبير عنه.

تفرّق الحشد وهرب، وأصبح الفناء خالياً من الناس. و لم يبق سوى الكلب وصاحبه.

وهنا، اقترب الكلب من صاحبه، عميل الشرطة الجنائية، وهو يهز بذيله. شحب العميل وسقط على ركبتيه أمام الكلب وهو يقول:

– مزقني بأسنانك، أيها الكلب. فأنا أقبض، لقاء إطعامك، ثلاث قطع من فئة العشر روبلات وأحتفظ باثنتين منهما لنفسي...

لم أعرف ماذا حصل بعد ذلك، فقد اختفيت بأسرع ما يمكن، خوفاً من الخطيئة...

١٩٢٤

الزوج

ما هذا الذي يجري على الجبهة العائلية، أيها المواطنون؟ الأزواج الآن، لا محل لهم من الإعراب، وخاصة الأزواج الذين تشتغل زوجاتهم بالمسائل التقدمية والطليعية...

لقد حدثت معي القصة التالية. توجهت عائداً إلى منزلي، قاصداً شقتي. أقرع الباب، باب شقتي، فلا يفتح أحد. أخاطب زوجتي:

– (مانيوسا)، إفتحي، أنا (فاسيا)، آت إليك.

تلوذ زوجتي بالصمت متوارية خلف الباب. وفجأة أسمع صوت (ميشا بوتشكوف)، زميل زوجتي في العمل، وهو يقول:

– هذا أنت، (فاسيلي إيفانوفيتش)، الآن، لحظة واحدة ونفتح لك. انتظر قليلاً يا صديقي.

هنا شعرت وكأن قرمة خشب وقعت على رأسي.

«ما هذا الذي يجري على الجبهة العائلية! لا يسمح للأزواج بالدخول إلى بيوتهم»

أصيح مطمئناً:

– افتح، يا ابن الدجاجة. لا تخف، لن أخوض معركة معك.

وأنا، بالفعل، لا أستطيع المشاجرة والمعاركة. قامتي قصيرة، وجسمي ضعيف، أي لست قادراً على المشاجرة. علاوة على ذلك، ثمة شيء يخرخر في معدتي دوماً، أثناء الحركة السريعة. وقال لي الطبيب: «إنه الطعام يلعب في معدتك». لم يخفف هذا من ألمي، بالطبع. وكيف يلعب الطعام في معدتي وأيّة ألعاب هذه! لهذا كله، بكلمة واحدة، لست قادراً على المشاجرة. أقرع الباب ثانية:

– أقول لك افتح أيها الأفّاق. فيجيبني قائلاً:

– لا تهز الباب، أيها الشيطان، سأفتح الآن.

– أيها المواطنون، ما هذا، ما هذا؟ لقد أغلق الباب على نفسه ومعه زوجتي، وعليّ أنا ألا أهزّ الباب ولا أتحرك. – أقول لك افتح الباب، وإلا سأجمع الجيران كلهم، وأثير ضجة كبيرة.

– فاسيلي إيفانوفيتش، انتظر قليلاً. اجلس في الممر على الصندوق، ولكن لا توقعِ المصباح، لقد وضعته خصيصاً من أجلك، كي ترى طريقك.

– إخوتي، رفاقي الأحباء! كيف يمكن لهذا الشخص الحقير أن يحدثني، أنا الزوج، عن المصباح، بصوت هادئ في مثل هذا الوقت؟ ما هذا الذي يجري!

– آه منك، يافاسيلي إيفانوفيتش! لقد كنت دوماً برجوازياً وغير حزبي. وستموت برجوازياً ولا حزبياً.

– فلأكن برجوازياً ولا حزبياً، لكنني سأذهب فوراً لاستدعاء الشرطة.

أركض، بالطبع، إلى الأسفل، باتجاه الحارس... فيجيبني قائلاً:

– لا يمكننا القيام بأي شيء أيها الرفيق. إذا ما بدأوا يضربونك أو، على سبيل المثال، إذا ما رموك من النافذة، نتيجة خلافات عائلية. في هذه الحالة، يمكننا اتخاذ إجراء ما...أما الآن، فلا يجري عندك شيء مميز، غير عادي... كل شيء طبيعي وعادي... اصعد مرة أخرى، ربما يفتحون لك الباب.

أركض إلى الأعلى، ثانية. وبالفعل، بعد نصف ساعة، فتح باتشكوف الباب وهو يقول:

– ادخل، الآن ممكن.

أدخل بسرعة إلى الغرفة... يا إلهي! ما هذا... الدخان مخيم على الغرفة، والفوضى في كل مكان. وخلف الطاولة، كان يجلس سبعة أشخاص: ثلاث نساء ورجلان. كانوا يكتبون أو يسجلون محضر اجتماع، أو شيئاً آخر، لا أدري.

أما رفيقهم الطليعي، ميشا باتشكوف، فكان منحنياً على الطاولة، وجسمه يهتز من الضحك. ثم قال:

– عفواً، أعتذر لأننا لم نفتح لك الباب. لقد كنا نريد أن نعرف ردة فعل الأزواج في مثل هذه الحالة.

قلت، مزعوجاً، غاضباً:

– لا حاجة للضحك. طالما كان هناك اجتماع، فيجب الإعلان عنه، أو تعليق ورقة على الباب بهذا الخصوص. وعموماً، عند التدخين، يجب تهوية الغرفة.

وجلسوا فترة من الزمن، ثم هموا بالخروج. ولم أمنعهم من الخروج...

١٩٢٥

قصة المرض

بصراحة، أنا أفضل المرض في البيت.

بالطبع، ربما يكون الجو في المستشفى أكثر إضاءة وأفضل، وربما تكون نسبة الحروريات في طعام المستشفى أكبر، ولكن، وكما يقال، يأكل الإنسان في بيته حتى القش والتراب.

اقتادوني إلى المستشفى بعد أن أصبت بمرض التيفوئيد. لقد ظن أفراد أسرتي أنهم بذلك يخففون من آلامي الحادة. غير أنهم لم يحققوا هذا الهدف. فقد وجدت نفسي في مستشفى فريد من نوعه، و لم يحز على إعجابي.

على أية حال، ما إن وصلت إلى المستشفى، وبدأوا بتسجيلي في سجل المرضى، رأيت إعلاناً معلقاً على جدار المستشفى كُتب عليه بالخط العريض: «تسليم الجثث بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة».

لا أعرف وقعه بالنسبة للمرضى الآخرين، أما بالنسبة لي، فما إن قرأت الإعلان حتى ترنحت قدماي و لم تعودا تحملاني. والأدهى من ذلك، أن حرارتي كانت مرتفعة، وروحي تكاد أن تنطفئ في جسدي، وربما كانت معلقة على خيط رفيع - وفجأة يضعون أمام عيني هذا الإعلان وأضطر إلى قراءة هذه الكلمات.

- كيف تعلقون هذه العبارة السخيفة في المدخل؟ إن المرضى لن يشعروا بالسرور من قراءتها.

استغرب مساعد الطبيب أو الممرض، لا أدري، من توجيه هذه الملاحظة له وقال:

- انظروا! مريض بالكاد يمشي على قدميه، ويكاد البخار يخرج من فمه لارتفاع حرارته، وفي الوقت نفسه يتمنطق، وينتقدنا. إذا ما شُفيت، وهذا أمر مستبعد، عندئذ انتقدنا، وإلا سوف نسلم جثتك فعلاً فيما بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة، كما هو وارد في الإعلان، وعندئذ ستعرف كل شيء.

أردت أن أتشاجر مع مساعد الطبيب هذا، وبما أن حرارتي كانت مرتفعة - حوالي ٣٩ درجة - لم أتجادل معه واكتفيت بالقول:

- انتظر، أيها السماعة الطبية، سأبرأ، وعندها سأحاسبك على وقاحتك. وهل يصح مخاطبة المريض بمثل هذه الأقوال؟ إنها تقضي عليه معنوياً.

استغرب مساعد الطبيب أن يخاطبه مريض بهذه الجرأة والحرية، فغير موضوع الحديث على الفور، وهنا اقتربت مني الممرضة وقالت:

- تعال معي أيها المريض، إلى المغسل.

- أليس من الأفضل أن تسميه الحمّام وليس المغسل. فهذا أجمل، ويرفع من قدر المريض. وأنا لست فرساً لتقوديني إلى المغسل.

أجابت الممرضة:

- رغم أنك مريض، فأنت تلاحظ مختلف التفاصيل والجزئيات. إنك لن تشفى على الأغلب، إذا كنت ستتدخل في كل صغيرة وكبيرة.

اقتادتني إلى الحمّام وأمرتني أن أخلع ثيابي.

بدأت أخلع ثيابي، وإذا بي أرى فجأة رأساً متدلياً فوق الماء. ولمحت فجأة وكأن امرأة عجوزاً تجلس في الحمام. فقلت للمرضة:

- إلى أين اقتادوني الكلاب، إلى الحمام النسائي؟ هنا إحداهن تغتسل.

- إنها امرأة عجوز جالسة - قالت الممرضة - لا تلتفت إليها. إن حرارتها مرتفعة جداً، وهي لا تتأثر بأي شيء. فاخلع ثيابك دون حياء. وريثما تخرج العجوز نجمع لك ماءً نظيفاً.

- العجوز لا تتأثر - أجبتها - أما أنا، فربما ما زلت واعياً أتأثر. وأنا لا أرتاح أبداً، عندما أرى شيئاً ما يعوم فوق الحمّام.

وفجأة جاء مساعد الطبيب وقال:

- إنها المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذا المريض المتعالي، الذي يصعب إرضاؤه. فالوقح هذا لا يعجبه العجب. العجوز تموت وتنازع وهو يفرض شروطاً ويرفع دعاوى. إن حرارتها تقارب الأربعين، وهي لا تعي أي شيء، وترى كل شيء من خلال منخل. على أية حال، إن منظرك لن يطيل من عمرها أكثر من خمس دقائق. لا، أنا أفضل

عندما يأتينا مرضى فاقدو الوعي، حيث يروقهم كل شيء على الأقل، ويرتاحون لكل شيء، ولا يدخلون معنا في مجادلات علمية.

وها، صاحت العجوز من الحمّام:

– هيا أخرجوني من الماء، وإلا سأخرج بنفسي، وأنقعكم جميعاً بالشتائم والسباب.

فانشغلا بالعجوز، ثم أمراني بالدخول وخلع ثيابي. وبينما كنت أخلع ثيابي، امتلأ الحوض بالماء الساخن بسرعة البرق، وأمراني بالجلوس فيه.

ولمعرفتهما بطبعي، لم يناقشاني بعد ذلك في أي موضوع، وحاولا موافقتي على كل شيء. بعد الحمّام، قدما لي بدلة داخلية بيضاء، كبيرة جداً، بالنسبة لقياسي. ظننت أنهما قدما لي هذا القياس الكبير الذي لا يناسبني قصداً، غير أنني أيقنت بعد ذلك، أن هذه ظاهرة طبيعية في المستشفى. فالمرضى الطوال كانوا عادة، في ألبسة داخلية قصيرة، والمرضى القصار كانوا في ألبسة طويلة. حتى أن بدلتي بدت أفضل من بدلات الآخرين. فقد كان ختم المستشفى مطبوعاً على كم القميص، أما عند المرضى الآخرين، فكان الختم مطبوعاً على الصدر عند بعضهم، وعلى الظهر عند بعضهم الآخر، وهذا أمر مهين للكرامة الإنسانية من الناحية المعنوية.

ولكن، وبما أن درجة حرارتي كانت ترتفع باستمرار، لم أعد أجادل حول هذه الأشياء.

لقد وضعوني في قاعة غير كبيرة، يرقد فيها حوالي ثلاثين مريضاً، مصابين بأمراض مختلفة. وكان بعضهم في حالة صحية سيئة للغاية، بينما تماثل بعضهم الآخر للشفاء. وكان بعضهم يصفّر وبعضهم يلعب الشطرنج، وفريق ثالث ينتقل من مهجع لآخر، ويقرأ مهجّياً بطاقات المرضى، التي وضعت فوق رؤوسهم. سألت الممرضة قائلاً:

– أخبريني الحقيقة صراحة. ربما هذا مستشفى للأمراض العقلية. إنني أنزل في المستشفى كل عام، لكنني لم أصادف أبداً مثل هذا المستشفى. كان يسود الهدوء والنظام في جميع المستشفيات. أما هنا، فالضجة والجلبة كما في سوق البازار.

قالت الممرضة:

– ربما تأمرنا بأن نخصص لك مهجعاً منفرداً، ونضع بالقرب منك حارساً، كي يطرد من أمام وجهك الذباب والبق؟

أثرت ضجة، كي يحضر كبير الأطباء، ولكن جاء عوضاً عنه مساعد الطبيب ذاته، وكنت ضعيفاً متعباً، فما إن رأيته حتى فقدت وعيي.

لم أفق، ولم أعد إلى وعيي إلاّ بعد ثلاثة أيام، كما أظن. وعندما استيقظت، وجدت ممرضة بقربي، فقالت:

– إن جسمك بسبعة أرواح. لقد اجتزت جميع المحن القاسية. حتى أننا وضعناك، مصادفة، بالقرب من النافذة المفتوحة، ومع ذلك، أخذت فجأة تتماثل للشفاء. والآن، وإذا لم تصب بمرض من الأمراض المعدية من جيرانك، يمكنني أن أهنئك بالشفاء، من أعماق قلبي.

لم يخضع جسمي ولم يستسلم لأي مرض بعد ذلك. غير أنني، وعشية تخريجي من المستشفى، أصبت بمرض من أمراض الأطفال، وهو السعال الديكي. قالت لي الممرضة:

– لقد انتقل إليك هذا المرض من الجناح المجاور، على الأغلب، حيث يوجد قسم الأطفال. تناولت الطعام غالباً، دون حذر، بملعقة كان قد استخدمها طفل مريض بالسعال الديكي، فانتقل إليك الجرثوم.

تغلب جسمي على المرض، وأخذت أتعافى من جديد. ولكن، عندما كان موعد تخريجي من المستشفى، عُديت بمرض عصبي هذه المرة. فقد ظهرت على جلدي حبوب وبثور على شكل طفحات جلدية، عصبية المنشأ. فقال لي الطبيب: «لا داع للنرفزة، إنها ستزول سريعاً خلال أيام».

أما أنا، فقد كنت «أنرفز» وأعصّب، لأنهم لم يخرّجوني من المستشفى. ربما لأنهم نسوني، أو لنقص في بعض الأوراق اللازمة لتخريجي، أو لأن أحد المسؤولين في المستشفى لم يحضر، ولم يكن باستطاعتهم تسجيل خروجي من المستشفى، أو ربما لانشغال العاملين بالمستشفى بزوجات المرضى الزائرات. ثم قال لي مساعد الطبيب مبرراً:

– عندنا ضغط كبير وأعداد كثيرة من المرضى الجدد، بحيث أننا لا نجد الوقت اللازم لتخريج المرضى المتعافين. ثم إننا لم نتأخر عن تخريجك من المستشفى سوى ثمانية أيام، وأنت تثير هذه الضجة، في حين أن لدينا بعض المرضى المتعافين الذين تأخرنا في تخريجهم ثلاثة أسابيع، ومع ذلك فهم يصبرون، ولا يبدون أي قلق.

وسرعان ما قرروا تخريجي من المستشفى. عدت إلى بيتي، فقالت لي زوجتي:

– أتعرف يا بيوتر، لقد ظننا قبل أسبوع، أنك انتقلت إلى العالم الآخر، فقد وصلنا من المستشفى الإشعار التالي: «لدى استلامك هذا الإشعار يرجى حضورك إلى المستشفى فوراً لاستلام جثة زوجك».

وتبين أن زوجتي كانت قد أسرعت فوراً إلى المستشفى، حيث اعتذروا لها عن الخطأ الذي وقع فيه قلم المحاسبة: فقد فارق الحياة أحد المرضى فوقع ظنهم عليّ، لسبب ما، رغم أنني كنت قد تماثلت للشفاء، لكن البثور كانت قد بدأت تظهر على جلدي من شدة قلقي واضطرابي. شعرت بانزعاج كبير، بسبب هذا الحادث، ونويت أن أركض فوراً إلى المستشفى لمشاجرة العاملين فيه وتأنيبهم. ولكن، عندما تذكرت ما يجري عندهم، امتنعت عن الذهاب.

وأنا الآن، أمرض في بيتي ولا أذهب إلى المستشفيات.

١٩٣٦

الضيوف

وما الفائدة من الحديث، لقد أصبح الضيف الآن مغايراً للمألوف، وغير طبيعي. حيث عليك أن تراقب حركاته باستمرار، كي لا يرتدي معطفاً غير معطفه، ولا يأخذ قبعة فرو إضافية. بالنسبة للطعام، ليأكل ما يريد. ولكن، لِم لَف الطعام بالمحارم؟ هذا شيء زائد، لا لزوم له، ولن تتمكن من مراقبته، حيث يمكن للضيوف خلال ذلك، وفي حفلتين اثنتين، سحب كل ما تملك، بما فيها الأسرّة والخزانة. هؤلاء هم ضيوف آخر زمن!

حادث صغير من هذا النوع وقع عند معارفي، بمناسبة عيد الميلاد.

دُعي إلى حفلة عيد الميلاد حوالي خمسة عشر شخصاً، من مختلف الأجناس والأنواع. وكان بين الضيوف المدعوين سيدات وغير سيدات، ومن لا يكتفي بالكثير، ومن لا يشرب إلا القليل من المشروبات الروحية.

كانت الحفلة فاخرة، فقد صرف على الطعام وحده حوالي سبعة روبلات. أما المشروبات فقد تم شراؤها مشاركة، حيث دفع كل واحد روبلين ونصف، ما عدا النساء، فمشروبهن بالمجان، رغم أن هذا سخافة ما بعدها سخافة، فثمة من النساء من يشرب ويتفوق على أي رجل ولكن، لن نتطرق إلى هذه التفاصيل، ولن نرهق أعصابنا، فهذه مسألة تخص أصحاب الدعوة، وهم أدرى بها.

أمـا أصحاب الـدعـوة فكانوا ثـلاثـة: الـزوجـان (زيـفـيروف) وعجوزهما – والد الزوجة – (يفدوكيموفيتش).

وربما دُعي العجوز خصيصا من أجل مراقبة الضيوف، حيث قال الزوجان بشأنه:

– عندما نكون ثلاثة، يمكننا مراقبة الضيوف براحة تامة. وسنتتبع حركات كل منهم. وبدأوا بمراقبة ضيوفهم.

كان العجوز يفديكيموفيتش أول من تعطل عن أعمال المراقبة. فهذا العجوز – أمده الله بالصحة والعافية ومنحه الشيخوخة السعيدة – التهم من الطعام وشرب من الشراب، خلال الدقائق الخمس الأولى، ما جعله عاجزاً حتى عن قول كلمة «ماما». وها هو جالس، يلعب بعينيه، ويهمس للسيدات بأشياء وعبارات من الغزل. أما المضيف نفسه زيفيروف فقد حزن كثيراً لسكر حميه وتكدر. وأخذ هو ينتقل في الشقة من مكان لآخر، ويراقب كل ضيف.

وفي حوالي الساعة الثانية عشرة، وبسبب من غمه وحزنه، ثمُل وتواقح، ثم نام على مرأى من الجميع على رف النافذة في غرفة الطعام. وفيما بعد، تبين أن التيار البارد، الآتي من النافذة قد أثّر على وجهه، فانتفخت لثته وأُصيبت بخراج فيها، عانى منه ثلاثة أسابيع.

أما الضيوف، فبعد أن ملّؤوا بطونهم على هواهم، وشرعوا باللعب والمرح، فلعبوا لعبة «الغميضة» و«دق وعش» وغير ذلك من الألعاب الأخرى. وبينما هم يلعبون، فُتح الباب ودخلت السيدة زيفيروفا، شاحبة الوجه، وقد اصفرت صفرة الموت، وقالت:

– هذا منتهى الوقاحة. الآن، أحدكم فك «اللمبة» ذات الـ ٢٫٥

شمعة من المرحاض، واختلسها. لا يصح أبداً السماح للضيوف بدخول المرحاض.

بدأت ضجة وجلبة، وصحا العجوز يفيدوكميوفيتش من سكرته على الفور، واضطرب وانزعج، وأخذ يمسك بالضيوف. أما السيدات فقد أخذن يولولن، وقلن له:

- عليك بالرجال لا بالسيدات.

واعترض الرجال على ذلك قائلين:

- في هذه الحالة، يجب إجراء تفتيش عام.

اتُخذت الإجراءات وأُغلقت الأبواب وبدأت عملية التفتيش. وقف الضيوف صفاً واحداً وأخذ كل واحد منهم يقلب جيوبه، بالدور، ويفك قميصه وشرواله، ويخلع جزمته. ولكن، لم يعثر لديهم على ما يستحق اللوم، سوى بعض «السندويشات» ونصف زجاجة نبيذ وقدحين كبيرين وإبريق ماء زجاجي.

بدأت المضيفة السيدة يفيروفا بالاعتذار بحرارة، لأنها احتدمت غيظاً وشكّت بهذه النخبة من المجتمع، وعبرت عن اعتقادها بأن يكون أحد ما من الخارج قد دخل إلى المرحاض وسرق المصباح.

إلا أن جو الحفلة كان قد تعكر، و لم يعد هناك من يرغب بممارسة أية لعبة، كما لم يعد يرغب أحد بالرقص على أنغام «البالالايكا»[1]، وبدأ الضيوف بمغادرة الشقة بهدوء.

١- البالالايكا: آلة موسيقية وترية روسية. - المترجم-

في الصباح، عندما فرك المضيف عينيه واستيقظ، اتضح كل شيء تماماً. فد خشي صاحب الشقة من أن يقوم أحد الضيوف بسرقة «اللمبة»، ففكها بنفسه ووضعها في جيب شرواله. وعندما نام على رف النافذة، وضع ثقله على جنبه، فانكسرت «اللمبة».

١٩٢٧

الممثل

هذه قصة حقيقية، حدثت في أستراخان، ورواها لي بطلها، أحد الممثلين الهواة.

«تسألوني»، أيها المواطنون، هل كنت ممثلاً؟ نعم، كنت ممثلاً، وقد مثلت على خشبة المسرح، وتعاملت مع هذا الفن عن قرب. إنه هراء، ويخلو من أي شيء رفيع.

بالطبع، في الفن كثير من الأشياء الجيدة، إذا ما فكرنا بعمق أكبر.

تَخرج على سبيل المثال، إلى خشبة المسرح، والجمهور ينظر إليك. وبين أفراد الجمهور تجد معارفك وأقاربك وجيرانك. تنظر إليهم فيغمزونك من الصالة، كأن تشجع يا (فاسيا)، لا تجبن. فترسم لهم الإشارات ولسان حالك يقول: لا داع للقلق، فنحن نعرف ما علينا أن نفعل.

ولكن، إذا ما فكرنا بشكل أعمق في هذه المهنة، فهي تخلو من أي شيء جيد. والممثل تثور ثائرته، ويغلي الدم في عروقه.

أخرجنا، ذات مرة، مسرحية «من المذنب»[1] المأخوذة من الحياة

١- «من المذنب»: مسرحية مقتبسة من رواية تحمل الاسم نفسه للكاتب الروسي الكبير ألكسندر هيرتسن (١٨١٢-١٨٧٠)، يفضح فيها هيرتسن نظام القنانة العبودي الذي كان سائداً في روسيا .- المترجم-

الروسية قبل الثورة. إنها مسرحية قوية جداً. وفي أحد فصول المسرحية، يقوم اللصوص بسرقة التاجر أمام أعين الجمهور. وقد كان إخراجها ناجحاً، وكان التاجر يصرخ و«يلبط» بقدميه واللصوص يسرقونه. إنها مسرحية شيقة.

وهكذا أخرجنا هذه المسرحية، وبدأنا بعرضها على الجمهور.

قبل بدء عرض المسرحية بقليل، ثمُل الممثل الذي يؤدي دور التاجر. وقد هزته حرارة المشروب الكحولي لدرجة أصبح معها غير قادر على أداء دور التاجر. وعندما خرج إلى خشبة المسرح بدأ يحطم المصابيح الكهربائية بقدميه قصداً.

اقترب مني المخرج (إيفان باليتش) وقال:

– لا يمكننا أن نسمح لابن الكلبة هذا أن يصعد إلى خشبة المسرح في الفصل الثاني. إنه سيكسر لنا جميع المصابيح. ربما أنت تقوم بأداء دوره بدلا منه؟ فالجمهور أحمق لن يعرف شيئاً.

فأجبته:

– لا، لا أستطيع الخروج إلى خشبة المسرح، لا ترجوني، فقد التهمت بطيختين الآن. ولست قادراً على الاستيعاب بشكل جيد.

– انقذنا يا أخي، ولو لفصل واحد، فربما يصحو الممثل بعد ذلك. لا تقض على هذا العمل المسرحي التنويري.

وتمكن من إقناعي، فخرجت إلى خشبة المسرح.

وفقاً لسياق المسرحية، خرجت إلى الخشبة بثيابي كلها، بسترتي

وبنطالي. وكل ما في الأمر، أنني ألصقت لحية مستعارة وخرجت. ورغم أن الجمهور غبي، فقد عرفني على الفور، وأخذ يشجعني.

– إنه (فاسيا) الذي ظهر. لا تخف، لا تخجل. فأجبت:

– لا مجال لأي خوف. موقف محرج. لقد ثمل الممثل حتى العظم، ولا يمكنه الخروج إلى الخشبة. إنه يتقيأ.

بدأ الفصل الثاني. وكنت أمثِّل في هذا الفصل دور التاجر. فأصرخ وأضرب اللصوص برجليّ. ثم شعرت وكأن أحد الممثلين يمد يده فعلاً إلى جيبي.

أبعدت سترتي عن الممثلين ووضعتها جانباً. وأخذت أضربهم بقدميّ، أضربهم فعلا، على وجوههم، وأقول:

– أرجوكم بالحسنى، لا تقتربوا أيها الأوغاد من سترتي.

غير أنهم، وبحسب سياق المسرحية، كانوا يتزاحمون ويتدافعون. فأخرجوا محفظة النقود من جيبي (وفيها ثماني عشرة ورقة من فئة العشر روبلات) ثم خطفوا ساعتي.

صرخت بملء صوتي:

– النجدة، أيها المواطنون، إنهم يسرقونني فعلاً.

فحدث أثر مسرحي كامل، وصفق الجمهور إعجاباً، وصرخ:

– هيا، هيا، يا فاسيا. دافع عن نفسك أيها العزيز، اضربهم!، اضرب الشياطين على رؤوسهم.

فأجيب قائلاً: – لا فائدة، أيها الأخوة.

بدأت أضربهم بشدة على رؤوسهم. وأخذ الدم يتدفق من وجه أحدهم. فثارت ثائرة الآخرين، وهاجوا وماجوا، وأخذوا يتدافعون ويتزاحمون. فصرخت متوجهاً نحو الجمهور:

– إخوتي، ما هذا الذي يجري؟ لماذا علي أن أتألم وأعاني؟

هنا، مد المخرج رأسه من وراء الكواليس وقال لي:

– فاسيا، «برافو!»، إنك تؤدي الدور بصورة رائعة. تابع.

عندما وجدت أن الصراخ لا يفيدني، لتطابق صراخي مع سياق المسرحية، جثوت على ركبتي وصرخت بأعلى صوتي:

– أيها الأخوة، أيها المخرج إيفان باليتش! أنا لا يمكنني أكثر من ذلك. أنزلوا الستار. إنهم يسرقون مدخراتي فعلاً.

هنا، لاحظ العاملون في المسرح أنني خرجت عن سياق المسرحية، حيث لا وجود لمثل هذا في النص، فخرجوا من وراء الكواليس، وبرز الملقن من قمرته وهو يقول:

– يبدو أنهم فعلاً سرقوا محفظة نقود التاجر.

أُنزل الستار، وأحضروا لي إبريق الماء فشربت حتى ارتويت، ثم قلت:

– إخوتي، أيها المخرج إيفان باليتش، ما هذا؟ لقد سرق أحدهم محفظتي أثناء المسرحية.

أجرينا عملية تفتيش دقيقة على جميع الممثلين، ولكن لم نعثر على النقود. أما محفظة النقود فقد رميت فارغة خلف الكواليس. واختفت النقود دون أي أثر وكأنها احترقت أو طارت...

وتقولون لي: الفن؟ أنا أعرف ما هو الفن. لقد جربته ومثّلت.

١٩٢٥

الحب

انتهت الحفلة في وقت متأخر.

وقف (فاسيا تشيسنكوف) مرهقاً، يتصبب عرقاً، وقد ربط عقدة على قميصه. وقف أمام (ماشينكا)[1] وقال متوسلاً:

– يا فرحتي، انتظري... انتظري حافلة الترام الأولى. إلى أين ستذهبين يا إلهي!...هنا، يمكننا الجلوس والانتظار، بينما أنت تودين الذهاب... انتظري حافلة الترام الأولى، أرجوك. أنت، على سبيل المثال، متعرّقة، وأنا كذلك... وقد نمرض في هذا الصقيع...

– لا – قالت ماشنكا وارتدت جرموقها – وأي فارس أنت، إذا كنت غير قادر على مرافقة سيدة في الصقيع؟

– غير أنني أنضح عرقاً – قال فاسيا، وهو يكاد أن يبكي.

– إذن ارتد معطفك.

لبس فاسيا تشيسنكوف معطف الفراء بخضوع، وخرج مع ماشنكا إلى الشارع، متأبطاً ذراعها بقوة.

١– ماشينكا: صيغة التحبب والتصغير لاسم ماريا. – المترجم–

كان الجو بارداً، والقمر بدراً منيراً، والثلج يصر تحت الأقدام.

– أية سيدة أنت، إنك لا تعرفين الهدوء – قال فاسيا تشيسنكوف متأملاً بإعجاب صورتها الجانبية – لو كانت سيدة أخرى غيرك لما رافقتها بأي شكل من الأشكال. لقد وافقت على الذهاب بسبب حبي لك، وحق الله.

ضحكت ماشنكا.

– ها أنت تضحكين وتكشفين لي عن أسنانك. وأنا حقّاً، أعبدك، أحبك بحرارة يا (ماريا فاسيليفنا). قولي لي: فاسيا تشيسنكوف استلق هنا على سكة الترام وابق كذلك إلى أن تأتي حافلة الترام الأولى. وسأستلقي. أقسم لك.

– كفاك كلاماً – قالت ماشنكا – والأفضل، انظر: يا له من جمال رائعٍ من حولنا، ضوء القمر ينير كل شيء. يا لهذه المدينة، ما أجملها ليلاً! يا له من جمال أخاذ!.

– أجل، إنه جمال رائع – قال فاسيا تشيسنكوف موجهاً نظره، بشيء من الدهشة والاستغراب إلى كساء المنزل الإسمنتي المتقشر – فعلا إنه جمال رائع ماريا فاسيلفنا... والجمال يؤثر أيضاً في الإنسان إذا كانت لديه مشاعر حقيقية...هناك عدد من العلماء والشخصيات الحزبية ينفي عاطفة الحب. أما أنا، ماريا فاسيليفنا، فلا أنفيها. إنني أكنُّ لك مشاعر حب صادقة، وحتى الموت، وإلى درجة التضحية بالذات. أقسم لك... قولي لي، اضربْ نقرتك بهذا الجدار، وسأضربها.

– حسناً، هيا بنا – قالت ماشنكا، وهي تشعر بالرضى.

- أقسم لك، سأضرب نفسي بالجدار. هل تريدين؟

وصلا إلى قناة كريكوف.

- أقسم لك - قال فاسيا من جديد - أتريدين، سأرمي بنفسي في هذه القناة؟ هل تريدين ماريا فاسيليفنا؟ ألا تصدقينني، يمكنني أن أثبت ذلك.

أمسك فاسيا تشيسنكوف بالدرابزين الحديدي وتظاهر بأنه يرمي نفسه في الماء.

- آخ! - صاحت ماشنكا - فاسيا، ماذا تفعل؟

وفجأة ظهر شخص قاتم مريب من خلف الزاوية، وتوقف أمام المصباح.

صرخت ماشنكا وقد أخذ منها الرعب كل مأخذ، والتصقت بالدرابزين.

اقترب الرجل منهما أكثر، وشد فاسيا تشيسنكوف من كم معطفه، وقال بصوت أصم:

- أنت، أيها النذل! اخلع معطفك بسرعة. وإذا ما نطقت بحرف واحد فسأضربك على رأسك ضربة قاضية. فهمت، أيها الوغد؟ اخلع!

- عفـ... عفو... عفـ... - نطق فاسيا وكان يريد أن يقول - عفواً، وكيف هذا؟

- هيا! - وشدّه الرجل بقوة من طرف معطف الفراء.

فك فاسيا أزرار معطفه، وخلعه بيدين مرتجفتين.

- لك... لك... لك... - قال فاسيا وأراد أن يقول: - لكن... صقيع...

- هيا، اخلع الجزمة.

- إنك لا تطلب من السيدة شيئاً، وتقول لي: اخلع الجزمة - قال فاسيا بلهجة مؤثرة، شاعراً بالضيم والظلم - لديها معطف ولديها جرموق، وتقول لي: اخلع الجزمة.

نظر الرجل بهدوء إلى ماشنكا وقال:

- إذا أرغمتها على خلع معطفها فسأحمله على شكل صرّة، وأقع في أيدي رجال الشرطة. أنا أعرف ما أفعل. هل خلعت الجزمة؟

نظرت ماشنكا برعب إلى هذا الرجل و لم تتحرك. أما فاسيا، فقد جلس على الثلج، وأخذ يفك رباط الجزمة.

- لديها معطف من الفراء وجرموق - قال فاسيا مرة أخرى - وأنا علي وحدي أن أدفع الثمن عن الاثنين...

- اجلس ولا تتحرك، ولا تجعل أسنانك تصطك، فإذا ما صرخت أو تحركت قضي عليك. مفهوم، أيها الوغد؟ وأنت، أيتها السيدة...

تدثر الرجل بمعطف الفرو بسرعة، واختفى على الفور.

ارتخى فاسيا وتخثر، وجلس متكوّماً كالكيس فوق الثلج، وهو

ينظر إلى جوربيه الأبيضين في قدميه الحافيتين دون أن يصدق عينيه. قال فاسيا وهو ينظر إلى ماشنكا:

– هكذا إذن، أنا عليّ أن أرافقها، وأنا عليّ أن أفقد ثيابي، أليس كذلك؟

وعندما اختفى السارق و لم تعدُ تسمع خطواته، ضرب فاسيا الثلج برجليه فجأة، وصاح بصوت رفيع قوي:

– النجدة! حرامي!

ثم تحرك من مكانه، وركض فوق الثلج، قافزاً، مرتجفاً برعب... وبقيت ماشنكا جامدة عند الدرابزين...

١٩٢٤

اللصوص

لقد ازداد عدد اللصوص وتكاثروا في هذه الأيام. وهم يسرقون كل شيء دون تمييز. حتى أنه يصعب الآن العثور على شخص لم يُسرق منه شيء.

منذ أيام سرقوا حقيبتي قبل وصول القطار إلى بلدة (جميرينكا).

وما العمل إزاء هذا المرض الاجتماعي؟ هل تُقطع أيدي السارقين؟

يقال، في فنلندا كانوا يقطعون أيدي السارقين. فما إن يسرق أي رفيق فنلندي شيئاً ما حتى تُقطع يده على الفور... وسِرْ في الشارع، يا ابن الكلبة، مقطوع اليد.

بالمقابل، أصبح الناس هناك جيدين، إيجابيين. ويقال أيضاً، هناك يمكنك أن تترك شقتك مفتوحة وتذهب. وإذا ما فقد مواطن نقوده في الشارع، فلا يأخذها أحد، بل يضعونها فوق ركيزة بارزة. ولتبق هكذا حتى نهاية القرن... يا لهم من حمقى!

غير أن النقود يأخذونها من المحفظة على الأغلب. ومن غير الممكن غير ذلك. وهنا، لا يكفي قطع الأيدي وحتى قطع الرؤوس لن يفيد. غير أن النقود تأتي مع الزمن، وتبقى المحفظة. وهذا بحد ذاته أمر محمود.

سُرقت مني حقيبتي في القطار قبل الوصول إلى بلدة جميرنيكا. سرقها اللصوص بكاملها مع كل محتوياتها وأحشائها. و لم يتركوا حتى حمالات الحقيبة. وكانت في الحقيبة ليفة حمام بخمسة كوبيك. حتى الليفة سرقوها. وما حاجة هؤلاء الشياطين إلى الليفة؟ الأنذال سيرمونها في الطريق. ومع ذلك فقد سرقوها مع الحقيبة.

الأهم من ذلك، جلس بقربي في القطار أحد المسافرين وحذرني قائلاً:

– كن حذراً، من فضلك، أثناء سفرك. فاللصوص هنا مستميتون. يرمون بأنفسهم مباشرة على المسافرين.

– إن هذا لا يخيفني – أجبته – إنني أنام دوماً واضعاً رأسي وأذني فوق الحقيبة، وأسمع كل شيء.

– المسألة ليست في الأذن – قال لي – إنهم لصوص مهرة. فهم ينزعون الأحذية والجزمات من أرجل الناس. وليس الآذان وحدها.

– أما جزمتي– قلت له– فهي جزمة روسية، ذات ساقين عاليين، ولن ينزعوها.

– فلتذهب إلى الشيطان – أجابني – واجبي أن أحذرك. واعمل ما تريد.

استسلمت للنوم بعد هذا الحديث.

فجأة، وقبل أن نصل إلى جميرينكا، شدني شخص في الظلام من قدمي، حتى أنه كاد يفصلها عن جسمي... قفزت على الفور،

وضربت اللص على كتفه فقفز جانباً. نزلت من السرير العلوي في القطار، وحاولت اللحاق به لكنني لم أستطع أن أركض، لأن نصف جزمتي قد انتزع من قدمي، وأصبحت قدمي في ساق الجزمة.

علا صياحي، وأقلقتُ عربة القطار كلها، فأخذ المسافرون يسألونني عن السبب، فأجبت:

- الجزمة، أيها المواطنون، كاد أن يسرقها من قدمي.

عدت إلى سريري، وألقيت نظرة عليه فلم أجد أي أثر للحقيبة. فارتفع صياحي وضجيجي من جديد. وفتشت جميع المسافرين لم أجد لها أي أثر. لقد تبين أن اللص شدّني من قدمي خصيصاً، كي أرفع رأسي عن الحقيبة لينشلها.

عندما توقف القطار في المحطة، نزلت منه وتوجهت إلى القسم الخاص في الشرطة، وأبلغت عن حادث السرقة.

في القسم واسوني، أبدوا تعاطفهم معي، وسجلوا الحادثة. قلت لهم:

- إذا ما عثرتم على السارق فاقطعوا له يديه.

ضحكوا، ثم قالوا:

- حسناً، سنقطع له يديه. ولكن، ضع قلم الرصاص مكانه.

فعلاً، كيف حدث هذا، لا أدري. لكنني أذكر أنني أخذت قلم الرصاص العائد للقسم من الطاولة. ثم وضعته في جيبي.

وقال لي الشرطي المسؤول:

– من العبث أن يُدعى قسمنا بالقسم الخاص. فخلال فترة زمنية قصيرة، سرق الركاب كل أدوات المكتب. حتى أن أحدهم، ابن كلبة، سرق محبرة المكتب المليئة بالحبر.

اعتذرت لأخذي قلم الرصاص خطأً، وخرجت وأنا أخاطب نفسي:

– «إذا ما طبقوا عندنا قطع الأيدي فسيصبح الجميع بلا أيدي. إن الروح غالية».

هذا، رغم أن لدينا فكرة جريئة، تقول بأن الحياة ستكون أفضل، عاماً بعد عام، وربما ستتحسن كثيراً في المستقبل القريب، ولن يكون هناك لصوص.

وبذلك ستُحلّ المشكلة من تلقاء نفسها. سوف ننتظر إذن...

١٩٢٦

الحمّام والناس

جرت هذه الحادثة في أحد حمامات لينينغراد.

أراد تقني فني، كان يستحم في حمامنا، ارتداء ثيابه بعد أن استحم، فلاحظ برعب أن ثيابه كلها قد سرقت من خزانة المشلح. ولم يترك السارق الطيب لصاحبنا سوى الصدرية والقبعة والحزام. تأوه هذا التقني الفني وتحسر، ووقف أمام خزانته في المشلح عارياً، حائراً، لا يعرف ماذا يفعل. وقف أمام الخزانة، كما ولدته أمه، مصعوقاً، مذهولاً.

إنه رجل فني، متعلم، ولا يتصور نفسه كيف سيذهب الآن إلى بيته. وقف بقدمين مرتجفتين، لا تقويان على حمله.

ثم ارتدى صدريته بانفعال واضطراب، ووضع قبعته على رأسه وأمسك بالحزام بيده. وأخذ يسير على هذا الشكل التجريدي في المشلح، لا يدرك شيئاً ولا يفقه أمراً.

عندما رآه المستحمون قالوا له:

– إن حوادث السرقة تجري كل يوم في هذا الحمام.

أما صاحبنا التقني الفني المتعلم، وبعد أن دار رأسه وداخ، أخذ

يتحدث بلهجة النظام البائد، ويستخدم كلمة «السادة» ويبدو أنه قد فقد بعض سمات شخصيته الجديدة نتيجة لاضطرابه وانفعاله الشديدين، وأخذ يردد قائلاً:

– إن أكثر ما يهمني ويشغل بالي، أيها السادة، هو كيف سأذهب الآن إلى منزلي.

فأجابه أحد الزبائن من الذين لم يستحموا بعد:

– استدع المدير إلى هنا. ومن واجبه أن يجد حلاً لمشكلتك.

قال الفني التقني بصوت ضعيف:

– أيها السادة، اطلبوا لي المدير.

وهنا ركض «الحمامجي» بسرواله إلى الخارج وسرعان ما عاد مع المدير. وتفاجأ الناس بان المدير امرأة.. خلع التقني قبعته من على رأسه، وقال مفكراً متسائلاً:

– أيها السادة، أيها السادة! هذا أسوأ مما حصل! لقد كنا نأمل بأن نرى مديراً رجلاً ولكن فجأة تأتي إلينا امرأة. ومتى أصبح مدراء الحمامات الرجالية نساءً! إنها حالة شاذة.

وجلس من فرط اضطرابه على الأريكة، بعد أن غطى عورته بالقبعة.

أما الرجال الآخرون، فقالوا متسائلين:

– امرأة – مديرة الحمام الرجالي! إنها حالة شاذة.

وهنا، قالت المديرة:

- بالنسبة لكم، أنا حالة شاذة. لكنني لست أبداً حالة شاذة بالنسبة للقسم النسائي من الحمام الذي أديره على بعد خطوات من هنا. أرجو عدم ذكر هذه العبَارة.

تكوّم التقني الفني في صدريته وقال:

- «مدام»، نحن لم نقصد إهانتك. لماذا تقلقين؟ الأفضل أن تفكري وتقولي لي كيف سأذهب إلى بيتي.

قالت المديرة:

- بالطبع، قبلي، كان المدراء رجالاً في الحمام. وكان هذا جيداً، بالنسبة لقسمكم هذا، حمام الرجال. غير أنهم كانوا غير صالحين أبداً بالنسبة للقسم النسائي. فقد كانوا يترددون على القسم النسائي مراراً كل يوم، بغرض وبدون غرض. لهذا لا يعيِّنون الرجال الآن إلاّ نادراً، ويفضلون تعيين النساء. أما أنا، فلا أدخل إلى القسم الرجالي إلا عند الضرورة، وفي حال وقوع حادثة سرقة. وأنا لا أفقد رباطة جأشي خلال ذلك. أما ما أسمعه منكم من إهانات، حيث يدعوني كل مستحم منكم بـ «حالة شاذة» فإنني أحذركم: أحذر كل من يهينني في مركز عملي، أنني سآمر بأخذه إلى قسم الشرطة... وأنت، ماذا حدث لك؟

أجاب التقني الفني:

- أيها السادة، لماذا تتعنت وُتماحك؟ فلتذهب المديرة إلى الشيطان! أنا لا أستطيع أن أتصور، كيف سأذهب إلى البيت دون سروال، وهي

لا تسمح لي بأن أدعوها «حالة شاذة». كما أنها تهدد بأخذي إلى قسم الشرطة. لا، الأفضل أن يكون المدير رجلاً في قسمنا الرجالي. فعلى أقل تقدير، كان بإمكانه إعطائي سروالاً احتياطياً من سراويله. أما وأن المدير امرأة هنا، فقد قُضي علي نهائياً. أنا، أيها السادة، سأبقى في هذا الحمام ولن أخرج منه، وسترون بأعينكم.

عندئذ، قال الزبائن المستحمون للمديرة:

– اسمعي يا «مدام»، ربما زوجك في الحمام الآن، وربما لديه سروال إضافي، فأعطه إياه مؤقتاً كي يرتديه. وكما ترين، إنه قلق جداً، ولا يعرف كيف يصل إلى بيته.

فأجابت المديرة:

– هدوء ونظام تام في القسم النسائي. أما هنا، فتثور ثائرة العواصف والبراكين كل يوم. أما بالنسبة لزوجي، فهو يعمل في مدينة «فياتك» ولا مجال لأي حديث عن أي سروال بالطبع. لا سيما وأن هذه الحادثة هي حادثة السرقة الثانية لهذا اليوم. حمداً لله أن حادثة السرقة الأولى اقتصرت على أشياء صغيرة، وإلا لطالبوني أيضاً بالسروال. والآن، إذا كان لدى أحدكم سروال فأعطوه إياه، فمن الصعب عليّ أن أراه بهذا المنظر. لقد بدأت أزمة الشقيقة عندي بسبب هذه المصائب.

فقال «الحمامجي»:

– حسناً، سأقدم سروالي الاحتياطي ثانية. ولكن، عموماً، علينا أن نخيط، مستقبلاً، سراويل خاصة للحمام. إن حوادث السرقة كثيرة

عندنا، وفي هذا الشهر اهترأ سروالي، حيث أعيره مرة لهذا ومرة لذاك. وهو سروالي الشخصي.

قدم «الحمامجي» سروالاً قطنياً لصاحبنا التقني، كما أعطاه أحد المستحمين سترة وصندلاً. توقف صاحبنا التقني بصعوبة عن النواح والبكاء، وارتدى هذا الزي المتحفي. وبهذا الشكل الأخرق خرج صاحبنا التقني الفني من الحمام، وهو لا يفقه شيئاً.

بعد أن خرج التقني الفني من الحمام، صرخ فجأة أحد المستحمين قائلاً:

- انظروا، ها هي صدرية أخرى زائدة، مرمية على الأرض، وها هو جورب واحد.

تجمهر المستحمون حول هذه الأشياء التي عثروا عليها. وقال أحدهم:

- إنها سقطت على الأغلب من السارق. فتشوا الصدرية جيداً. ربما يوجد شيء في جيبها، كثيرون يضعون وثائق في جيب الصدرية.

- أخذ أحدهم يقلب جيبي الصدرية، فعثر في إحداها على بطاقة شخصية.

كانت هذه البطاقة بطاقة دخول باسم (سيلفانوف)، العامل في ورشة الخياطة المركزية. هنا، أيقن الجميع أنه تم العثور على آثار السارق. بعد ذلك، اتصلت المديرة بقسم الشرطة، وبعد ساعتين تم إجراء عملية تفتيش عند سيلفانوف.

ذُهل سيلفانوف، واستغرب كثيراً وقال:

- ماذا بكم؟ هل فقدتم عقولكم؟ أنا نفسي، فقدت كثيراً من الأشياء في هذا الحمام.

هنا، اعتذر الجميع من سيلفانوف، وقالوا له، إنه مجرد سوء تفاهم. ولكن، قل لنا: من أين لك قطعة الجوخ هذه الموجودة في صندوقك؟ إن هذا الجوخ من ورشتنا، وأنت سرقتها على الأغلب. ومن حسن الحظ أنني قدمت إلى هنا، أثناء تفتيشك، من باب الفضول.

تلعثم سيلفانوف وأخذ ينطق بكلمات فارغة غير مفهومة، وسرعان ما اعترف بسرقة قطعة الجوخ وغيرها من الأشياء.

اعتقلت الشرطة سيلفانوف على الفور، وعلى هذا النحو انتهت قصة الحمام.

١٩٣٥

«آلام فرتر الصغير»

ركبت الدرّاجة ذات مرة.

ودراجتي جيدة. إنها دراجة إنكليزية ماركة B.C.A إنها دراجة محترمة. أتنزه عليها أحياناً من أجل تهدئة الأعصاب والاتزان النفسي.

إنها آلة عصرية جيدة ومجيدة. لكن عجلتاها ليستا كاملتين. أي إنهما كاملتان، ولكن من علامات تجارية أخرى. ففيها عجلة إنكليزية ماركة «البندقيات الثلاث» وعجلة ألمانية من ماركة «دوكس». أما المقود فهو أوكراني. على أية حال، يمكن ركوبها في الطقس الصحو، غير الممطر.

وبصراحة، فالركوب على الدراجة عذاب متواصل، لكنني أركب على الدراجة أحياناً من أجل تنشيط روحي وعندما أستهين بحياتي...

ركبت دراجتي ذات يوم، وانطلقت. اجتزت شارع (كامنوأوستروفسكي)، ثم الحديقة العامة، ثم انعطفت إلى الشارع الجانبي بمحاذات الحديقة، وأنا منتش من هذه النزهة.

كانت مناظر الخريف تحيط بي: العشب الذهبي المصفر، والحقول الممتدة، الممتلئة بالأزهار وأوراق الشجر الصفراء التي تغطي الطريق، والسماء المغطاة بالغيوم.

وكانت الطيور تغرد، والغراب ينقر الأوساخ والفضلات، والكلب الرمادي ينبح أمام البوابة.

نظرت إلى اللوحة الخريفية، فشعرت فجأة بأن قلبي قد اطمأن وسكن، ولم أعد أرغب بالتفكير في الأمور السيئة. وأخذت ترتسم في مخيلتي حياة رائعة: أناس لطفاء، ظرفاء، متفاهمون، يحترم أحدهم الآخر، دماثة الطباع والخلق، محبة القريب، وانعدام المهاترات والشتائم، والغلاظة والفظاظة.

ونتيجة لهذه الأفكار، شعرت فجأة برغبة بأن أعانق الجميع وأخاطبهم بالكلمات الطيبة. شعرت برغبة بأن أصرخ بملء صوتي وأقول: «يا إخوتي، لقد تجاوزنا أشد الصعوبات، وقريباً سنحيا حياة الملوك والأمراء...».

وفجأة سمعت من بعيد صوت صافرة. قلت في نفسي:

– شخص ما، ارتكب مخالفة سير. أحدهم عبر الشارع في المكان غير المناسب على الأغلب. في المستقبل، لن يحصل هذا غالباً، ولن نسمع كثيراً هذه الصفرات التي تذكر بالمخالفات والغرامات وخرق الأنظمة والقوانين.

ومن جديد، سمعت صفرة ثانية مقلقة على مقربة مني هذه المرة، وصرخات مبهمة وسباب مقذع، فقلت في نفسي:

– في المستقبل، لن يصرخ الناس بهذه الطريقة السمجة غالباً. ربما سيصرخون، ولكن لن ينطقوا بمثل هذه الشتائم المقذعة المهينة.

وعلى حين غرة، سمعت شخصاً يركض في إثري، ويصرخ بصوت أجش:

- لماذا تهرب يا ابن الكلبة. فلتحل عليك اللعنة. قف على الفور!

قلت في نفسي: إنهم يلحقون شخصاً ما.

وتابعت قيادة الدراجة بتؤدة، ولكن بنشاط.

- (ليوشكا) - صرخ أحدهم - ادخل من اليسار أيها الوغد، لا تدعه يفلت من أيديك!

نظرت من حولي، فرأيت شاباً يركض من اليسار، وهو يلّوح بعصا، ويهددني بقبضة يده. والتفت إلى الوراء، فرأيت حارساً مهيباً، أشيب الشعر، يركض في الطريق ويصرخ بأعلى صوته:

- امسكوه، أيها الأخوة، (ليوشكا) امسكه، لا تدعه يفلت!

اتجه ليوشكا نحوي، وأخذ يضرب عجلة دراجتي بالعصا. عندئذ، أدركت أن المسألة تخصني. نزلت عن الدراجة، ووقفت أنتظر.

وها هوذا الحارس يقترب مني، وشخيره يعلو ويسمع من صدره، وهو يتنفس بضجة وصوت مسموع. ثم صرخ قائلاً:

- امسكوه!

اقترب مني عشرة أشخاص من فاعلي الخير المتطوعين، وأخذوا يمسكون بي من يدي.

- إخوتي، ماذا بكم - قلت لهم - هل فقدتم عقولكم! أنتم وهذا الأبله الهرم!

فأجاب الحارس:

- سأنهال عليك الآن بضربة ساحقة على أسنانك، وعندئذ ستعرف ما هي عاقبة إهانتي أثناء أدائي واجباتي... لا تدعوا هذا الوقح يفلت من بين أيديكم...

اجتمع حشد كبير من المارّة، ثم سأل أحدهم:

- وماذا فعل؟

قال الحارس:

- عمري ثلاثة وخمسون عاماً، وهذا الكلب أرهقني، وكاد أن يزهق أنفاسي... إنه يسير في اتجاه ممنوع...إنه يركب الدراجة في طريق يمنع فيه ركوب الدراجات... وثمة شاخصة هناك تدل على ذلك. وهو يسير بدراجته مسرعاً كالمجنون... أنا أصفّر له وهو يدير الدوّاستين بقدميه، وكأنه لا يفقه شيئاً، وكأنه هبط من القمر... ومن حسن الحظ أن مساعدي استطاع الإمساك به.

وهنا، ظهر ليوشكا من بين الحشد، وغرز أصابعه كالملقط في يدي وهو يقول:

- لقد أردت أن أكسر يد هذا الثعلب كي يتوقف.

- إخوتي - قلت - أنا لم أكن أعرف أنه يمنع ركوب الدراجات في هذا الشارع، و لم أنو الهرب إطلاقاً.

قال الحارس مستغرباً وهو يلهث:

– لم ينو الهرب! لقد سمعتم كلماته الوقحة، خذوه إلى الشرطة، امسكوا به بقوة، فأمثاله يهربون دائماً.

– إخوتي – قلت لهم – سأدفع الغرامة، أنا لا أتهرب من الغرامة، ولكن لا تلووا لي ذراعي.

وهنا قال أحدهم:

– فليبرز وثائقه الرسمية، وخذ منه الغرامة. ولماذا تأخذه إلى الشرطة عبثاً؟

كان الحارس وبعض المتطوعين يريدون أخذي إلى قسم الشرطة، ولكن، وبضغط من بقية الناس المحتشدين، اضطر الحارس إلى أخذ الغرامة مني، وهو يشتم، متأسفاً على تركي حراً طليقاً.

سرت وأنا أجرُّ دراجتي متمايلاً مضطرباً. وشعرت بدوار شديد في رأسي، وكانت عيناي زائغتين، وأخذت أهذي بنفس قلقة مضطربة.

ومن شدة قلقي، نطقت في الطريق بعبارة «يا إلهي!»، وقمت بتحريك يديّ، الواحدة بعد الأخرى، ولفظت في الهواء بكلمة «تفوه...»

وصلت إلى الكورنيش، فركبت على الدراجة ثانية، ركبت على الدراجة من جديد، وأنا أخاطب نفسي:

– لا بأس، وماذا في الأمر، وأي «بارون» أنت حتى لا يلوون لك ذراعك!

ركبت على دراجتي وسرت بهدوء في شارع الكورنيش، وتناسيت هذا المشهد الغليظ. وأخذت ترتسم في مخيلتي مشاهد رائعة للمستقبل القريب...

أتصور نفسي راكباً دراجة ذات عجلتين متماثلتين تماماً، من ماركة واحدة. وها أنا ذا أنعطف إلى هذه الطريق المنحوسة، فأسمع صوتاً ضاحكاً... أنظر فأرى حارساً يتقدم نحوي، وقد وضع قبعة لطيفة فوق رأسه، ويمسك بيده زهرة التوليب الخريفية. وأخذ يدير الزهرة بين أصابعه ضاحكاً، وهو يقول:

– إلى أين انعطفت أيها الصديق؟ ألا تعرف أن هذا الاتجاه ممنوع؟ لا تفعل هذا في المرة القادمة، وعد الآن من حيث أتيت وإلا سأغرّمك: لن أعطيك هذه الزهرة...

ثم ضحك بصوت هادئ لطيف، وقدم لي الزهرة. وافترقنا أصدقاء، بعد أن تبادلنا عبارات المحبة والاحترام.

لقد أدخل هذا المشهد الهادئ اللطيف السعادة والسرور على آلامي، وتابعت طريقي على الدراجة نشطاً منتعشاً مستبشراً... «لا بأس، إن روحي لم تقصف بعد. وأنا ما زلت شاباً. وأنا موافق على الانتظار، مهما طال...».

شعرت من جديد بالفرح، وامتلأ قلبي بمشاعر المحبة للناس جميعاً. وسيطرت عليّ من جديد، رغبة عارمة بأن أصرخ بملء صوتي: «رفاقي، نحن نبني حياة جديدة، لقد انتصرنا، واجتزنا مصاعب هائلة، فتعالوا نحترم أحدنا الآخر!...»

١٩٣٣

الاعتراف

في الجمعة الحزينة، أفلست العجوز (فيكلا) إفلاساً كاملاً. فقد اشترت شمعة بعشرين كوبيكاً، ووضعتها في الكنيسة أمام الأيقونة. ثبتت الشمعة بعناية وتؤدة أمام الصورة، وبعد أن وضعتها على النحو المناسب، ابتعدت قليلاً، وأعُجبت بما فعلته يداها، وبتثبيتها للشمعة، ثم بدأت تصلي وترجو لنفسها مختلف الامتيازات والرحمة والنعمة، لقاء ثمن الشمعة الذي صرفته.

صلّت فيكلا طويلاً، متمتمة بشفتيها من تحت أنفها، راجية مختلف الطلبات. وبعد أن صدمت جبينها بالأرضية الحجرية القذرة، نهضت ومضت إلى الاعتراف، وهي تتنهد وتتأوه.

كان الاعتراف يجري بالقرب من المذبح، خلف الستار.

انتظمت العجوز في الدور المؤدي إلى مكان الاعتراف، ووقفت وراء عجوز قروية، وأخذت ترسم من جديد علامة الصليب، وتدمدم. كان الاعتراف يجري بسرعة. وكان المعترفون يدخلون إلى ما وراء الستار، ويخرجون بعد دقيقة واحدة، متنهدين، متنحنحين، وهم ينحنون احتراماً للرسل والقديسين.

فكرت العجوز في نفسها: «إن الأب في عجلة من أمره، وعلام العجلة يا أبونا، فليس ثمة حريق!».

رفعت فيكلا الستار ودخلت إلى غرفة الاعتراف، وانحنت للأب انحناءة كبيرة، ثم انكبت على يده تقبلها.

– ما اسمك؟ – سألها الأب وهو يباركها.

– اسمي فيكلا.

– حدثيني يا فيكلا – قال الأب – ما هي ذنوبك؟ ألست مذنبة؟ ألا تغتابين من أجل أشياء سخيفة؟ أوليس نادراً أن تلجئي إلى الله؟

– مذنبة، إنني مذنبة بالطبع يا أبتي – قالت فيكلا وأحنت برأسها إلى الأسفل.

– الله يصفح عنك – قال الأب، وغطى فيكلا بالبطرشيل[1]، ألا تؤمنين بالله؟ هل يتطرق الشك إلى نفسك؟

– إنني أؤمن بالله – قالت فيكلا – غير أن ابني يأتي لعندي ويتفوه بعبارات غير حميدة. ويدينني لايماني. هذا مجمل القول. أما أنا، فإنني مؤمنة.

– هذا شيء حسن، أيتها الأم – قال الكاهن – لا تخضعي لهذا الإغراء الضعيف، ولكن، حدثيني بما يقوله ابنك، يدينك ويندد بك؟

١– البطرشيل، والبطرشين: قطعة طويلة من النسيج يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره أثناء الخدمة. – المترجم–

– إنه يندد بإيماني، ويقول إن هذا كلام فارغ، ويقول أيضاً، إن الله غير موجود، ولن تجديه حتى لو قلبت السماء والغيوم...

– الله موجود – قال الكاهن بصرامة – لا تخضعي لهذه الأقوال... ولكن تذكري أيضاً ما كان يقوله لك.

– إنه يقول أشياء مختلفة، متنوعة.

– أشياء مختلفة! – قال الكاهن بغضب – ولكن، من أين كل هذه الأشياء التي تحيط بنا؟ من أين أتت الكواكب والنجوم والقمر، إذا كان الله غير موجود؟ أو لم يقل لك ابنك شيئاً من هذا القبيل؟ من أين جميع هذه الأشياء التي تحيط بنا؟ أم ربما قال«إنها تفاعلات كيميائية؟»

– لا، لم يقل – أجابت فيكلا، وهي ترف بعينيها.

– وربما تكون تفاعلات كيميائية – قال الكاهن متأملاً مفكراً – وربما لا وجود للإله، أيتها الأم، وهذا كله كيمياء...

نظرت فيكلا إلى الأب برعب. غير أن الأخير وضع البطرشيل على رأسها وأخذ يتمتم بعبارات الصلوات، ثم قال لها بكآبة:

– اذهبي، اذهبي، لا تؤخري المؤمنين الآخرين المنتظرين.

نظرت فيكلا من جديد برعب إلى الخوري، وهي تتنهد وتتنحنح بخضوع واستسلام. ثم اقتربت من قديسها، ونظرت إلى الشمعة، فقومت فتيلها المشتعل، وخرجت من الكنيسة.

١٩٢٣

بوريس سمسونوف

كاتب روسي ساخر. ولد في موسكو عام ١٨٨٨، شارك في ثورة أكتوبر والحرب الأهلية. بدأ بكتابة القصص الساخرة والانتقادية منذ عام ١٩٢٣، حيث عمل محرراً في المجلة الساخرة الانتقادية «كراسني بيريتس» (الفليفلة الحمراء). وقد أصدر في العشرينيات عدة مجموعات من القصص القصيرة الساخرة الانتقادية، ومنها «ملاحظات رجل مهموم» (١٩٢٥)، و«مذكرات الرفيق باريكادوف» (١٩٢٧)، و«المياه الراكدة» (١٩٢٧)، و«موقف حرج في زابوبيرسك» (١٩٢٨). توفي عام ١٩٣٣. وقد اخترنا قصة «النوراستيني» من مجموعته الأخيرة.

النوراستيني[1]

نظراً لإجـراء تصليحات في الحمام المنزلي، اضطر (أركـادي يفيموفيتش) - وهو رجل مسؤول - للذهاب إلى حمام من الدرجة الأولى من حمامات السوق، وهو حمام لاتزال عليه آثار لوحة قديمة كُتب عليها «حمام النبلاء». فكر أركادي يفيموفيتش في نفسه بهذا الخصوص: «إن هذا في نهاية الأمر لا يخلو من الأهمية. وإذا كان الكاتب الكبير ليف تولستوي يتردد على حمام من الدرجة الثالثة فلماذا لا أرضى بالذهاب إلى حمام من الدرجة الأولى!».

وخلافاً لتوقعات أركادي يفيموفيتش، كان جمهور حمام الدرجة الأولى محترماً ولائقاً. ومع ذلك فقد شعر بشيء من الحرج في التعري أمام الناس: «الشيطان وحده يعرف... ربما كان هناك من ينظر إليّ من دائرتنا؟». غير أن أحداً لم يلتفت إلى أركادي يفيموفيتش. وبعد أن خلع ثيابه أسرع إلى القسم «الجوّاني» من الحمام، مغطياً عورته بالليفة.

في الحمام «الجـوّاني»، وبسبب أصوات الناس الكثيرة وضربات

١- النوراستيني: المصاب بمرض النوراستينيا، وهو مرض نفسي يتمظهر بالوهن العصبي وما يصحبه من تعب وضعف عقلي وجسمي، مصحوب بأوجاع وآلام وأرق ووساوس مرضية. - المترجم-

طشوت الحمام، كان يسيطر هدير متواصل، كالهدير الذي يحدث أثناء الاجتماعات العامة عندما يلقي خطيب ضعيف كلمته. كان الناس يستحمّون بدأب ومثابرة، وكأنهم أخذوا أجراً مقطوعاً على استحمامهم. وقد اصطدمت محاولات أركادي يفيموفيتش الأولى للاستحمام بعدة عقبات. فلم يكن هناك مكان فارغ، و لم يعرف من أين يأخذ الطشت.

قرر أركادي يفيموفيتش في نفسه قائلاً: «سأستأجر «حمّامجياً»، فليس في هذا الأمر ما يخزي أو يشين. فـ«الحمامجي» هو رجل متخصص، ومن الإهانة والاستهزاء بالاختصاص ألا نستفيد من خدماته. فأنا وحدي لن أستحم كما يجب. وسأهدر الماء بصورة غير رشيدة، والوقود والمواد الدهنية التي يستحضر منها الصابون. وعلاوة على ذلك، فإن العمال المشتغلين في الحمام سوف يحصلون على دخل إضافي، وسيحسنون وضعهم المادي».

- هل أنت «فاضٍ»؟ - سأل أركادي يفيموفيتش «حمّامجياً» عابساً، مقطباً بديناً.

- «فاضي» - أجاب «الحمامجي»، وسكب خلال ذلك الماء الساخن من الطشت بحنق على المقعد الرخامي - تفضل.

لقد قال «فاضي» بصورة ساخرة - فكر أركادي يفيموفيتش في نفسه ورأسه مغطى بالصابون - وماذا أقول له: «فاضي»، إذن، اغسل رأس غيرك بنصف روبل.

كان بناء الحمام رطباً، ولا يرتدي «الحمامجي» لباساً خاصاً ...«إنه استغلال فظيع. وأنا أيضاً، أتحمل المسؤولية. فأنا أرغم رجلاً على

العمل، ولم أستأجره لأخذ قسط من الراحة. إنه من شدة قهره وحقده، يفرك رأسي بأظافره بهذه القوة».

صبّ «الحمامجي» الماء الساخن بنزق على أركادي يفيموفيتش، مشيراً بذلك إلى أن غسل الرأس قد انتهى، وأن عليه الاستلقاء على المقعد الطويل.

« يا للشنيع... لقد سلقني سلقاً بالماء الساخن! ربما يعدّني استغلالياً، وربما لو عرف أنني حزبي لما حرقني بالماء الساخن».

انزلقت الليفة الساخنة، المغطاة بغيمة كبيرة من رغوة الصابون برشاقة على جسم أركادي يفيموفيتش، ضاغطة برفق على الأماكن الأكثر حساسية.

ومع تزايد دوران الدم وتعاظمه في جسمه ازدادت أيضاً الأفكار التي تدور في رأس أركادي يفيموفيتش:

«إن الأمر سيكون أسوأ بكثير لو عرف أنني حزبي. انظروا إلى هذا الشيوعي! إنه يستخدم العمل المأجور. إنه استغلالي، يقتني العبيد! هذه كلها أمور بسيطة، ولكن ماذا لو كان هو نفسه حزبياً؟ حزبي يفرك ظهر حزبي آخر لقاء خمسين كوبيكاً! يا للعار. إن هذا اللئيم المكار حزبي على الأغلب، بل وربما عضو قيادة منظمة حزبية، أو ربما عضو لجنة الرقابة الحزبية... وربما أنهم قد أخذوا من المشلح بطاقتي الحزبية من جيبي، وسيعلمونه بشأني. وغداً سيستدعونني، بالطبع، إلى لجنة الرقابة الحزبية ويقولون لي:

«ماذا بك أيها الرفيق العزيز! لقد انسلخت وانفصلت نهائياً. إنك ترغم أعضاء لجنة الرقابة على أن يفركوا لك ظهرك؟ وتحت شعار

الترشيد، ترفّه عن جسدك مثل تاجر من ضواحي موسكو! يجب فصلك من الحزب بسبب ميولك البرجوازية الصغيرة!». أما الحمامجي، فسيدخل التعديل التالي على القرار: «لقد كان العرق يتصبب مني، وأنا فوقه، أفركه وأدلكه كالتمثال...إن جميع الكادحين يستحمون بالصابون الزيتي العادي، أما هذا المرتد فيستحم بصابون من علامة «الملوك الأربعة»...إن فصله من الحزب غير كاف... يجب إعدامه رمياً بالرصاص!» وهاهم يقتادوني لتنفيذ حكم الإعدام... زوجتي تبكي، وكذلك عشيقتي (يلينا أندريفنا) - ليليا الحبيبة. ورُفعت العصابة عن عينيّ، فسأل قائد فصيلة الإعدام أفراد فصيلته: جاهز؟».

- جاهز - قطع «الحمامجي» أفكار أركادي يفيموفيتش المريضة، وصب عليه الماء الساخن بنزق، دلالة على أن «تحميمه» قد انتهى - لقد أصبحتَ كالسرطان...

«تفوه! يا للشيطان! ما هذه الأفكار التافهة التي تدور في رأسي؟ ماذا حلّ بي؟»

***

عندما عاد أركادي يفيموفيتش من الحمام إلى بيته، كان أول ما تفوه به من كلمات لزوجته:

- يا (موسنكا)، يبدو أن أعصابي مرهقة من جديد. اتصلي بالطبيب (ناريفكين) من أجل أن يجهز كل شيء، سوف نذهب هذا الأسبوع إلى المصحة في كيسلوفودسك[٢].

١٩٢٨

٢- كيسلوفودسك: مدينة صغيرة جميلة في جبال القوقاز تشتهر بمصحاتها ومياهها المعدنية التي تشفي المرضى المصابين بالإرهاق العصبي. - المترجم-

ليبيديف - كوماتش

من أبرز الكتاب الساخرين الانتقاديين الروس في العشرينات. ولد (فاسيلي ليبيديف) في موسكو عام ١٨٩٨ في أسرة إسكافي. بدأ بنشر قصصه وأعماله الأدبية باكراً، منذ عام ١٩١٦، عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، واتجه إلى كتابة القصص الساخرة الانتقادية والغنائية الفلكلورية، وتابع دراسته الجامعية في كلية الآداب بجامعة موسكو. وأخذ ينشر قصصه في صحف موسكو، ومن ثم في الصحيفة الانتقادية الساخرة «كركوديل» (التمساح). وخلال عمله طيلة اثني عشر عاماً في هذه المجلة، نشر مجموعة كبيرة من القصص والأقاصيص الساخرة والانتقادية، وأصدرها فيما بعد في عدة مجموعات قصصية، أشهرها المجموعتان «من جميع الجوانب» (١٩٢٦)، و«أناس وأعمال» (١٩٢٧). في الثلاثينيات كتب مجموعة أغـاني لفيلمين كوميديين ساخرين «الشباب المرح» و«السيرك». في أعوام الحرب العالمية الثانية خدم في الأسطول السوفييتي وكتب مجموعة من الأغاني والقصائد الشعرية الوطنية. توفي في موسكو عام ١٩٤٩. من أشهر مجموعاته القصصية الساخرة الأخرى «أباريق في فنجان» (١٩٢٦)، و«ابتسامات حزينة» (١٩٢٧). وقد اخترنا منهما القصص الساخرة التالية: «المهنة الحساسة»، «البرغي»، «المخترع».

المهنة الحساسة

غمز (إبفان ديوميدوفيتش) بخيلاء، ضيفه، شقيق زوجته، القادم من الريف، وقرع قدحه بقدحه، ثم فتل شاربيه بزهو ورضى:

– أتسألني، يا (أندريوشا) العزيز، ما هي الوظيفة التي أشغلها في الاتحاد الصناعي؟ إن وظيفتي، أيها الأخ، دقيقة وحساسة. ورغم أنني أعدّ سكرتيراً عادياً، إلا أن عملي متميز وفريد. إنني أعمل يا أندريوشا الحبيب، في القسم الأدبي.

نظر الضيف بدهشة واحترام إلى إيفان ديوميدوفيتش، حتى أنه غض طرفه، ثم قال مستغرباً:

– في القسم الأدبي؟ وأي قسم أدبي في اتحاد صناعي؟

ابتسم إيفان ديوميدوفيتش برفق وقال:

– مثل هذا القسم موجود، أيها الأخ.

– ممكن... ربما هي إعلانات تكتبها؟ أم ماذا؟

– أية إعلانات؟ ارتفع قليلاً! أنا، أيها الأخ، أنشر كتاباتي في جميع الصحف، بل والمجلات أيضاً.

- إذن، أنت كاتب؟

- نوعاً ما.

- وما علاقة الاتحاد الصناعي؟ ولقاء أي عمل تحصل على رواتبك منه؟

- لقاء هذا نفسه. لقاء كتاباتي ومؤلفاتي.

بسط أندريوشا يديه، وهز رأسه، وتحول بكامله إلى علامة استفهام، غير مصدق ولا مقتنع. وهذا ما أثار رضى إيفان ديوميدوفيتش، وقهقه بمرح، حتى أنه أوقع الوعاء على الأرض. وقال:

- ماذا بك؟ هل ألقيت عليك أحجية، أيها الأخ؟ حسناً، لن أدعك تتخبط بعد الآن! حسناً، سأكشف لك سر عملي. إنني أعمل، أيها الأخ، في الاتحاد الصناعي مفنِّداً رسمياً. هل فهمت؟

- كيف ؟

- هكذا، بكل بساطة. أتعرف، أولاً، ما هو التفنيد، أو الدحض أو التكذيب؟ يمكنك أن تعثر في أي صحيفة من الصحف على مثل الزاوية التالية: «الرفيق المحترم رئيس التحرير: رداً على المقالة الفلانية، المنشورة في العدد الفلاني من صحيفتكم الغراء، يرى مجلس إدارة الاتحاد الصناعي أنه مضطر للتصريح بالآتي...» وإلخ... هل قرأت مثل هذه الزاوية؟ إن هذا هو عملي. أتعرف، إنني منذ الصغر، كنت مولعاً بمثل هذه التمرينات الأدبية، وطباعي مناسبة تماماً: فأنا أحب أن أقرص وألذع بخبث وضغينة، وأنا أحسن قول الكلمات اللاذعة. لقد

حاولت النشر في بعض المجلات الساخرة، فلم يقبلوا كتاباتي، وفشلت المحاولة. وبدا لي وكأنني انفصلت نهائياً عن الأدب. وفجأة أسعدتني مصادفة جميلة. فقد كتبت تفنيداً حاز على إعجاب مجلس الإدارة، وألحقته بتفنيد ثان حاز أيضاً على إعجاب الإدارة..وهكذا، أيها الأخ، وجدت ضالتي، وعثرت على اتجاهي ورسالتي! والآن، عندي أيها الأخ، موظفان اثنان، يعملان بإشرافي، وأنوي الآن طلب موظف ثالث. آه، يا أندريوشا لو كنت أكثر طلاقة في الحديث والكتابة...

فتأوه أندريوشا وقال:

- أنىّ لي مثل هذه الطلاقة... وهل لديك كثير من العمل؟

- إن العمل عندي لجة بلا قرار! ثمة بحر كامل من الأعمال. احكم بنفسك: يضم اتحادنا الصناعي ثمانية مصانع كبيرة، إضافة إلى المؤسسات الفرعية والأقسام الملحقة وغيرها من الملحقات. وهناك مراسل عمالي في كل مؤسسة أو مصنع منها. وجميع المراسلين يكتبون عن العمل في مؤسساتهم، ويجب تفنيد الجميع. فكيف لا يكون هناك عمل كثير! إن الغرق ممكن في مثل هذا القدر الهائل من الأعمال، حتى أنني بدأت بمكننة قسم من العمل لتسهيله. ولكن، ثمة أمور جدية أحياناً. فعندما يقدم مراسل عمالي مادته الصحفية إلى أحد الكتاب الساخرين، وينتقدنا هذا الكاتب بمقالة ساخرة لاذعة طويلة. هنا بالطبع، لا يمكننا التخلص بوريقة صغيرة مكتوبة. هنا، نضطر إلى الرد على المقالة الساخرة بمقالة مماثلة، وهذا عمل أدبي بكل معنى الكلمة. ومثل هذه المقالات أكتبها أنا بنفسي.

- وماذا بعد، تضع عليها توقيعك؟

- لا، بالطبع. توقيع الإدارة. وأحيانا، أكتب مقالة انتقادية رائعة، فأشعر بالأسى عند تقديمها إلى الإدارة للتوقيع. وتتملكني رغبة قوية في أن أضع توقيعي عليها، غير أن العمل هو العمل. هذا بالنسبة للأمور الجدية الخطيرة. أما بالنسبة للزوايا الصغيرة فالمسألة أبسط بكثير. وقد صممت من أجلها نموذجين خاصين: في النموذج الأول، أكتب جميع الوقائع الواردة في الزاوية، وأكتب عكس ما ورد، ثم أضيف بضعة أسطر من الامتعاض مثل: إننا نستغرب أن تقوم رئاسة التحرير بنشر اختلاقات غير مسؤولة تكتبها عناصر غير واعية، وما شابه ذلك. أما النموذج الثاني فأدق من الأول. ونعتمده عندما تكون الوقائع الواردة في الزاوية المنشورة غير قابلة للطعن أو التفنيد بأي شكل من الأشكال. فكل ما ورد صحيح ولا يمكننا الطعن بمصداقيته. هنا، أقوم في القسم الأول من التفنيد بتأكيد صحة كل ما ورد في زاوية المراسل العمالي، أما في القسم الثاني فأكتب قائلاً: وبصرف النظر عن هذا كله، فإن لهجة المقالة فظة ووقحة، وهي تنسف الثقة بالمدراء والرؤساء، وأن الهفوات الصغيرة التي يشير إليها المراسل لا تبرر مثل هذه اللهجة.

نظر أندريوشا بإعجاب إلى إيفان ديوميدوفيتش وقال:

- يا للروعة! وما هذه النتيجة؟ وهل ينشرون مقالاتك التفنيدية دائماً؟

هنا ذبُل إيفان ديوميدوفيتش فجأة وقال:

- لا، ليس دائماً. فقد انقضت تلك الأوقات الذهبية. والآن، لا ينشرون مقالاتنا إلا نادراً. إنهم يطالبوننا بالوقائع والحقائق الملموسة والأرقام. ومن أين نأتي بها؟

وفجأة، حرك يده علامة اليأس وعدم الاكتراث، وقال بمرح من جديد:

– وماذا يهمني؟ سواء نُشرت أم لم تنشر، فأنا أقوم بعملي، وعملي ليس صغير الشأن. وأنا لا آكل خبزي من غير تعب.

١٩٢٧

البرغي

أصيب الموظف – الكاتب (تشيريبانوف) بألم شديد في معدته مدة يومين. وفي اليوم الثالث لم يستطع الحضور إلى وظيفته وبقي طريح الفراش.

لم يكن لديه ما يقرأه، وكانت السماء تبدو رمادية مملة من النافذة. كانت الساعة تدق بصورة رتيبة فوق رأسه، و لم يشعر برغبة في النوم.

أثناء رقوده مغمض العينين، أخذ تشيريبانوف يمارس ما كان يعيقه عنه في الأوقات العادية، عمله ومواعيده وخلافاته مع صديقته (فيروشكا)، والسينما وصوت وابور الكاز، والكسل عموماً. لقد استغرق تشيريبانوف في التفكير.

اتخذت أفكاره في البداية طابعاً غير عادي. لم يفكر براتبه في الشهر القادم، ولا بقطع علاقته بفيروشكا والزواج من (تانيا)، ولا بإجازته، ولا حتى بربح مئة ألف. وباختصار، لم يفكر أبداً بما يفكر به الإنسان عادة في أوقات الفراغ. لقد كانت أفكار تشيريبانوف غير متوقعة، بالنسبة له نفسه، كانت أفكاراً مجردة، وسامية.

– من أنا؟ – فكر تشيريبانوف، متسائلاً فيما بينه وبين نفسه – أنا مواطن الاتحاد السوفييتي، كاتب في الاتحاد الصناعي للمعادن غير

الحديدية. أنا برغي في آلة الدولة الجبارة. وليكن صغيراً وغير ملحوظ، لكنه برغي على أية حال. واليوم، هذا البرغي لا يعمل، وتتراكم على طاولتي رزم من الأوراق غير المسجلة وغير المصنفة في أضابير وسجلات... قد تقوم بجزء من عملي (فرفارا بتروفنا)، عوضاً عني. ولكن كيف ستنفذه؟ ثم لدي، في درج طاولتي أوراق لا يعرفها أحد غيري. ومفتاح طاولتي معي وحدي. إذن، لن تسير الأمور على ما يرام بدون البرغي. لا، لن تسير.

فتح تشيريبانوف عينيه ودخن سيجارة. لقد كانت أفكاره اليوم مرضية بالنسبة له. وأثارت في نفسه الشعور بالفخار.

– أجل!...أنا برغي. والدولة تهتم بهذا البرغي وتفكر فيه. فاليوم صباحاً، اتصلت صاحبة الشقة بإدارتي وأعلمتها أنني مريض. وقد زارني الطبيب، وهو أيضاً برغي. والآن، في الصيدلية، ثمة براغي أخرى تحضّر لي الدواء. تحضّر لي، أنا، تشيريبانوف، الكاتب في الإدارة العامة، الذي توقف مؤقتاً عن العمل بسبب مرضه.

وفجأة، سيطرت صحوة مؤثرة على روح تشيريبانوف. وتصور البناء بكامله الذي يقيم فيه، ثم الشارع كله الذي يقع فيه منزله، ثم موسكو كلها، ثم أخيراً، وبصورة ضبابية وبصعوبة، تصور الاتحاد السوفييتي كله، بأنهاره وجباله، وبحيراته المختلفة، وجمهورياته: قرغيزيا وبشكيريا و...

في كل مكان ثمة براغي صغيرة وكبيرة. وكل برغي يعمل ما يجب عليه، على هذا البرغي، أن يعمله، حسب المركز الذي يشغله، وحسب جدول التعرفة. وجميع البراغي، إن صح القول، يدعم أحدها الآخر

وتشكل آلة واحدة...وإذا ما انتزعتَ هذه البراغي وفرطتها، ووضعتها في الفراش – فإن الآلة كلها ستتعطل، وكل شيء يتوقف: الخطوط الحديدية، والإدارات، وحافلات الترام...

وأخذ تشيريبانوف نفساً طويلاً من سيجارته، وفجأة حرك حاجبيه بصورة جدية:

– نعم...نعم... على كل برغي أن يعرف من هو، وأين موضعه. أنا، على سبيل المثال، كم من المرات خرجت قبل انتهاء الدوام بنصف ساعة من الدائرة، بسبب هذه الفتاة فيرا، والأوراق مكدسة فوق مكتبي. في حين أن برغياً آخر لن يتمكن من العمل بدون هذه الأوراق. أو يسيطر عليّ الكسل، فأجلس وأتقاعس عن العمل: وماذا وراء الوظيفة؟ فليأخذها الشيطان. وعلى أية حال، تستلم راتبك في الخامس عشر من كل شهر، سواء عملت أم لم تعمل. والمهم أن تهتم بنفسك، لا بالوظيفة...أما الأوراق والمعاملات فتتكدس وتتراكم... والناس يلاحقونها ويتابعونها ...آه نحن أناس غير واعين. ما إن تقف في الطابور حتى تتأوه وتتضجر، وكأنك واقف على شوك! ونحن أنفسنا لا ندرك أننا السبب في تشكل هذه الطوابير، لأننا براغي!...

قرعت الساعة عدة مرات فوق رأسه، ولم يلحظ تشيريبانوف ضرباتها، وكان يدخن ويفتح عينيه ويغلقهما، ويتقلب، وهو مستلق، من جنب لآخر، وبقي مشغولاً بأفكاره حتى المساء.

***

بعد أن بقي طريح الفراش أربعة أيام، عاد تشيربانوف إلى وظيفته

وأذهل جميع زملائه على الفور. فقد غدا قليل الحديث، جافياً، وكان يقلِّب في أوراقه دائماً، ولا يرغب بالإجابة عن سؤال لا يتعلق بواجباته المباشرة. أصبح يأتي إلى الوظيفة قبل الجميع، في الصباح الباكر، ويخرج من وظيفته آخر الموظفين دوماً. وأخذ يبدي أقصى درجات الاحترام واللباقة في معاملة جميع المراجعين، بينما أصبح يتبع أسلوباً غريباً مع زملائه: فيؤنبهم لتأخرهم، ولقتلهم الوقت عبثاً، دون عمل، وأخذ يتحدث باستمرار عن البراغي.

أخذ زملاؤه الموظفون يتبادلون النظرات فيما بينهم، ويهزون أكتافهم ويتسمون باحتقار، ويتسارّون من وراء ظهر تشيريبانوف:

– وماذا يريد؟ ومن هو؟ ربما يكون عميلاً سرياً لجهاز الرقابة؟ يتدخل في كل شيء، ويقدم مواعظه للجميع – إنها شناعة بلا حدود. وإذا ما استمر أمره على هذا النحو فسيكون من المستحيل العمل معه. ربما نتحدث بأمره مع رئيس الديوان العام – أليس من الممكن فصله أو نقله إلى مكان عمل آخر؟

– حاولي، انقلي إليه ذلك. ربما يكون قد عيّن فعلاً، مفتشاً سرياً؟ بالأمس، وبسبب هذا الشيطان، جلست نصف ساعة إضافية بلا داع. لم يكن هناك أي عمل، ومع ذلك بقيت في الدائرة. إنني أخافه.

– ماذا؟ عثرت على من تخاف منه. أما أنا، فأعتقد أن شيئاً من الخبل أو الجنون قد مسّه بعد مرضه، ولا شيء غير ذلك. لقد سمعته: إنه يتحدث دوماً عن براغ ولوالب. هذه هي المسألة: أظن أنه فقد أحد براغي عقله. اسمع، إنني سأخرج علناً، قبل نهاية الدوام بنصف ساعة.

– هكذا كنتِ تخرجين في السابق يا فرفارا بتروفنا.

– وماذا في الأمر، كنت أخرج سابقاً قبل نصف ساعة، بصورة عادية، أما الآن فسوف أخرج بصورة استعراضية! من أجل إغاظة هذا الأبله.

– تريثي قليلاً، ربما تنتهي عنده هذه الأزمة. فهو لم يكن سابقاً على هذا الشكل.

غير أن تشيريبانوف، بوجهه المستنير، تشيريبانوف المرهق، الذي أصيب بالنحول والضعف، تابع العمل الجدي عن ثلاثة موظفين، وأوجد نظاماً جديداً سريعاً لتسجيل الوثائق والأوراق. وتابع النظر إلى زملائه غير المتعظين باستهجان واستنكار.

أما رئيس الديوان العام (ألكسي ستيبانوفيتش) الذي أيد في البداية غيرة تشيريبانوف كثيراً، ودافع عنه من هجمات الموظفين الآخرين، فقد أخذ التردد يسيطر عليه، هو نفسه، في نهاية الأمر.

وعندما حدثه تشيريبانوف ذات مرة، في الممشى، عن مشروعه الجديد لتسجيل الأوراق وتبسيط الأعمال الكتابية، شعر ألكسي ستيبانوفيتش بالخوف فعلاً، وقرر في نفسه على الفور، أن هذا الموظف – الكاتب يطمح لأن يشغل مركزه، وقال في نفسه:

– إنها مسألة حساسة، فليأخذه الشيطان! ومن حسن حظي أنه حدثني بمشروعه أولاً. فقد كان بإمكانه التوجه مباشرة إلى مدير الإدارة ويصبح الأمر منتهياً. فيرشحه ويضعه مكاني وينتهي أمري. لا، أيها الأخ، إنك تلعب بالنار. ولم توفق في اختيار من تمارس عليه هذه اللعبة.

غيّر مدير الديوان العام موقفه على الفور من تشيريبانوف. وبعد يوم

واحد، وأثناء تقديمه تقريره إلى رئيس الإدارة، نقل إليه مشروع تشيريبانوف، ونسبه إلى نفسه وكأنه مشروعه هو، وحصل على ثناء حار من الإدارة.

وبعد أن جمع أوراقه واستعد للخروج من مكتب رئيس الإدارة، أشار ألكسي ستيبانوفيتش إشارة عابرة:

– بالمناسبة، أيها الرفيق (أندرييف)، وبصدد مشروعي، من المحتمل أن أقوم بتقليص الملاك...

– رائع جداً.

– وقد فكرت بإقالة هذا الكاتب تشيريبانوف، إنه غير مناسب، فما رأيك؟

– أقِل من تريد يا عزيزي. إنني لا أعرف لماذا تسألني. فانا لا أعرف موظفيك أبداً

– حسناً.

وخرج ألكسي ستيبانوفيتش جذلاً مغتبطاً. وقال في نفسه:

– أي عميل هذا لدائرة التفتيش!...إنه مجرد صبي، غر، أراد أن يبرز... ونحن سنبرزه على طريقتنا.

***

بعد أسبوع، أُقيل تشيريبانوف من عمله، و لم يلحظ أحد أن الديوان العام للاتحاد الصناعي ينقصه برغي...

١٩٢٧

المخترع

خلف طاولة كبيرة عليها ثلاثة أجهزة هاتف، كان يجلس رجل وردي اللون، أصلع الرأس، يضع على عينيه نظارة قرنية. وكان يرسم باهتمام دوائر بقلم الرصاص على صفحة وردية من ورق النشّاف.

دخل (كليوتشاريف) إلى المكتب وسعل.

ارتفعت صلعة الرجل الوردية عن الورق الوردي. واتجهت النظارة القرنية بنظرة ثابتة إليه. ارتبك كليوتشاريف ومد إلى الأمام أسطوانة كبيرة، ممتلئة بالرسوم والتصاميم الهندسية.

- أيها الرفيق! لقد أرسلوني إليك. أنا جئت بخصوص توربين الاحتراق الداخلي... لقد طلبوا مني، هنا، رسوماً هندسية أخرى.

صعر الرجل الوردي خده ليلاً، وأشار بإصبعه إلى الباب الجانبي دون اكتراث.

- أقُصد الغرفة المجاورة.

عندما ابتسم كليوتشاريف شاكراً، وتحرك في الاتجاه المشار إليه، انحنى الرجل من جديد بصلعته الوردية على ورقة النشاف الوردية، وهو يتمتم:

– كم مللت من هؤلاء المخترعين البدائيين الذين يعدّون أنفسهم من أمثال (توماس أديسون)! لقد جلب معه شيئاً سخيفاً بحجم الأنبوب البصري، علاوة على ذلك فهو يبتسم...

في الغرفة المجاورة كانت هناك طاولتان، و لم يكن هناك أحد يجلس خلفهما. وقف كليوتشاريف محتاراً، مذهولاً، لا يعرف ماذا يفعل: هل يعود إلى الغرفة الأولى من حيث أتى، إلى الشخصية الوردية، أم ينتظر هنا. وفجأة خاطبه شخص من وراء كتفيه.

– أنت، أيها الرفيق، جئت على الأغلب، بالرسوم والتصاميم الهندسية؟

التفت كليوتشاريف إلى الخلف، فاقترب نحوه من زاوية الغرفة البعيدة، رجل قصير القامة، لم يلحظه كليوتشاريف عند دخوله.

– أجل، أيها الرفيق، أحضرت معي توربين الاحتراق الداخلي. وكنت قد جئت مرتين إلى هنا.

ابتسم الرجل القصير وقال:

– وماذا في الأمر؟ هنا، ثمة روتين معقد، بحيث يضطر المرء للحضور مرة ومرتين، بل وأكثر. ماذا لديك؟ قلت، توربين الاحتراق الداخلي؟ إن هذا شيء على جانب كبير من الأهمية.

تلاشى كليوتشاريف وذاب سروراً ورضى. لقد كان هذا الرجل القصير القامة عطوفاً، شديد الاحترام، وبسيطاً في الوقت نفسه، لدرجة أن كليوتشاريف شعر وكأنه في بيته.

- أتعمل منذ فترة طويلة في هذا الاختراع؟

- حوالي عام ونصف.

- وما هي النتيجة؟

- عموماً، أنهيت كل شيء. الجانب النظري بالطبع. وإنني أتحرق شوقاً إلى التجريب العملي على نموذج، ولكن ليس لدي نقود.

- وهل يتطلب ذلك كثيراً من المال؟

- ألف وخمسمائة فقط.

تأوه الرجل القصير القامة بعطف وقال:

- أجل، إنه مبلغ صغير بالنسبة لمثل هذا الاختراع. ومع ذلك، سيكون من الصعب الحصول عليه. ربما ستتمكن من تحصيله بطريقة ما.

- وأنت... ألا يمكنك المساعدة، بشكل من الأشكال، في دفع المسألة إلى الأمام؟

- وماذا في الأمر... أنا بكل سرور! إنني مستعد لفعل كل ما أستطيعه. بالمناسبة، لنتعارف: إسمي (لابكين).

- وأنا كليوتشاريف.

- أهلاً وسهلاً. لقد فكرت شخصياً بالتوربين الذي اخترعته أنت. غير أن اختصاصي هو الهيدروليك... بالمناسبة، ألا يمكنك، إن سمحت، أن تعرض...

- المخططات؟ لقد عزمت على عرضها عليك منذ لحظات.

وبدأ كليوتشاريف يفتح بسرعة أسطوانة الرسوم والمخططات.

«يا له من رجل لطيف رائع، لابكين هذا! في حين قالوا لي إن موظفي الدائرة بيروقراطيون، ناشفون. ليس هناك شيء من هذا القبيل، كما تبين لي. إنه هو نفسه مخترع! وقد وعد بالمساعدة دون النظر في المخططات!»

كانت المخططات كبيرة جداً. وارتبك كليوتشاريف، لا يدري أين سينشرها.

- لا داع للارتباك، انشرها على الأرض مباشرة - قال لابكين بمرح - وسأعطيك دبابيس... هكذا!

- شكراً لك، إنني حقاً أشعر بالحرج.

- وعلام الحرج - وأخذ لابكين يزحف على ركبتيه ويساعد كليوتشاريف في تثبيت المخططات الهندسية على الأرضية الخشبية.

فكر كليوتشاريف في نفسه من جديد:

«إنه موقف رائع منه. لقد شرع على الفور بمساعدتي في تثبيتها. وهو يهتم باختراعي أشد الاهتمام... إنه والد حنون وليس موظفاً بيروقراطياً، ولا وجود لأي روتين!».

وعندما تم أخيراً نشر جميع المخططات والرسوم الهندسية على الأرضية الخشبية، وبدأ لابكين ينظر إليها بحب يشبه التبجيل

والاحترام، احمر وجه كليوتشاريف من الرضى والسرور، وقال لاهثاً بسرعة وحماس، شارحاً:

– هذه كلها تفاصيل، ولن تتمكن من رؤيتها هنا. انظر إلى هذا المخطط هذا، أتراه؟

أصغى لابكين إلى شروحه كلها، وزحف على الأرضية وتأمل المخططات، وعبر عن إعجابه وسروره. أما كليوتشاريف، فقد تألق حبوراً وخاطب نفسه قائلاً:

«أي إنسان لطيف، أي إنسان رائع، لابكين هذا!. لو كان يعمل في جميع دوائر الدولة مثل هؤلاء الأشخاص الحقيقيين! بينما تحدثت الصحافة منذ فترة، عن أن العاملين في هذه الدائرة يعاملون المخترعين معاملة سيئة للغاية! آه، كم تحب الكذب والتلفيق هذه الصحف...»

أخيراً، تم الانتهاء من مشاهدة جميع المخططات الهندسية.

نهض لابكين، ومشى على أصابع رجليه، وعانق كليوتشاريف باندفاع قائلاً:

– أهنئك! إن اختراعك سيحدث انقلاباً كاملاً! إنه إنجاز كبير لاتحادنا وبلادنا...

اغرورقت الدمعة في عيني كليوتشاريف من التأثر وقال:

– صدقني...إنني...إنني لم أتوقع مثل هذا الاستقبال... مثل هذا

الاستقبال الأخوي...سوف أكتب عنه في جميع الصحف! أنا...أنت سوف تساعدني؟ أليس كذلك؟...

– بكل استطاعتي! أنا نفسي بخدمتك! وصافح لابكين يد كليوتشاريف بحرارة...

فُتح باب الغرفة المجاورة، وظهر في الباب الموظف ذو الشخصية الوردية المعروفة، بنظارته القرنية:

– ما هذه الضجة! أنتم تعيقون الناس عن العمل!

سكت الرجل وحرك شفتيه، ثم نظر إلى الأرض، وإلى المخططات، وغضب فجأة، قائلاً:

– ما هذا! عليكم أن تكونوا أكثر دقة ونظافة، أيها الرفاق المخترعون! لا يصح هكذا! هنا، دائرة حكومية على أية حال! نعم، ارفعوا هذا كله فوراً! ثم... ثم، أنا لا أفهم، ماذا تنتظران؟ الساعة الآن الرابعة والنصف. وإذا لم يأت الرفيق (نيفيلسكي) حتى الآن، فهذا يعني أنه لن يأتي اليوم! واضح؟

نظر كليوتشاريف بدهشة إلى هذه الشخصية، ثم إلى لابكين، ثم إلى هذه الشخصية من جديد:

– لقد عرضت المخططات الهندسية على الرفيق لابكين... وقد أقرها وحازت على إعجابه...

– يمكنك أن تعرضها عليه في مكان آخر. هذا المكان ليس نادٍ!

على كل، أنت معذور، لا زلت جديداً. أما الرفيق لابكين فقد أضجرنا بمضخته للعام الرابع. لقد آن له أن يعرف الأنظمة!

انكمش لابكين وتقلص جسمه على الفور، واغبرّ وانطفأ، وأصبح أقصر وأصغر. ولاحظ كليوتشاريف فجأة، أن جاكتة لابكين ممزقة عند الكوعين، كما لاحظ وجود رقعة كبيرة على بنطاله كالرقعة البارزة على بنطاله هو.

– إذن، أنت... – قال كليوتشاريف متجهاً إلى لابكين.

– مجرد مخترع! – أكمل لابكين الحديث – مخترع مثلك. وإنني أتردد للسنة الرابعة إلى هذه الدائرة! وهل ظننت أنني من العاملين هنا؟ موظف؟ ها، ها، ها... إنك غريب الأطوار!

وفجأة وقف لابكين إلى جانب الموظف، ذي الشخصية الوردية، وأخذه المرح من جديد، وقال:

–انظر! هل نحن متشابهان؟

نظر كليوتشاريف، وابتسم بأسى.

بالفعل، لم يكن هناك بينهما أي وجه للشبه!

١٩٢٧

ليف نيكولين

كاتب روسي غزير الإنتاج، كتب الشعر والقصة والرواية والقصة الساخرة. ولد في مدينة (جيوتومير) عام ١٨٩١ في أسرة فنان. انتسب إلى معهد التجارة بموسكو وتخرج منه عام١٩١٨. شارك أثناء دراسته الجامعية المتقطعة في الثورة والحرب الأهلية، ونشر قصصه القصيرة في الصحف والمجلات الانتقادية. كتب مجموعة من الروايات أشهرها «بدون أية مصادفات» (١٩٢٤) و«سر الصندوق» (١٩٢٥) ورواية «الزمان والمكان والحركة» (١٩٣٢)، وهي سيرة ذاتية له، كما كتب رواية تاريخية بعنوان «أبناء روسيا المخلصون» (١٩٥٠). توفي في موسكو عام ١٩٦٧. وقد اخترنا من قصصه الساخرة القصة التالية «رئيس الدائرة دراديداموف».

«رئيس الدائرة درادیداموف»

يبدأ يومه منذ الصباح الباكر...

ما إن يستيقظ رئيس الدائرة (درادیداموف) حتى يخاطب زوجته (أغلايا كارلوفنا) قائلاً:

– حال استلامك لهذا الخطاب، عليك التوجه إلى السوق الحرة وشراء المواد الغذائية اللازمة بمبلغ قيمته مئة وعشرون روبلاً... التوقيع: درادیداموف – السكرتير...

في التاسعة والدقيقة الأربعين، لحظة خروجه من البيت إلى الدائرة، يلاحظ أن ابنه (ميشا) لا يزال مستلقياً على الأريكة. فيتوقف ويخاطبه بلهجة رسمية جافة:

– الرفيق (ميخائيل درادیداموف): نظراً لتكرار غيابك عن المدرسة وإهمالك لدروسك، أحيطك علماً بأنني سأتخذ بحقك تدابير صارمة، بما فيها نزع البنطال والجلد بالسوط.

في الشارع يخاطب رئيس الدائرة بائع السجاير في الكشك قائلاً:

-أرجو إعطائي خمساً وعشرين سيجارة من نوع «بوسيولسكيي»[1]، وإعلامي عن القطع النقدية المتوجب علي دفعها.

أما سعادته الحقيقية فتبدأ في مكتبه بالدائرة، وقد كتب على باب مكتبه العبارة التالية:

«رئيس الدائرة آ. ي. درادیداموف. أوقات المراجعة: من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة. يمنع الدخول دون تقرير كتابي»

وهنا يعوم درادیداموف ويغرق في بحر أوراقه الصادرة والواردة:

«رفقاً»، و«عطفاً على...»، و«تأكيداً لـ ...»، و«للتنفيذ أصولاً»، و«حسب الأصول»، و«عاجل»، و«عاجل جداً»، و«شخصياً»...

وفي البيت، أثناء تناول طعام الغداء، تبدأ من جديد حياته الروتينية المملة والمسلية أحياناً:

- أرجو الموافقة على أن تسكبي لي صحناً إضافياً من حساء «البورش»[2] مع إضافة كمية كافية من القشدة الرائبة...

وبعد أن لاحظ غياب ابنته عن مائدة الطعام، قال درادیداموف مخاطباً زوجته بجفاء وبصيغة رسمية:

- أقترح إعلامي عن أسباب غياب ابنتي (لودميلا درادیداموفا). التوقيع: درادیداموف.

١- ماركة سجائر وتعني بالروسية: السُفراء. - المترجم-

٢- حساء روسي معروف من الملفوف واللحم والشمندر الأحمر. - المترجم-

وبعد أن علم أن ابنته عند صديقتها، أبدى ضجره وتأففه قائلاً:

– أوجه لك ملاحظة، وأعرب عن تحفظي بخصوص النوعية السيئة للحم المستخدم في الطهي، الأمر الذي ينعكس على وظائفي الهضمية للطعام.

بعد تناول طعام الغداء، ينام حتى الساعة السابعة. وفي المساء يسلمه مراسل رسالة جاء فيها:

«أبي، لن أستطيع العيش معكم بعد الآن. إنني أختنق، وأتوق إلى الحب والفن. إنني أرحل من هذا البيت نهائياً. أحبُّ الشاب (كوتيا غيينوف)، طالب الأستوديو السينمائي. التوقيع: لودميلا درايدداموفا».

حك درايدداموف نقرته، ثم كتب الحاشية التالية على زاوية الرسالة:

«إلى المواطنة أغلايا درايدداموفا: لإجراء اللازم أصولاً» ثم وضع توقيعه وكتب تاريخ اليوم.

في المساء، الجو المنزلي ممل قاتل. ذهبت الزوجة إلى جارتها لتبادل الأخبار. الهدوء يسيطر على الشقة، وليس هناك من يوجه له رسالة أو كتاباً رسمياً.

في الساعة الحادية عشر ليلاً، وبعد أن فقد درايدداموف صبره، اقترب من الهاتف وأمسك بالسماعة:

– ألو ! هنا شقة (بودكينا)؟ استلموا البرقية المسجلة التالية ذات الرقم الفلاني:

- أقترح على زوجتي أغلايا دراديداموفا أن تضع نفسها تحت تصرفي. مرسل البرقية: دراديداموف. من المستلم؟

وفي الساعة الثانية عشر تماماً، وعند خلوده للنوم، قال مخاطباً مخدته بسعادة وهدوء:

- تقرير رئيس الدائرة دراديداموف. بتاريخ اليوم أستسلم للنوم. وأبلغ عن ذلك، بانتظار الأوامر والتوجيهات. دراديداموف.

١٩٢٥

سيرغي زاياتسكي

كاتب روسي ولد في موسكو عام ١٨٩٣ في أسرة طبيب. أنهى قسم الفلسفة بجامعة موسكو. بدأ بنشر أعماله منذ عام ١٩١٤. بدأ حياته الأدبية شاعراً، ثم انتقل إلى الرواية والقصة القصيرة والمسرحية. كما مارس الترجمة، وترجم مؤلفات جاك لندن إلى اللغة الروسية. كتب كثيراً من القصص والمسرحيات للأطفال. توفي عام ١٩٣٠. من أشهر مؤلفاته: قصة «أكواخ خشبية» (١٩٢٢)، ومجموعاته القصصية: «الباذنجان» (١٩٢٨)، «أرض بلا شمس» (١٩٢٧)، «سيرة ستيبان ألكسندروفيتش لوسيونوف» (١٩٢٨)، ومسرحية للأطفال «روبن هود لص الغابة» (١٩٢٥). وقد اخترنا القصة الساخرة التالية «مواضيع طريفة» من مجموعته القصصية «الباذنجان».

مواضيع طريفة

لمّا كانت جميع المقاعد مشغولة، طلب مني السماح له بالجلوس إلى طاولتي. وكتعبير عن شكره، قرر أن يقدم لي البيرة ضيافة.

– بيرة ذهبية مثلثة! عشرات الروبلات الذهبية! الذهب يبقى في القعر، أما الورق فيطفو على شكل رغوة! هذه العبارة تصلح شعاراً لمصرف الدولة! يا للروعة!

ونظر من حوله إلى صالة البيرة ثم قال:

– المثقفون هنا قلة! والغالبية من المجرمين والقتلة! أنت تعمل في مجال الثقافة على الأغلب، أليس كذلك؟

– أنا أديب.

– صحيح؟ وأنت بهذا الهندام الرائع؟ في حين أن الأدب يقترن في مخيلتي منذ الطفولة بالثياب المرقعة... «o tempora – o mores»[1]... أو كما ترجمه أحدهم عندنا في الامتحان «لكل مدينة عاداتها». أنت تتردد إلى هنا، على الأغلب، بحثاً عن الإلهام؟

١– مثل لاتيني ورد في النص باللغة اللاتينية ومعناه «لكل عصر عاداته وأخلاقه» – المترجم–

– لا، ولكن أنت تعرف، أن زجاجة البيرة لذيذة في الطقس الحار...

– أوه، أجل، بالطبع. ولكن، ليكن في علمك، الآن تجتمع في صالات البيرة حثالة المجتمع. وإذا اقتربت من أحدهم... وسألته عن هوفمان أو إدغار بو... فأية رومانسية هذه! إنك ستضطر للركض إلى البيت وتسجيل جوابه...

– وهل أنت كاتب أيضاً؟

– لا، أبداً. إن إلهامي وإبداعي لا يكفياني إلا لقصيدة من النوع التالي: «رداً على كتابكم ذي الرقم... المؤرخ في... نعلمكم أن...». لكنني أحب مراقبة الآخرين، وأنا فضولي مثل حرم شاه إيران. انظر، مثلا، إلى هذا الزوج، الفتاة والرجل الجالسين في الزاوية. الفتاة: ابنة العصر. انتبه إلى تنّورتها. إنها، خلافاً لقانون الجاذبية، تنحسر زحفاً إلى الأعلى، دون مساعدة خارجية. تزحف مسافة ميليمتر واحد كل ثانية. في حين أن الجوارب – انظر بنفسك – ليست من الألياف. أما الفتاة ذاتها، فهي تافهة. إنها بطلة مسرحية «الزوج السابق أو الزوجة المرتزقة»... وأما هو... إنك لن تحزر من هو أبداً. في حي روغوجسكي – سيميونوفسكي، ثمة شحّاذ متسول يرتدي أسمالاً بالية، ويهز رأسه وكأنه فيل – دمية. وقد علق على صدره فنجان وعبارة كُتب عليها: «صدقة لمن لم ير الشمس أبداً». ما رأيك؟ عبارة جميلة، أليس كذلك؟ ها هو ذا، إنه أمامك، ذاك الذي لم ير الشمس أبداً. هل أنت مندهش، مذهول؟ كيف لا... فالبيرة ذاتها أرغت من الدهشة والذهول.

– هنا، ثمة جانب سيكولوجي دقيق. إنه يتسول طيلة العام. وينام في الملاجئ، ويتغذى مما يعثر عليه في صناديق القمامة. وليس

لديه أي شيء سوى صندوق سري محرّم. إنه يتذلل، ويهين نفسه ويهز رأسه طيلة ثلاثمئة وأربعة وستين يوماً من السنة. وفي اليوم الخامس والستين يفتح الصندوق السري ويتناول منه طقمه الرمادي الدخاني، هذا الذي يرتديه، وقبعته وحذاءه وربطة عنقه – وباختصار يكتسب ملامحه الإنسانية – وبالأموال التي جمعها طيلة أيام السنة يغدو ملكاً... يعيش المرح والحب، وكل ما هو مفترض مع الحب، حتى أنه يتصدق على المتسولين – هل يمكنك أن تتصور؟! في هذا الحي لا يعرفه أحد. وغداً، من جديد، «صدقة لمن لم ير الشمس أبداً». إنه يحشر عاماً كاملاً في يوم واحد! يا له من لهو فاحش!...ويحكى أنه في قديم الزمان كان يعيش فنان. ليس فناناً، بل هو إنسان يقدر تقديراً رفيعاً كل ما هو جميل ورائع!

نقر الرجل الجالس في الزاوية قدحه بقدح جليسته، ووضع على غطاء المائدة ورقة مالية رمادية ومسحها بيده، إشارة إلى أنه لن يأخذ الباقي من الحساب، ثم غاب مع السيدة جليسته في ظلامة المخرَج. أما عازفو الأوركسترا الرومانيون فقد أرسلوا تأوهات متعاطفة إثرهما. تأمل جليسي صالة البيرة، واستغرق في التفكير من جديد. ثم قال لي:

– إذا كانت لديك الرغبة، فاستمع إلى هذه القصة الغريبة حقاً... أيها الرجل المواطن! هات قدحين آخرين من البيرة! عفواً، هذه مسألة تخصني، فأنا المضيف.

– إذن، اسمع. إنه مثل ألفونس دوديه[٢] تماماً. أتتفضل بالنظر إلى

٢– ألفونس دويه: كاتب فرنسي شهير (١٨٤٠–١٨٩٧)، اشتهر بأسلوبه الساخر. – المترجم–

الشاب الجميل الذي يمثل الآن على خشبة المسرح أدواراً مختلفة؟ إنه يقلد كل شيء، بدءاً بهدير وابور الكاز وانتهاءً بصوت أي شخص من الجمهور! وماذا يفعل؟ لديه زوجة وأطفال، إنه يرتزق. لقد جرت معه حادثة غريبة حقاً منذ فترة. ربما تكون مزعوجاً لأنني أسرق وقتك، وبالتالي أموالك؟

– لا، عفواً، أرجوك، بالعكس تماماً، إنني مسرور جداً!...

– حتى أنك مسرور؟ هذا أفضل! إنها، والحق يقال، مواضيع طريفة للغاية.

– بعد انتهاء العرض المسرحي، عندما فرغت الصالة تماماً من الجمهور تقريباً، اقترب منه رجل أنيق، هيئته كهيئة الأمراء، وقدم له البيرة. وقال له: إنني أقدر فنّك تقديراً رفيعاً. جلسا وشربا البيرة وفجأة قال له الرجل الأمير: «هل تريد أن تربح مائة قطعة نقدية ذهبية؟ لا ورقية بل ذهبية حقيقية، تحمل صورة القيصر نيقولاي الدموي؟». وكيف لا يريد! لقد كاد الفنان أن يخرج من عقله. وقال له الأمير: المهم أن تكون لديك الرغبة. هل لديك هذه الرغبة؟ حسن جداً. المسألة على النحو التالي: لقد أصبح والدي خرفاً، ضعيف العقل، بعد أن فقد ابنه الحبيب، وهو ضابط في الحرس الأبيض قتل في جبهة دينيكين[٣]. ومنذ مقتل ابنه، توقف أبي عن الطعام والشراب، وهو ينتظر حدوث انقلاب على أحر من الجمر. كما أنه واثق من أن ابنه لم يُقتل وسيعود فور حدوث الانقلاب.

٣– دينيكين: أحد قادة الحرس الأبيض المعادي للجيش الأحمر في المعارك التي دارت إثر ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ في روسيا. – المترجم–

ذُهل الفنان وأخذته الدهشة وقال: «وما علاقتي بهذا كله؟»

– علاقتك هي الأهم والأكبر! قبيل حدوث الثورة، كان والدي قد خبأ في أرض ضيعتنا السابقة صندوقاً، يحوي ثلاثة آلاف قطعة ذهبية صفراء. ونحن نعرف أنه خبأ هذا الصندوق بالقرب من شجرة زيزفون. ولكن هناك خمسون شجرة زيزفون في كل جانب من الطريق في ضيعتنا السابقة...وليس باستطاعتنا أن نحفر الطريق كله والحديقة كلها وقد استولى الكولخوز على الضيعة. ويرفض الأب العجوز أن يخبر أحداً بمكان الصندوق. وهو يقول: إن هذا الصندوق لابني (بيتيا). وسيعود بيتيا بعد الانقلاب ويحصل على المال. وهو يقول: أنتم خونة، لقد صنعتم ربطات نسائية للشعر من بطانة بدلتي (كان والدي جنرالاً متقاعداً). أما بيتيا فقد ضحى بنفسه دفاعاً عن الأفكار الملكية.

– والآن، انظر إلى هذه الصورة، صورة أخي بيتيا.

نظر الفنان إلى الصورة. كانت تشبهه تماماً، وكأنها صورته الشخصية. والفرق الوحيد هو الشارب الطويل وبدلة الضباط القيصرية التي يرتديها.

– هل فهمت المسألة الآن؟ سوف نلبسك بدلة الضباط القيصرية، ونضع لك المكياج المناسب، ونقدمك للأب العجوز. ونحن نهيئ الوضع منذ الآن بخصوص الانقلاب، كي لا يتأثر الأب العجوز كثيراً. اكذبْ على هواك كما تريد، ثم لَمِّح له بخصوص الأموال، وكأن الأموال لازمة من أجل دعم العرش والوطن، وعندها سيخبرنا بكل شيء: أين، وماذا، ونحن سنحفر الأرض ونخرج الأموال. وتبعد الحديقة عشرين كيلومتراً عن موسكو... والمدير الإداري يعرف كل شيء.

اضطرب الممثل بالطبع، فالعرض مغر. إنها مائة قطعة ذهبية في ظروف الغلاء المتزايد وانخفاض قيمة العملة الورقية. وفكر في الأمر، وبدا له أنه عمل خسيس، ثم طلب مئتين، واتفقا أخيراً على مائة وخمسين قطعة. لم يستطع الممثل النوم طيلة الليل. فقد بقي الليل بطوله يحوّل، هو وزوجته، المائة وخمسين قطعة ذهبية إلى جنيهات إسترلينية ودولارات وعملة ورقية. وملآ جميع الأوراق عندهما في البيت بالكتابات والحسابات. في اليوم التالي حضر إلى المكان المحدد حسب الاتفاق (بالمناسبة، لقد كان هذا الأمير أميراً من حيث هيئته ومظهره فقط، ومع ذلك فقد كان الأثاث قديماً، والأرائك مجعدة ومزخرفة، وكان هناك كثير من الأواني الخزفية القديمة)... قوبل الفنان بقلق واضطراب من قبل الأمير، مغري الأمس، وألبساه ثياب ضابط قيصري، ولاضطراب الأمير وزوجته وقلقهما، نسيا أن من المعيب أن يبدل الرجل ثيابه أمام سيدة. وعلقا على صدره الوسام، وعليه سيفان وقلادة. كما ألصقا له الشاربين وصقلا له فرق شعره. وأصبح الممثل صورة حية لابن العجوز. وقال الأمير المزيف للفنان: إن صوت أخي كان مثل صوتي تماماً. هل يمكنك تقليده؟

- كيف لا، وأنا أقلد صوت أي شخص من الجمهور!

واتضح أنهما كانا بالأمس قد ألمحا للعجوز مساءً بالحديث. وأعلماه أن الوضع غير مستقر في موسكو. وبقي العجوز طيلة الليل مرتدياً ثيابه، يصلي ويبتهل. وفي الصباح استدعى إليه ابنه وزوجته وحدثهما، كيف احتل منطقة (بليفنا)، وكان ينظر إلى الكرملين من الشرفة، علّه يرى ما إذا كان قد رفع العلم القيصري أم لا.

وُضع الممثل في الغرفة المجاورة، وذهب الابن إلى أبيه، وكان الصوت مسموعاً من خلف الجدار:

– آه، يا أبي! لا أدري، ماذا أقول لك.

– ماذا، قل، قل!

– أخبار رائعة جداً.

– تحدث، تحدث!

– لقد تغيرت السلطة.

– ما...

– ولكن، لا تنفعل كثيراً يا أبتي... إنه ابنك بيتيا...

وهنا – حسب قول الفنان – عم الفرح الشديد في الغرفة المجاورة، لدرجة أن وجه الممثل نضح بالعرق البارد من الخجل. كان الأب العجوز يضرب بالعكاز، ويركض في أنحاء الغرفة.

– أين هو، أين هو؟

وهنا، دفعت الكنةُ العجوزَ إلى الغرفة المجاورة. ارتمى العجوز، القصير القامة، المسكين البائس، على الممثل، ثم توقف فجأة وصاح:

– أيها الأولاد، لنشكر الخالق من جديد!

وارتمى على ركبتيه، وكذلك ارتمى الآخرون إثره. وتلى: «أبونا

الذي في السماء». وبدأ بتلاوة أشياء أخرى. لكنه لم يحتمل، وارتمى وعانق ابنه من جديد.

– بيتيا عاد، لقد عاد بيتيا، والوسام على صدره... انظروا، إنه وسام فلاديمير مع سيفين!

أما في الواقع، فقد كانت عظام بيتيا مرمية في مكان ما في السهب، في قبر جماعي مشترك. وأخذ العجوز يكيل الأسئلة لابنه ولا يسمح له بالإجابة. ولاذ الفنان بالصمت، وكأنه من شدة الفرح. أما الابن، فكان من وراء ظهر أبيه العجوز يغمز الفنان، كأن: اسأله عن الأموال. لم يستطع الممثل تحريك لسانه طويلاً، ثم استجمع قواه وقال:

– أبتاه! إن روسيا فقيرة، وهي بحاجة إلى المال، من أجل دعم العرش.

تهلل وجه الأب فرحاً وقال:

– لدي الأموال، إنها موجودة.

ظهرت بقع حمراء على وجه الإبن وزوجته من الاضطراب. وسأل الإبن:

– وأين هي يا أبي؟

– أتذكر «غابتنا»؟ ... اصغ إليّ...

وفي هذه اللحظة بالذات، بـدأت الفرقة الموسيقية العسكرية السوفييتية، الموجودة في الأسفل بعزف نشيد «الأممية» وهدرت موسيقاها قوية مفاجئة من النافذة...

جمد الأب العجوز، واهتز واقشعر وارتجف. ركضت الكنة وأغلقت باب الشرفة، فأبعدها العجوز واتجه إلى الشرفة. ورأى جنود الحرس الأحمر بقبعاتهم الضيقة ونجومهم الحمراء ينشدون:

«سوف نبني عالمنا الجديد»...

انحنى العجوز على درابزين الشرفة، وأرسل صيحة، ثم تدلى بصورة غريبة على الدرابزين كأنه دمية، وهوى من الطابق الخامس إلى الأسفل.

وجفلت خيول ضباط الجيش الأحمر من سقوطه...

قال جليسي:

– أجل! إن لدى كل واحد من الناس في حياته تلك الأحداث، الأقرب إلى الخيال، بحيث أن عليك أن تركض إلى البيت وتسرع بتسجيلها... عفواً... سأخرج إلى الشارع للحظة واحدة. قلبي مريض، وأشعر بدوران في رأسي لانحباس الهواء...انتبه إلى قبعتي... هل قرأت ما كُتب بخصوص المعرض؟

وخرج الرجل... ولم أقرأ الصحيفة، كما أراد. عزفت الأوركسترا مقاطع موسيقية راقصة، وتذكرت ليالي السهوب الطويلة... كانت النشوة تعوم فوق رؤوس الناس على شكل ثعابين رمادية من الدخان. ولم يعد الرجل. رفعت الصحيفة من على الطاولة فلم أجد أثراً لقبعتي. وضعت يدي في جيبي فلم أعثر على محفظة نقودي. ثم أدخلت يدي في جيبي الثانية فلم أجد أثراً لساعتي...

لقد سرق مني وقتي وأموالي، وأخذ قبعتي الجديدة وترك لي قبعته

القديمة. وكانت على الطاولة ست زجاجات فارغة من البيرة بانتظار دفع الحساب. يا له من خيال...

بعد يومين وصلتني بالبريد وثائقي الموجودة في محفظتي، واحتفظ الرجل لنفسه بالمال الموجود فيها... لقاء المواضيع الطريفة....

١٩٢٧

ميخائيل كوزيروف

ولد ميخائيل كوزيروف (١٨٩٢-١٩٤٢) في بلدة (ليخوسلافل) بمقاطعة تفيرسكايا في أسرة ريفية. أنهى دراسته الثانوية، ثم تخرج من معهد البوليتكنيك للهندسة. مارس عدة مهن. بدأ كتاباته الأدبية شعراً، ثم تحول إلى النثر. وتفرغ للكتابة في أوائل العشرينات. وفي بحثه عن أسلوبه الخاص، أخذ يميل إلى أسلوب غوغول وسالتيكوف - شدرين وهوفمان. له روايتان: «العدو المستحيل الإمساك به» (١٩٢٣)، و«المياه الجوفية» (١٩٢٨). أصدر مجموعة من القصص القصيرة الساخرة بعنوان «عش النمل». وقد اخترنا من هذه المجموعة القصتين القصيرتين الساخرتين التاليتين «الرئيس»، «التقرير الشهري».

الرئيس

أمضى المسؤول الكبير (أبرام يريميتش شبارين)، رئيس مجمع خوشني خوش الصناعي إجازته في دار للاستجمام تبعد حوالي خمسين كيلومتراً عن المدينة. والاستجمام متعة لذيذة لمدة يوم، أو يومين، وبعد ذلك يشعر المرء بالملل.

- هيا، سأذهب وأتعرف على القرية - قرر شبارين في نفسه - فأدرسها. إن موظفينا البيروقراطيين يجلسون على مقربة من القرية ولا يفكرون بدراستها. إن الدراسة ستقدم النفع والفائدة، ويمكنني إعداد تقرير عن القرية. وبذلك أحصل على ترقية جديدة... وربما يكلفوني بمهمة مأجورة: «أنت، يا أبرام يريمتش اختصاصي...» حسن جداً.

ودون أن يهمل المسألة أو يضعها على الرف، بدأ أبرام يريميتش بدراسة القرية. تحادث مع أحد المزارعين وسأله:

- ألا زلتم تحرثون بالمحراث، أليس من الأفضل لو اشتريتم جرارات.

- فلتذهب الجرارات إلى الجحيم - أجاب المزارع - لقد اشتريناها وجلسنا إلى جانبها نتألم ونعاني... لقد كسروها، وليس هناك من يقوم بإصلاحها، ولا أحد يذهب إلى المدينة لإحضار ميكانيكي. أما نقل الجرار إلى المدينة فأمر عسير.

وفكر أبرام يريميتش في نفسه على الفور قائلاً: «هنا، كان من الممكن أن يقدم الرئيس العون. فماذا يكلفه إحضار ميكانيكي من المدينة ليوم واحد أو يومين؟...إنه أمر بسيط، ولهذا السبب فهو رئيس».

– هل لديكم رئيس؟ – سأل أبرام.

– ومن يعرف هؤلاء الرؤساء. ربما لدينا رئيس، ولكن لا فائدة ولا منفعة لنا منه...

وتبادل أطراف الحديث مع مزارع آخر:

– الطرق عندكم سيئة إلى حد كبير، لماذا لا تصلحونها؟

– كنا نود إصلاحها، غير أن أحد المسؤولين المشبوهين من المدينة ثنانا عن عزمنا، وقال لنا: «نحن سنساعدكم، نحن سنتدبر كل شيء لكم». أحسبْ، لا زلنا ننتظر منذ عامين كاملين، فقد انقطعت أخباره منذ ذلك الحين.

– من هو، الرئيس؟

– أمر معروف، جميعهم هكذا، ليسوا منا...

وفكر أبرام يريميتش في نفسه قائلاً: «وهذه مادة لك من أجل التقرير عن عمل الرؤساء والمديرين ... عندما يكون الرئيس قادراً على العمل ولا يعمل...»

دخل إلى مركز المقاطعة:

– هل لديكم رئيس؟

– رئيس؟ وكيف، وكيف لا! لدينا رئيسنا... ماذا، وهل نحن غير الناس الآخرين كي نعيش بدون رئيس! إننا مثل بقية الناس، ولدينا رئيس.

– أليس من الممكن رؤيته؟

– ولماذا تريده؟ إنه، والحمد لله...لا يتواجد عندنا إلا نادراً. فهو يتواجد في المدينة. وهذا أفضل. يتردد على اللجنة التنفيذية للمقاطعة، ويبدأ بالإلحاح والمماحكة: «هذا عندكم ليس على ما يرام، وذاك غير صحيح». إنه إنسان متعِب، ولا يصح أن نطرده – فهو إنسان متعجرف، وسريع الاستياء، ويقول: «عليّ أن أساعدكم في عملكم...أنا ممثل لجنة الرؤساء، إنني مبعوث إليكم بمهمة، وأحصل على راتبي لقاء ذلك...»

وفكر أبرام في نفسه قائلاً: «آه، إن لجنة الرؤساء ترسل إلى المقاطعة عنصراً غير صالح، يفهم مهمته فهماً بيروقراطياً». ورسم في ذهنه مخطط التقرير المقبل.

– بودي أن أعرف: من يرأسكم؟...إلى أية مؤسسة تتبعون؟

بدأ جميع العاملين في اللجنة التنفيذية للمقاطعة على عجل بالبحث عن اسم المؤسسة التابعين لها. وبعد نصف ساعة، أمكنهم العثور على اسم المؤسسة الرئيسة:

– اتحاد خوشني خوش الصناعي.

فغر أبرام يريميتش فاهه من الدهشة، وقال:

– إنهم الموظفون البيروقراطيون عندنا. سأريهم إذن! سأجعلهم يتعلمون كيف يعملون بإخلاص، سأحاسبهم.

وفور وصوله إلى المدينة، بدأ أبرام يريمتش ببحث موضوع لجنة الرؤساء.

- هل لدينا مثل هذه اللجنة؟

- وكيف لا - أجاب العاملون في الاتحاد - هناك لجنة للرؤساء، وكل شهر ندفع أقساطاً لها... فلو لم تكن موجودة لجنة لما دفعنا الأقساط...إذن لجنة الرؤساء موجودة.

- ومن هم أعضاؤها؟ وأين الرجل الذي يجمع الأقساط؟ أحضروه إليّ!

كان المراسل الذي يجمع الأقساط موجوداً، فقال، وقد رأى وجه الرئيس الغاضب:

- أنا، إنني أنفذ عملي...أجمع النقود وأرسلها إلى الجهة المعنية، وهذه هي الإيصالات...

- أنا لا أتحدث عن الإيصالات... - اعترض أبرام يريميتش - متى تجتمع لجنتكم؟

- في العام الماضي كانت تجتمع، أما الآن فلا. إذن، لا داع للاجتماع على الأغلب... وأنا أبذل جهدي من تلقاء نفسي، لأنني من الريف، ويجب عليّ مساعدتهم...

- ومن هو رئيس لجنتكم؟

ارتبك المراسل، ونظر إلى وجه أبرام يريميتش الغاضب، وردد بهمس:

- لا أدري...

لا يدري! - ثارت ثائرة أبرام يريميتش - إنه لا يدري... فمن يدري إذن؟ قل لي الآن، من هو رئيس لجنة الرؤساء.

خرج المراسل من المكتب، وتحادث قليلاً مع زميله، زد على ذلك، أن أبرام يريميتش سمع بنفسه كيف أجابه زميله بصوت عال: «وما علاقتك أنت؟ قل له!».

- إنه يعرف، لكنه لا يريد أن يقول - فكر أبرام يريميتش - قل لي فقط اسمه، وأنا سأتدبر أمر هذا الرئيس! أنا سأريه! هل هذه مزحة؟ يرسل غبياً إلى المقاطعة، وهو نفسه لا يحرك ساكناً! سوف أعلّمه كيف يجب أن يعمل! سأسرّحه!...سأطرده!...

دخل المراسل إلى المكتب متردداً.

- ماذا؟ هل عرفت اسمه؟

- عفواً - قال المراسل بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع - ماذا يمكنني القول، عفواً...إن رئيس لجنة الرؤساء هو أنت... عفواً...

- أنا؟ !...

احمر وجه أبرام يريميتش.

- أنا ! - أضاف بصوت كصوت الرعد - وماذا كنت أفعل؟ ولماذا لم تقل لي حتى الآن أنني أنا رئيس اللجنة؟ ولماذا أنت جالس هنا إذن؟ ولقاء أي شيء تحصل على راتبك؟ قل؟ أنا سأ...أنا سأ...

وقف المراسل، وهو بين الحي والميت، وردد بصوت لا يكاد يُسمع:

– لقد ظننت إنكم مشغولون... فقد قلت لي في العام الماضي: أنكم مشغولون.

– إنكم، إنكم – قال أبرام يريميتش مقلداً المراسل – اخرج من هنا... وردد في نفسه قائلاً:

– يعيّنون لك الموظفين البيروقراطيين. وعليك أنت أن تتحمل مسؤولياتهم...

١٩٢٨

التقرير الشهري

جلس (إيليا خوديكوف)، مدير المركز الثقافي في قرية (تيتيوشي)، خلف مكتبه موجوع الرأس بعد عرس البارحة، وعزم على كتابة التقرير الشهري عن عمله، غير أنه كان عاجزاً عن الكتابة.

وفكر في نفسه قائلاً:

- اليوم الأول من الشهر الجديد بات قريباً، وماذا أكتب، ورأسي يكاد أن ينفلق...

لقد كان هناك ما يدعوه إلى انفلاق الرأس. فقد شرب مع المدعوين في عرس أمين المكتبة الريفية دلواً كاملاً من فودكا القطفة الأولى. لكن وجع الرأس شيء وكتابة التقرير الشهري شيء آخر، فهو يحتاج إلى كثير من التفكير.

أما المشكلة، فهي أن خوديكوف قد طار عقله تماماً خلال هذا الشهر، ولم يقم بأي عمل أو نشاط. وبصرف النظر عن العرس الذي شغل الأسبوع الأخير بكامله، حلّ عليه في الأسبوع الماضي ضيف، هو صديقه القديم، الذي يعمل في مركز ثقافي ريفي في المقاطعة المجاورة. حيث التقيا، وتحادثا طويلاً، وأفاق خوديكوف ليجد نفسه في القرية المجاورة، غير قادر على حمل رأسه الثقيل من شدة الصداع.

أخذ خوديكوف يقلّب في التقويم أيام الشهر المنصرم، يوماً بعد يوم، معيداً إلى ذاكرته جميع الأعمال والأحداث التي جرت خلاله. أجل، لقد غادر القرية من أجل إلقاء محاضرة، ولكن لم يكن في القاعة من الحضور سوى عدد قليل جداً، فاضطر إلى إلغاء المحاضرة.

- وأين الناس، ولماذا لم يحضروا؟ - سأل خوديكوف.

- لقد ذهبوا لمشاهدة العرس. اليوم عرس ابنة كولاك القرية[1].

«ها هو ذا خطر الكولاك ماثلاً أمامنا!» - فكر خوديكوف في نفسه، ثم قال:

- أيها الرفاق! علينا أن نحارب الكولاك، أما أنتم فتذهبون إلى أعراسهم. إن هذا أمر سيء!

كانت هناك خطة عمل موضوعة لشهر كامل، لكن الخطة لم تُنفّذ. إنها ستكون مفيدة مستقبلاً، يمكن تنفيذها في شهر آخر. ومع هذا، لا بد لخوديكوف من كتابة تقريره عن نشاطه الثقافي خلال هذا الشهر...

كان خوديكوف ينهض من مقعده تارة، ويسير متنقلاً في غرفته، ويجلس وراء مكتبه تارة أخرى، غير أن تقريره لم يتحرك قيد أنملة بعد كلماته الافتتاحية الأولى:

«قمت في الشهر الجاري بخطوات عملية من أجل إدخال أسس

١- كولاك القرية: الكولاك: الإقطاعيون وكبار الملاّك. كولاك القرية: أكبر إقطاعي في القرية. - المترجم-

التخطيط المنهجي إلى العمل الثقافي، بحيث يجري حسب البرنامج الزمني التالي...»

- وماذا بعد؟ السفر لإلقاء المحاضرة؟ لكن المحاضرة لم تلق...

تنقل خوديكوف في أنحاء الغرفة، ونظر إلى المرآة التي عكست وجهه النعس، المكرنش، المتغضن، ثم نظر إلى التقويم :

- اليوم هو الثلاثون من الشهر الحالي، ولا مناص من كتابة التقرير. على أية حال، سوف أكتب التقرير، مهما كلف الأمر.

وتنشط خوديكوف وانتعش، وأخذت الريشة تقفز قفزاً على الورق:

«تنفيذاً للخطة الثقافية المرسومة، تم إعداد محاضرة وحوار،ُنسفا من قبل عناصر الكولاك المحليين، الأمر الذي خلق مناسبة لإجراء حوار مفتوح مع السكان حول ضرورة محاربة حركة الكولاك وكبار أثرياء الفلاحين. وقد لقي هذا الحوار تعاطفاً مناسباً...»

سمع صوت الهارمونيكا خلف الجدار. فخرج خوديكوف إلى الممر وصاح:

- إيه... من هناك يعزف؟ إنكم تعيقوني عن العمل...

فسكتت الهارمونيكا...

- وماذا بعد ذلك؟ نعم، التقيت صديقي...شربنا الخمرة... ولكن لا يصح الكتابة عن هذا... ولماذا لا يصح؟...

وأخذت الريشة تقفز من جديد على الورق:

«تحقيقاً لهدف التنسيق بين خطط النشاط الثقافي أجريت اللقاء والتواصل (التواصل – هذه كلمة ممتازة) مع العاملين في النشاط الثقافي في المقاطعة المجاورة، وسافرت لهذه الغاية لمدة ثلاثة أيام، الأمر الذي يستدعي صرف تعويض مهمة، والتعويض عن جميع النفقات المصروفة...»

– يا للروعة! – أُعجب خوديكوف بفطنته وذكائه – لقد صرفت حوالي نصف راتبي على هذه الرحلة، وهكذا سأعوض قسماً منه... وماذا بعد...بعد ذلك العرس... وكيف سأكتب عنه؟...ولماذا لا تكتب عنه، فالعرس أقامه أمين المكتبة الريفية، زد على ذلك أنه عرس على الطريقة السوفييتية، ولماذا لا تكتب عنه؟

وتحركت الريشة بسرعة من جديد:

«رابعاً. تم إنجاز تجربة غرس (إنها كلمة رائعة: غرس – تحديداً) أسس الحياة الجديدة في نمط الحياة الريفي المتخلف والقاتم، الأمر الذي تجسد في إقامة عرس أحمر، وقد تطلب ذلك التنسيق (التنسيق – كلمة ممتازة) مع المكتبة الريفية المحلية...

خامساً...»

وفكر قليلاً، وتذكر أنه تخاصم في العرس مع الشماس الذي كان في عداد المدعوين، بصفته قريب العريس، وقد وصل الأمر إلى درجة الإمساك بهما والتفريق بينهما...

– ولماذا لا أكتب عن هذا؟

«خامساً... تحقيقاً لأهداف تبديد ظلام الريف، من حيث الدعاية المضادة للدين، دخلت في نقاش حاد مع رجل دين محلي، لم يكن متعاطفاً مع العرس الأحمر...»

وتوقفت الريشة من جديد. هنا، كان من الأفضل لو أكتب بنداً سادساً، وعندها ستكتمل الصفحة كلها ويصبح التقرير جاهزاً. ولكن، من أين آتي بهذا البند؟

وسمع من الغرفة المجاورة ضجيج الصبية.

- آه، يا للشياطين! إنهم مزعجون.

خرج خوديكوف ثانية إلى الممشى وصاح:

- هيه! أنتم، ماذا تفعلون؟ أليس من الأفضل أن تقرؤوا الكتب؟ بهدوء؟ وأمسك بالريشة على الفور:

«وعلاوة على ذلك، وخارج إطار الخطة المرسومة، أجريت حواراً مع الأطفال والتلاميذ واقترحت عليهم أن يقوموا - بدلاً من التسلية الفارغة السخيفة - بعمل ثقافي واسع في مجال التعليم الذاتي، بمعنى غرس (غرس - كلمة رائعة للمرة الثانية) أسس الفلسفة اللينينية...»

والآن، بقي عليه أن يوقع، ويكتب التاريخ، وبذلك أصبح التقرير الشهري جاهزاً.

١٩٢٨

ميخائيل بولغاكوف

ميخائيل بولغاكوف(١٨٩١-١٩٤٠) كاتب مسرحي وروائي وقاص روسي ساخر، ومن أبرز الكتاب المسرحيين والروائيين الساخرين في الربع الأول من القرن العشرين. ولد بمدينة كييف في أسرة أستاذ موسيقى أكاديمي. درس الطب وتخرج طبيباً من جامعة كييف عام ١٩١٦، ومارس مهنة الطب بضع سنوات في الريف. استهواه الأدب والمسرح والصحافة وتفرغ لها. ترك مجموعة كبيرة من الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة الساخرة. وأشهر أعماله: روايتا «الحرس الأبيض» (١٩٢٤) و«المعلم ومرغريت» (١٩٢٩ - ١٩٤٠)، وقصصه الطويلة «قلب كلب» (كتبها سنة ١٩٢٥ ونُشرت لأول مرة عام ١٩٨٧) و«نشيد الشيطان» (١٩٢٥)، ومسرحياته: «الهروب»، و«شقة زويا» و«الجزيرة القرمزية» (١٩٢٧). تُرجم إلى العربية عدد كبير من رواياته ومسرحياته. وقد اخترنا القصص القصيرة الساخرة التالية: «المومياء المصرية»، «ماء الحياة»، «التهاب الدماغ»، وهي من أجمل قصصه القصيرة الساخرة.

«المومياء المصرية»
قصة عضو اللجنة النقابية

وصلتُ لينينغراد في مهمة رسمية، أنا ورئيس لجنتنا النقابية. وبعد أن ركضنا كثيراً، ولاحقنا كافة القضايا والأمور، قال لي رئيس اللجنة:

– أتعرف، يا (فاسيا)، لنذهب إلى دار الشعب.

– وماذا نسيت هناك؟ – سألته مستفسراً.

– أنت غريب الأطوار – أجابني رئيس اللجنة النقابية – في دار الشعب ستستمتع بألعاب وتسليات صحية، وتستجم، حسب المادة ٩٨ من تشريع العمل (كان رئيس اللجنة يحفظ غيباً جميع مواد تشريع العمل وقوانينه، حتى أنه يمكن اعتباره معجزة الطبيعة).

– حسناً

ذهبنا إلى دار الشعب. ودفعنا رسم الدخول، حسب الأصول، وبدأنا بتطبيق المادة ٩٨. اتجهنا، بادئ ذي بدء، إلى دولاب الموت. إنه دولاب قلّاب دوّار كبير، وفي منتصفه عصا. ولسبب غير معروف، عندما يبدأ هذا الدولاب القلّاب بالدوران السريع يطرح عن جسمه، رامياً إلى الجحيم، بكل عضو من أعضاء اللجنة النقابية يركب فوقه. إنه

لعبة مضحكة جداً، تبعاً للطريقة التي ستطير فيها من فوق هذا الدولاب القلاّب. أنا شخصياً، رُميت من هذا الدولاب، بصورة مضحكة جداً، من فوق رأس سيدة، وتمزق بنطالي. أما رئيس اللجنة النقابية، فقد خلع الدولاب قدمه بصورة فريدة، وكسر عكازاً لأحد المواطنين من خشب الزان، مع صرخة رعب رهيبة أطلقها. باختصار، عندما وقع، ظننت أن علينا أن ننتخب رئيساً جديداً. غير أن الرئيس نهض نشيطاً خفيفاً، مثل تمثال الحرية. وعلى العكس، سعل ذلك المواطن، صاحب العكاز، وبصق دماً.

ثم توجهنا إلى الغرفة السحرية، التي يدور فيها السقف والجدران. هنا، خرجت من بطني زجاجة البيرة «بافاريا الجديدة» التي اشتريتها مع الرئيس. لم أُصب في حياتي بمثل هذه الحالة الشديدة من الإقياء، كما حدث معي في هذه الغرفة الملعونة. أما رئيس اللجنة فقد تحمل وقاوم.

عندما خرجنا من الغرفة قلت له:

– أيها الصديق، أنا أرفض مادتك الـ ٩٨ هذه. فلتحل اللعنة على هذه التسليات رقم ٩٨.

قال لي:

– طالما أننا جئنا ودفعنا رسم الدخول، فعليك أن ترى المومياء المصرية الشهيرة.

دخلنا إلى حجرة، فظهر فيها، وسط ضوء أزرق سماوي، شاب أعلن قائلاً:

– أيها المواطنون، سترون، الآن، ظاهرة من نوعية لم يسمع بها أحد.

سترون مومياء مصرية حقيقية، نقلت إلى هنا قبل ألفين وخمسمئة عام. وهذه المومياء تقرأ الماضي والحاضر والمستقبل. وعلاوة على ذلك، فهي تجيب عن الأسئلة، وتقدم النصائح في مواقف الحياة الصعبة. كما تقدم، سراً، النصائح للنساء الحوامل.

تأوه الجميع من الإعجاب والدهشة والرعب. وبالفعل، تصورا، فقد ظهرت مومياء مصرية على شكل رأس امرأة، تحيط بها من جميع الجهات كتابات مصرية قديمة. أما أنا، فقد تجمدت أوصالي من الدهشة عندما رأيت هذه المومياء فتية شابة، بحيث يستحيل أن يكون عمرها ألفين وخمسمئة عام، بل ولا حتى مائة عام.

دعا الشاب الحضور باحترام قائلاً:

– إسألوها، وتحرّوا البساطة.

وهنا، خرج رئيس اللجنة النقابية وسأل مستفهما:

– بأي لغة سنسأل؟ أنا لا أعرف اللغة المصرية القديمة.

أجاب الشاب دون ارتباك:

– اسأل باللغة الروسية.

سعل رئيس اللجنة النقابية وطرح السؤال التالي:

– قولي، أيتها المومياء العزيزة، ماذا كنت تفعلين قبل انقلاب شباط ١٩١٧ [1]

١– المقصود انقلاب شباط عام ١٩١٧ الذي أطاح بالحكم القيصري في روسيا قبل ثورة أكتوبر عام ١٩١٧. – المترجم–

وهنا، اصفرت المومياء وقالت:

– كنت أدرس في الجامعة.

– حسناً، والآن، قولي لي، أيتها المومياء العزيزة، هل حوكِمتِ في أيام السلطة السوفييتية أم لا؟ وإذا لم تحاكمي، فلماذا؟

رفّت المومياء بعينيها، ولاذت بالصمت.

هنا، صاح الشاب المرافق، مقدّم البرنامج قائلاً:

– ماذا بك أيها المواطن، إنك تعذّب المومياء مقابل خمسة عشر كوبيكاً!؟[٢]

أما رئيس اللجنة النقابية فقد أخذ يوجه الانتقاد والتأنيب لها بسرعة وعنف:

– وما هو موقفك من التجنيد الإجباري؟

بكت المومياء ثم قالت:

– لقد كنت ممرضة، كنت ملاكاً للرحمة.

– وماذا كنت ستفعلين لو رأيت شيوعيين داخل الكنيسة؟ ومن هو الرفيق (ستوتشكا)؟[٣] وأين يعيش الآن كارل ماركس؟

٢– الروبل الروسي مئة كوبيك. – المترجم–

٣– ستوتشكا: زعيم شيوعي بارز من جمهورية لاتفيا، وأحد مؤسسي الحزب الشيوعي فيها، شارك في ثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧، ثم أصبح وزيراً للعدل. – المترجم–

عندما رأى الشاب أن المومياء قد غُمرت بوابل من الأسئلة وتعثرت، صاح هو نفسه، وقال بدلاً عن المومياء بخصوص كارل ماركس:

– لقد مات ماركس.

وهنا زأر رئيس اللجنة النقابية قائلاً:

– لا، لا! إنه حي يرزق، إنه حي في قلوب البروليتاريين.

عندئذ، انطفأ الضوء الأزرق، واختفت المومياء وهي تنوح باكية، وانحدرت إلى أسفل السافلين. أما الجمهور فقد هلل وصاح مخاطباً رئيس اللجنة النقابية:

– أورا، أورا! شكراً، شكراً لامتحانك لهذه المومياء المزيفة.

وأراد الجمهور أن يرفعه ويقذف به إلى الأعلى، تعبيراً عن الإعجاب به. لكن رئيس اللجنة تجنب هذا القذف التشريفي. وخرجنا من دار الشعب، مخلفين وراءنا حشداً من البروليتاريين الصارخين المهللين.

١٩٢٤

ماء الحياة

كانت محطة «سوخايا كانافا»[1] تغط سباتاً في ركام الثلج. وكانت القاطرات تصفر صفيراً خافتاً متناوباً في مركز انطلاق القاطرات، وكان النهار الشتوي ينقضي في بلدة المحطة الصغيرة عكراً قاتماً، غائماً هادئاً. وكما يقال:

كل ما تراه العين هنا،

ينام راقداً، احتراماً للهدوء والسكينة...

وفي هذه اللحظة، زحفت إلى كشك المحطة عربة صغيرة متواضعة، كالحرامي، مغطاة بالمشمع بصورة خفية. وكان يجلس فوق المشمع شخص يرتدي معطفاً من الفرو. وعندما اقتربت العربة وفوقها هذا الرجل من الكشك، غمز الرجل بعينيه بصورة خفية غامضة. وأصابت نوبة مفاجئة الرجلين الضجرين، الواقفين أمام الكشك. أدخل الأول يده في جيبه فامتلأت المنطقة المحيطة بصوت رنين القطع الصغيرة المعدنية. أما الثاني فقد رقص في مكانه وقال بصوت مخرخش:

- (فانكا)! لا تكن وحشاً، واقرضني ربلاً واثنين وستين كوبيكاً...

١- «سوخايا كانافا»- تعني باللغة الروسية القناة الجافة. - المترجم-

- ابتعدْ عني قفزاً، وعلى الفور - أجاب فانكا وفتح باب الكشك بصرير واختفى داخله.

أما الشخص الذي أوصل العربة، فقد ضحك بلذة شهوانية وقال:

- مللتم، يا شباب، أليس كذلك؟

خرج من الكشك رجل يرتدي على صدره مريولاً وسخاً، وأخذ يعوي قائلاً:

- ماذا بك، فليأخذك الشيطان، ولماذا سرت بعربتك في الشارع الرئيسي؟ ألم تستطع المرور بين البساتين؟

- بين البساتين... هناك ركام ثلجي كثيف، - بدأ هذا الرجل الإجابة بضجر وتكشير ولم ينته. فقد قفز أمامه مواطن بلا قبعة، يحمل في يده زجاجتين فارغتين. وصاح بصرخة النصر والظفر:

- رقم واحد، الأول في الدور، أورا! - والتصق بباب الكشك أمام المواطن ذي المريول الوسخ، ثم انحنى له. فقال المواطن ذو المريول:

- فليأخذك الموت! إلى أين تهجم؟ أنت ستكون الرقم الثاني، ستلحق، لا تخف! فصاحب الرقم الأول يناوب هنا منذ يومين.

أما صاحب الرقم الثالث فقد كان يطير طيراناً في هذه الأثناء، على الطريق المؤدي إلى الكشك، ويضرب بقبضتيه على جميع النوافذ، وهو يصيح:

- إخوتي، لقد جلبوا نبيذاً نقياً!...

وصُفقت خوخات أبواب المنازل...

ولاح فجأة الرابع من البوابة، ووصل إلى الكشك، وهو يربط حمالة بنطاله «على الماشي». أما الرقم الخامس في الطابور فقد شغله المعلم (لوكيان)، حيث انقض على الكشك انقضاض الصاعقة، متجاوزاً بسنتيمترات شماس الحي الذي شغل الرقم السادس. أما الرقم السابع فقد احتلته زوجة (سيدروف)، والثامن احتله سيدروف نفسه. وأما الرقم التاسع فقد شغله ابن أخي (بيلاغي)، الذي رمى بالرقم العاشر، وهو (كولوتشوك) معاون رئيس المحطة، مسافة خمسة أمتار، حيث كان يركض الأخير بسرعة مقدارها ٢٢ كيلومتراً في الساعة. وكان صاحب الرقم الحادي عشر شخصاً مجهولاً يرتدي سدارة عسكرية قديمة. وأما الثاني عشر فقد أخرجه البائع خارج باب الكشك، وهو يزأر صائحاً:

– اصطف في الشارع!

***

وامتلأت البلدة بالحركة والناس. وتجمع حشد كبير من الناس حول الكشك، فبدوا كالحزام الأسود. وانقضت امرأة عجوز من الجناح، وهي تحمل زجاجة زيت نباتي فارغة، بهجمات متكررة على الطابور المنتظم. وصاحت بصوت يشبه صوت البوق:

– اللعنة عليكم!، لست بحاجة إلى الفودكا، اسمحوا لي بشراء قطعة لحم لتحضير طعام الغداء.

– أي لحم هنا! صاح الواقفون في الطابور – تريد لحماً هذه العجوز!

– دعك من اللحم الآن يا (باخوموفنا) – ظهر صوت نسائي من الوادي القريب – لن تأخذي شيئاً الآن! إلى أن ينتهي بيع الفودكا...

– عيني، عيني ستفقؤها، إلى أين تحشك نفسك؟!

– إلى الطابور!

– اطردوا هذا الحمار، ذا القبعة، لقد جاء من الجانب و لم يقف في الدور!

– أنت نفسك «جحش»!

– أيها الرفاق، كونوا واعين مهذبين!

– أوه، الفودكا لن تكفي...

– أرجو ألا تتدافعوا، أنا رئيس المحطة!

– بالنسبة للفودكا، أنا الرئيس هنا!

– أنت سكير مدمن، ولست رئيساً!

***

كان باب الكشك يفتح كل ثانية، ويخرج منه شخص سعيد بوجه متلألئ، وبزجاجتي فودكا. أما الباب الثاني الخارجي فكان يجري فيه تجميع الزجاجات الفارغة. وكانوا ثلاثة يرتدون المرايل، ويمسحون عرقهم، وينقلون من الصناديق الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر، ويقبضون النقود.

– اعطني زجاجتين.

– ثلاثة روبلات وأربعة وعشرون كوبيكاً! – صاح الرجل ذو المريول – وماذا أيضاً؟

– ثلاث علب من سمك الرنكة...

– لا يوجد سمك!

– ٦٠٠ غرام من المرتديلا .

– فاسيا، هل بقي مرتديلا؟

– نفدت!

– لم يعد هناك مرتديلا، خلصت!

– ما الموجود إذن؟

– جبن روسي – سويسري، وجبن هولندي...

– اعطني ٢٠٠ غرام من الجبن الروسي – الهولندي.

– إثنان وثلاثون كوبيكاً، ثلاثة روبلات وستة وخمسون، الباقي أربعة وأربعون كوبيكا! التالي.

– زجاجتين...

– و«مازة»، ماذا تأخذ؟

– ما يمكنك إعطائي. لقد أنهكت روحي...

– لا يوجد شيء سوى برش الأسنان.

– اعطني علبتين منه.

– لا أريد قماشكم القطني.

– بدون «مازة»، لا يباع النبيذ.

– ماذا بك؟ هل فقدت عقلك، ومتى كان القماش القطني «مازة»؟

– كما ترغب...

– فلـ «تتمزمز» بالقماش القطني في العالم الآخر!

–أرجو عدم استخدام السباب والشتائم!

– أنا لا أشتم، غير أنني أقول إنكم خنازير، لا يصح، لا يصح أبداً أن تطعموا الشعب القماش القطني!

– أيها الرفاق، لا تؤخروا الدور.

ذو الرقم مئتان وخمسة عشر حصل على زجاجة نبيذ و ٤٠٠ غرام من مسحوق الغسيل، وذو الرقم مئتان وستة عشر حصل على زجاجتين وحنجور من الكولونيا، وذو الرقم مئتان وسبعة عشر– زجاجتين وكيلوغرامين من الخبز الأسود، وذو الرقم مئتان وثمانية عشر على زجاجتين وقطعتين من صابون التواليت «رائحة العذراء»، وذو الرقم مئتان وتسعة عشر على زجاجتين و ٤٠٠ غرام من الشمع، وذو الرقم

مئتان وعشرون على زجاجتين وزوج من الجوارب، وأما الرقم مئتان وواحد وعشرون فلم يحصل على شيء!!!

تنفس الصعداء أصحاب المرايل وصاحوا بسرور:

- «خلص» !

بعد ذلك، ظهرت على نافذة الكشك لوحة كُتب عليها «لا يوجد نبيذ». وأنَّ الحشد المتجمع في الشارع أنيناً خافتاً...

***

في المساء، كانت أكوام الثلج تغطي الأرض، وكان مصباح المحطة يشتعل وينطفئ، وأضيئت الأنوار في نوافذ المنازل، وفي الشارع كان يسير شخص، مترنحاً ذات اليمين وذات اليسار، مردداً ومدمدماً بهدوء:

كل ما تراه العين هنا،

ينام راقداً، احتراماً للهدوء والسكينة...

١٩٢٥

«التهاب الدماغ»

(مهداة إلى جميع محرري المجلات الأسبوعية)

كان يوجد في الجيب الأيمن من بنطالي تسعة كوبيكات: قطعتان بثلاثة كوبيكات وقطعة بكوبيكين وقطعة بكوبيك[1] واحد. وكانت تخشخش وتطنطن عند كل خطوة أخطوها. وكان المارة ينظرون إلى هذا الجيب بنظرات جانبية.

أعتقد أن دماغي قد بدأ ينصهر. حقيقة، أفلا ينصهر الإسفلت في الحرارة الشديدة؟ ولماذا لا ينصهر الدماغ الأصفر اللون؟ على أية حال، الدماغ قابع في صندوق عظمي، ومغطى بالشعر، وبسيدارة بيضاء من الأعلى. وفي الداخل يرقد نصفا الكرة المخية بتلافيفهما صامتين.

أما كوبيكاتي فهي لا تتوقف عن الطنين: طن، طن.

وقفت أمام مطعم فيليبوف سابقاً، وقرأت لائحة الطعام المكتوبة على ورقة بيضاء: «حساء «شي»[2]، سمك سيفيريوغا على البخار، وجبة من صحنين... روبل واحد».

١- الكوبيك: قطعة معدنية صغيرة من أجزاء الروبل الروسي. والروبل يعادل مئة كوبيك. – المترجم–

٢- حساء «شي»: حساء روسي من الملفوف واللحم. – المترجم–

أخرجت الكوبيكات التسعة ورميتها في القناة. فاقترب منها رجل يعتمر سيدارة بحرية مهترئة، ويرتدي سروالاً من لونين مختلفين وينتعل فردة واحدة من جزمة، وأدى التحية العسكرية للكوبيكات وصاح بأعلى صوته:

- شكراً من أميرال البحر. أورا !.

ثم التقط القطع المعدنية وغنّى بصوت جهوري ناعم:

أزهار الأقحوان في الحديقة...

أزهرت وذبلت منذ أمد طويل...

كان المشاة يسيرون أمام المسيل، ينشقون مخاطهم بصمت، وكأنه من الطبيعي أن يغني هذا الرجل الذي يرتدي فردة واحدة من الجزمة في الساعة الرابعة بعد الظهر، في شارع الأميرال تفيرسكي، وفي هذا الحر الشديد.

وهنا لحقني كثيرون، وقالوا لي:

- أيها الأجنبي الإنساني، أنعم عليّ أيضاً بتسعة كوبيكات، فهذا مشعوذ دجال، لم يخدم في البحرية أبداً.

- يا أستاذ، اعمل معروفاً ...

وأخذ صبي أسمر اللون، يشبه تشرنومور[٣]، ولكن بلحية

٣- تشرنومور: شخصية خرافية أسطورية تخرج من البحر الأسود على هيئة عملاق طويل القامة أسود اللون.- المترجم-

مقصوصة، يقفز أمامي على ارتفاع ذراع فوق الرصيف، ويقص عليّ بصوت مبحوح:

عند بوابة كالوغا

كان يعيش كاماروف، لص وقاطع طريق!

أغلقت عيني كي لا أراه، وأخذت أحدث نفسي:

– لنفترض أن القصة حدثت على الشكل التالي: أسير في الشارع والحر شديد، وفجأة أرى صبياً، متشرداً يقفز أمامي. ثم يخرج مدير ملجأ الأطفال على حين غرّة من الزاوية. إنه شخصية مشرقة. ماهي أوصافه؟ لنفترض أنها كالاتي: شاب أزرق العينين، حليق، لنفترض أنه حليق أو له لحية صغيرة. صوته عريض جهوري كصوت الباريتون. وخاطب الصبي قائلاً: أيها الصبي، أيها الصبي! – وماذا بعد؟ أيها الصبي، أيها الصبي... يا صبي، يا صبي... «يرتدي مئزراً؟» – فجأة خاطبني دماغي من تحت عمرته: «من يرتدي مئزراً؟». أجبته مستغرباً: «إنه مدير ملجأ الأطفال الذي تتحدث عنه».

– «يا لك من غبي!» – أجبت دماغي.

– «أنت الغبي، عديم الموهبة – أجابني دماغي – سنرى ماذا ستأكل اليوم إذا لم تخترع قصة قصيرة، الآن، في هذه اللحظة، أيها المؤلف الشهير!».

– لا يرتدي مئزراً بل رداءً...

«ولماذا يرتدي رداءً، أجب أيها العبيط؟»– سألني دماغي.

«لنفترض أنه كان يقوم لتوه بتغيير ضماد رجلِ فتاة صغيرة، ثم خرج لشراء علبة سجائر «تريست». وهنا يمكن وصف بائعة الكشك. وها هوذا يقول:

– أيها الصبي، أيها الصبي... (قال في نفسه: سأكتب فيما بعد ماذا قال).

أمسكَ بالصبي من يده وقاده إلى الملجأ، وها هوذا الصبي (بيتكا)[٤] في الملجأ (لنسمي هذا الصبي باسم بيتكا، فمثل هؤلاء الصبيان المتجمدين في الحر يُدعون دائماً باسم بيتكا). لم يعد بيتكا يتحدث عن (كوماروف)، وها هوذا يقرأ في كتاب القراءة، وخداه ممتلئان. وسنسمي القصة بعنوان «إنقاذ بيتكا»، ففي مجلاتنا يحبون مثل هذه العناوين».

«إنها قصة قبيحة» – دوّى صوت ساخر في رأسي تحت الوسادة – لا سيما وأننا قرأنا قصة مشابهة في إحدى المجلات.

– اخرس، إنني أكاد أموت – أمرني دماغي، وفتحت عيني.

لم أجد أمامي أحداً، لا الأدميرال، ولا تشورنومور، كما لم أجد ساعتي التي كانت في جيب بنطالي.

عبرت الشارع واقتربت من الشرطي، الذي رفع صولجانه إلى الأعلى، وقلت له:

– لقد سرقوا ساعتي مني الآن. فسألني:

٤– بيتكا: صيغة الاختصار والتحبب لاسم بطرس، وهو بصيغته المختصرة واسع الانتشار بين الأطفال الروس .– المترجم– .

– ومن سرقها ؟

– لا أدري.

– إذن، أصبحت ساعتك في خبر كان...

وبسبب كلمات الشرطي هذه، شعرت برغبة شديدة في شرب كأس من المياه المعدنية.

– ما ثمن كأس المياه المعدنية؟ – سألت المرأة البائعة في الكشك.

– عشرة كوبيكات.

سألتها عامداً، لكي أعرف ما إذا كان علي أن أتحسر على الكوبيكات التسعة التي رميتها، وشعرت بالسرور والمرح، عندما عرفت أن لا داع للحسرة.

«لنفترض: – شرطي يقترب منه مواطن...»

– «وماذا بعد؟» – سألني دماغي مستفسراً.

– يقول للشرطي: لقدْ سرقت مني ساعتي. أما الشرطي فيشهر مسدسه ويصرخ: «قف! أنت سرقتها أيها النذل» ويصفر بصفارته، فيتراكض الجميع، ويمسكون بالسارق، صاحب السوابق. ويسقط أحدهم على الأرض، ويحدث تبادل إطلاق النار.

– «وانتهت؟» – سألني دماغي الأصفر السميك المتورم من شدة الحر في رأسي. «وانتهت».

- «رائع، عبقري بكل معنى الكلمة - ضحك مني دماغي وأخذ يـدق كالساعة - غير أن هـذه القصة لن تقبلها هيئة التحرير لأنها خالية من الأيديولوجيا. فكل هـذا، من صـراخ، وإشهار المسدس، والصفير والركض... يمكن أن يكتبه أي شرطي من شرطة العهد البائد، n'est pas?[٥]، أيها الرفيق النحات الإيطالي الشهير بينفينيتو تشيلليني!

وذلك لأن إسمي الأدبي هو بينفينيتو تشيلليني. وقد اخترعته قبل خمسة أيام في مثل هذا الطقس الحار. وحاز على إعجاب أمناء الصندوق جميعهم في هيئة التحرير. وسجلوا جميعهم «بينفينيتو تشيلليني» إلى جانب كنيتي في سجل السلف المالية. على سبيل المثال: خمس قطع من فئة العشر روبلات لـ ب. تشيلليني».

أو مثلاً، القصة التالية: سائق العربة رقم ٢٥٧٩. نسي راكب في عربته وثائق هامة من اتحاد معامل السكر. فنقل هذا الحوذي الشريف الحقيبة التي نسيها الراكب ومعها الوثائق إلى اتحاد معامل السكر. وتقدمت صناعة السكر لأمانته، وكوفئ الحوذي الواعي الشريف.

- «أنا أذكر هذا الحوذي - قال لي دماغي الملتهب حانقاً - أذكره منذ أيام الملحق الأدبي لمجلة «نيفا»[٦] ونُشرت قصته بالحرف المطبعي الصغيرة مرة، وبالحرف الكبير مرة أخرى. غير أن الراكب آنذاك كان يعمل في وزارة الداخلية وليس في اتحاد معامل السكر». اسكتْ! ها هي هيئة التحرير وسنرى ما سوف تقوله. أين القصة القصيرة الموعودة؟...»

---

٥ n'est pas وردت في النص بالفرنسية وتعني: أليس كذاك. - المترجم-

٦- «نيفا» - مجلة أدبية شهيرة تصدر في لينينغراد - سانت بطرسبورغ. - المترجم-

صعدت إلى هيئة التحرير على درج متقلقل، بوجه مشرق منطلق، وأنا أغني بصوت عال مطلع أغنية:

من أجل الفتاة سينيا

ومن أجل قطع الآجر...

أحببت مصنع الآجر .

في هيئة التحرير، كان يجلس رئيس التحرير في غرفة ضيقة، وقد اخضر من شدة الحر. وكان يجلس إلى جانبه المحرر ذاته، والسكرتير واثنان آخران متسكعان. وكان يبرز من طاقة خشبية صغيرة أنف أمين الصندوق، الذي يشبه أنف الطير في حديقة الحيوانات.

– دع الآجر لأصحابه، وقل لي: أين القصة القصيرة الموعودة؟ – سألني رئيس التحرير.

– تصور، يا للسخرية – قلت مبتسماً بمرح – لقد سُرقت مني ساعتي الآن في الشارع.

فلاذ الجميع بالصمت.

– لقد وعدتني اليوم بأن تعطيني نقوداً – قلت، ورأيت في المرآة فجأة، أنني أشبه كلباً مدهوساً بحافلة الترام.

– لا توجد نقود – أجاب رئيس التحرير بجفاء. غير أنني عرفت من خلال وجوههم، أن النقود موجودة في هيئة التحرير.

- إن خطة القصة جاهزة لدي، يا لك من رجل غريب - قلت بصوت قوي - سأحضر لك القصة يوم الاثنين في الساعة الواحدة والنصف.

- ماهي خطة القصة؟

- هم... كان يعيش قِس في أحد المنازل...

اهتم جميع الحاضرين، ورفع المتسكعون رؤوسهم، وسلطوا آذانهم نحوي.

- وماذا بعد؟

- ومات ؟

- هل هي قصة كوميدية - سأل رئيس التحرير، محركاً حاجبيه.

- نعم، إنها قصة كوميدية ساخرة - أجبته كالغريق الذي يتعلق بقشة.

- لدينا الآن قصص كوميدية تكفي لثلاثة أعداد - قال رئيس التحرير - كتبها (سيدروف). هات شيئاً آخر، قصة مغامرات.

- عندي، عندي منها بالتأكيد.

- حدثني عن خطة القصة - قال رئيس التحرير بصوت أرق.

- توجه أحد رجال «النيب»[٧]...

٧- «النيب»: الأحرف الثلاثة الأولى من «السياسة الاقتصادية الجديدة» وهي السياسة التي طبقت في العشرينات في الاتحاد السوفييتي إثر قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧ والانهيار الاقتصادي، وأعطت حرية نسبية للقطاع الخاص. والمقصود هنا أحد الأثرياء الجدد. - المترجم-

– وماذا بعد؟

ضغطت على دماغي المريض لدرجة أن العصير أخذ ينسكب منه، ثم قلت:

– ثم سرق اللصوص حقيبة سفره.

– ما عدد أسطر هذه القصة؟

– ثلاثمئة سطر. على أية حال، يمكن جعلها أقل أو اكثر...

– اكتب إيصالاً بعشرين روبلاً، يا بينفينيتو، – قال رئيس التحرير – ولكن احضر القصة، أنا أرجوك جاداً.

جلست أكتب الايصال متلذذاً. لكن دماغي لم يشاركني في هذا. فقد أصبح دماغي صغيراً، متقلصاً، وتغطى بالشقوق السوداء المتخثرة بدلاً من التلافيف والتعاريج. إنه مات.

– لن أعطي شيئاً لمحررك تشيلليني. فقد قبض حتى الآن من الاستكتاب ستين روبلاً بالتمام والكمال.

– أعطه، أعطه، – أمره رئيس التحرير.

وسلمني أمين الصندوق بحقد وكراهية، ورقة جديدة لامعة من فئة العشر روبلات، وأخرى غامقة، قديمة، مشقوقة من الوسط، من الفئة ذاتها.

بعد عشر دقائق، كنت أجلس تحت أشجار النخيل في ظل مطعم فيليبوف سابقاً، متظللاً من أشعة الشمس. وقد وُضع أمامي قدح كبير

من البيرة. قلت مخاطباً القدح: «سنجري تجربة، فإذا لم ينتعش دماغي بعد البيرة، فهذا يعني أنها النهاية، أنه قد مات نتيجة كتابة القصص، ولن يصحو بعد الآن. وإذا كان الأمر كذلك، فسأصرف العشرين روبلاً وأموت. ولنر كيف سيسترجعون السلفة مني، أنا الميت».

أضحكتني هذه الفكرة، ورشفت رشفة من القدح، ثم رشفة أخرى، وعند الرشفة الثالثة شعرت بقوة حيوية تتحرك فجأة في صدغي، وتورمت العروق، وتوسع المحاح المتخثر في جمجمتي.

- هل أنت حي؟ - سألت دماغي.

- «حي» - أجابني همساً

- إذن، اخترع لي قصة الآن .

وفي هذه اللحظة، اقترب مني رجل أعرج يبيع مديات، فاشتريت منه مدية بروبل ونصف، ثم جاءني رجل أصم أبكم وباعني بطاقتين بمغلف أصفر كُتب عليه:

- «أيها المواطنون!... ساعدوا الأصم الأبكم»

وقد رُسم على إحدى البطاقتين شجرة عيد الميلاد، محاطة بالثلج الأبيض المصنوع من وبر القطن، ورُسم على الأخرى أرنب طويل الأذنين كجناحي الطائرة، مغطى بالخرز. نظرت بإعجاب كبير إلى هذا الأرنب، وتدفق دم البيرة ذات الرغوة في عروقي. وكان يتدفق وهج الحر من النوافذ، كما كان الإسفلت يذوب من شدة الحر. وقف الأصم الأبكم أمام مدخل المطعم، ونطق فجأة بصوت متأفف متضجر، مخاطباً الأعرج:

- انقلع من هنا، أيها الشيطان! أنت ومدياتك. من أعطاك الحق بالبيع في مطعمي، في مطعم فيليبوف؟ اذهب إلى مطعمك «آلدورادو»!

- لنفترض هكذا - بدأت الكتابة متحمساً - كان الشارع يهدر، ومرت دراجة نارية تصفر كالبلبل. ومر تابوت أصفر مغطى بزجاج عاكس كالمرآة (سيارة باص)!...

- «لقد سارت الأمور بصورة رائعة» - لاحظ دماغي الذي شُفي واستيقظ - اطلب البيرة ثانية، وابرِ قلم الرصاص، وهات ما عندك أكثر...وأكثر...الإلهام... إنه الإلهام.

بعد لحظات قصيرة، انسحب الإلهام من خشبة المسرح تحت أصوات المارش العسكري «شوبرت - تاوزيغ» وضجيج الصحون، ورنين القطع النقدية المعدنية.

كتبت قصة مزينة بالرسوم والألوان، وأنشد دماغي على أنغام المارش العسكري:

ما رأيك يا «سنيور» ،

هل أُعطيت الموهبة؟

قل لي، ما هو رأيك؟!

يا للحر! يا للحر!....

١٩٢٦

بانتيليمون رومانوف

كاتب روسي سوفييتي انتقادي (١٨٨٤-١٩٣٨). ولد في قرية بتروفسكايا بمقاطعة تولا، في أسرة موظف صغير. أنهى المدرسة الثانوية في تولا، ثم انتسب إلى كلية الحقوق بجامعة موسكو. لم يكمل دراسته الجامعية وترك الدراسة وعاد إلى قريته بعد سنة ونصف، حيث عمل موظفاً. انتقل إلى موسكو عام ١٩١٨. نشر قصته القصيرة الأولى في مجلة «الفكر الروسي»، وبدأ الاستكتاب في مجلات أدبية عديدة. نشر في العشرينات والثلاثينات قصصاً كوميدية انتقادية كثيرة، كما نشر سيرة حياته وطفولته في روايته «طفولة» (١٩٢٤). ونشر رواية «روسيا» في خمسة مجلدات (١٩٢٢-١٩٣٦). وقد اخترنا قصة «الجدار» التالية من مجموعاته القصصية الساخرة.

«الجدار»

جلس رئيس مجلس إدارة إحدى المؤسسات السوفييتية في مكتبه، ثم نهض، وبدأ لسبب ما، يقيس مكتبه بخطواته طولاً وعرضاً. وبعد أن أخذ القياس، توقف ومسح نقرته بكفه، ونظر إلى الجدار نظرة متسائلة شاملة، أحاطت بالجدار من أوله لآخره.

خرج من مكتبه، وتوقف عند الغرفة المجاورة، حيث تجلس ضاربات الآلة الكاتبة. ونظر إلى الجدار نظرة محيطة بعينيه، ثم نادى رئيس الديوان وخاطبه قائلاً:

– (إيفان سيرغييفيتش)، ألا ترى معي، أن من الممكن تحويل هاتين الغرفتين إلى مكتب واحد كبير؟ وعندها يمكننا عقد اجتماعات مجلس الإدارة فيه. أما ضاربات الآلة الكاتبة فيمكن نقلهن إلى الطابق الثاني.

نظر رئيس الديوان إلى الجدار متسائلاً، ونقر عليه بأصابعه ثم قال:

– ممكن. يمكن إزالة هذا الجدار. إنها مسألة بسيطة، ولن تكلف أكثر من مئة، وعلى الأكثر مئة وخمسين روبلاً، مع التسوية والإكمال.

– عظيم!

بعد أسبوع، أخذ يسير رئيس مجلس الإدارة في أرجاء مكتبه الكبير، المؤلف من غرفتين سابقتين، وبدأ يقيسه من جديد بخطواته، ثم قال:

- هذه غرفة حقيقية أخيراً. غير أنها، أصبحت كبيرة جداً أكثر من اللازم، فلماذا يا ترى؟

- هكذا يبدو لك، لأنك لم تألفها بعد - قال رئيس الديوان - غير أن ضاربات الآلة الكاتبة ساخطات، ويقلن بأنهن وضعن في حظيرة كلاب حقيرة.

- وما العمل؟ فليصبرن.

بعد أسبوع، نُقل رئيس مجلس الإدارة إلى مؤسسة أخرى.

حضر الرئيس الجديد، وقام بجولة ليتعرف على موظفي المؤسسة. اقتربت منه في الطابق الثاني ضاربات الآلة الكاتبة، وقلن له:

- إننا متضايقات جداً في هذه الغرفة الصغيرة، أوليس من الممكن أن نعود إلى غرفتنا السابقة؟

- وأين كانت غرفتكن السابقة - سألهن المدير الجديد.

- في الأسفل، في مكتبك.

نزل الرئيس إلى الطابق الأول، وأخذ يقيس مكتبه بخطواته، ثم استدعى رئيس الديوان وخاطبه قائلاً:

– إيفان سيرغييفيتش، ألا ترى معي، أن من الممكن تحويل هذا المكتب إلى غرفتين اثنتين؟ إن ضاربات الآلة الكاتبة متضايقات جداً في قفصهن.

نظر رئيس الديوان إلى الغرفة نظرة محيطة، وقال:

– مسألة بسيطة. ففي السابق كان هناك جدار فاصل بين الغرفتين، وإعادة الجدار أمر بسيط لا يكلف كثيراً.

– عظيم. لا سيما، وأن الاتجاه الآن يقضي بأن تقتصد المؤسسات في صرفها للأموال والموارد التي بحوزتها. في حين أن مكتب الرئيس هنا عبارة عن قاعة استقبال كاملة. وهذا أمر يفوق طاقة مؤسستنا. وهل سيكلف مثل هذا الجدار غالياً؟

حك رئيس الديوان جبينه وقال:

– من المؤسف أننا لم نأخذ هذا الأمر بالحسبان. فلقد كان لدينا مواد أولية كافية لرفع الجدار، لكننا أحرقناها بكاملها. والآن علينا شراؤها. أظن أنه لن يكلف أكثر من ثلاثمئة روبل.

– حسناً. فالأفضل أن تصرف الأموال مرة واحدة. ومن ثم نوفرها ونقتصدها. والأهم من ذلك، أن وضع ضاربات الآلة الكاتبة يثير الشفقة.

– حسناً – قال رئيس الديوان.

وبدأ رئيس مجلس الإدارة يقيس مكتبه بخطواته. ثم سأل رئيس مجلس الإدارة بعد أن أخذ القياس:

– من الذي أمر بهدم الجدار؟

– رئيس مجلس الإدارة السابق – أجاب رئيس الديوان.

– هذا يعني، حسب مزاجه الشخصي؟

– هكذا يبدو.

– ما العمل، عندنا ينظرون إلى الأمر على النحو التالي: طالما أن الأموال هي أموال دولة، فاصرف كما تشاء! أما لو كانت مؤسستنا ملكية خاصة للرئيس السابق، لما خصص لنفسه مكتباً هو أشبه بميدان الجري، طول ضلعه أكثر من عشرة أمتار.

– أجل، وكما يقال، فإن خزينة الدولة لن تفلس من صرف هذا المبلغ.

– ويا ليته صرفه من أجل المصلحة العامة وفعل الخير للآخرين، إنه صرفه لرفاهيته الشخصية.

وبعد أسبوعين، عُزل رئيس مجلس الإدارة.

وجاء الرئيس البديل، فدعا إلى مكتبه جميع موظفي المؤسسة وسألهم أن يبدوا رغباتهم ويقدموا اقتراحاتهم، حيث أنه رئيس جديد، ولا يعرف الظروف المحلية الخاصة بالمؤسسة.

قال الموظفون، أنه ليس لديهم أية شكاوى، غير أنه لا يوجد في المؤسسة مكان يجتمعون فيه مساء، حيث لا توجد في المؤسسة قاعة للمطالعة. لاحظ الجميع، كيف رفع الرئيس رأسه، وأخذ يتفرس بعينيه جدران المكتب. ثم سأل:

- ماذا يوجد في الغرفة المجاورة؟

- إنها غرفة ضاربات الآلة الكاتبة.

- حسناً، انصرفوا الآن إلى أعمالكم، وسأفكر في الأمر...

- ماذا تريد أن تفعل هنا - سأله رئيس الديوان بعد خروج الموظفين من مكتب الرئيس.

- الشيطان وحده يعرف. فقد غرز هؤلاء الموظفون أعينهم على الفور في هذا الجدار، وكأن جنياً مسَّهم.

- وفي أي شيء آخر يمكن أن تنغرز الأعين عندنا؟ وهل نهدم جدران البناء الخارجية؟- قال رئيس القلم، ماسحاً ريشته ببطانة سترته ثم بشعره.

- إيفان سيرغييفيتش، الرئيس يستدعيك - قال المراسل ماداً برأسه من الباب.

- يبدو أنه ثمة وشاية - قال رئيس الديوان، وتوجه إلى مكتب الرئيس.

كان الرئيس يقف أمام الجدار نفسه، ينقر عليه بسبابته، ثم سأل رئيس الديوان:

- الجدار هذا، هل هو سميك أم لا؟

- لا، ليس سميكاً جداً، حوالي عشرة سنتيمترات كما أظن.

– لقد سمعت الموظفين يشتكون من عدم وجود مكان يجتمعون فيه، ربما نزيل الجدار... وعندها ستكون لدينا قاعة كبيرة.

– إنها فكرة جيدة – قال رئيس الديوان – فهدمه مسألة بسيطة.

– عظيم!

وعندما عاد رئيس الديوان إلى مكتبه، قال:

– كل شيء جاهز، وكما توقعت. لقد وقع، هو وأسلافه، على هذا الجدار كالذبابة التي تقع على الورق اللاصق. أولاد الكلبة، سيفلسوننا على الآخر. كما أننا شوهنا البناء ذاته تشويهاً كبيراً. فهو يبدو في وسط ردهاته وكأنه عنبر أو مستودع.

بعد أسبوع، ورد في التقرير المالي المرفوع إلى رئيس مجلس الإدارة:

«١٥٠ روبلاً لهدم الجدار

٣٠٠ روبل لقاء تعمير الجدار الجديد

١٥٠ روبلاً لقاء هدم الجدار» .

وقال رئيس القلم:

– الآن، سيرد لاحقاً، البند الرابع: سندفع ثلاثمئة روبل أخرى لإعادة بناء الجدار، وسيعود كل شيء إلى مكانه، ويحل النظام في المؤسسة ...

١٩٢٦

إيلف وبتروف

إيلف وبتروف: اسم أدبي لكاتبين روسيين مبدعين شريكين، يعدان من أبرز الكتاب الساخرين المعروفين والمشهورين في الحقبة السوفييتية. الأول: إيليا إيلف (اسمه الحقيقي إيليا فاينزيلبرغ ١٨٩٧-١٩٣٧) ولد في أوديسا في أسرة موظف مصرفي، أنهى المدرسة الصناعية وانتقل إلى موسكو عام ١٩٢٣. بدأ العمل في صحيفة «غودوك» (الصفير) الموسكوفية، ونشر قصصه في المجلات الهزلية الساخرة. أما شريكه الأدبي فهو يفغيني بتروف (اسمه الحقيقي يفغيني كاتايف ١٩٠٣-١٩٤٢) ولد في أوديسا في أسرة معلم، أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٢٠، وبدأ بكتابة المقالات والقصص الساخرة عام ١٩٢٢، ثم انتقل إلى موسكو عام ١٩٢٣.

جرى اللقاء الأول بين الكاتبين الساخرين في هيئة تحرير مجلة «غودوك» بموسكو عام ١٩٢٥. وقد كان لقاءً حميمياً وأدبياً إبداعياً بين الكاتبين. وسرعان ما ظهر في الأدب الروسي هذا الاسم الأدبي المركب الجديد (إيلف وبتروف). وفي عام ١٩٢٨ أصدرا روايتهما الكوميدية الشهيرة «الكراسي الاثنا عشرة» التي نقلت إلى الإذاعة والسينما والتلفزيون عدة مرات. وفي العام نفسه، أصدرا روايتهما الثانية «الشخصية المجيدة»، وفي عام ١٩٣١، صدرت روايتهما

الشهيرة الثالثة «العجل الذهبي» التي لقيت نجاحاً، وشعبية منقطعة النظير. وقد استمرا في الإنتاج الأدبي المشترك للقصص الساخرة والمقالات الكوميدية في صحف «البرافدا» و«الصحيفة الأدبية» و«الفن السوفييتي». ومن أهم مجموعاتهما الساخرة» ألف يوم ويوم أو شهرزاد الجديدة» (١٩٢٩)، و«كيف نشأ روبنسون» (١٩٣٩). ويعد هذان الكاتبان ظاهرة فريدة في الأدب الروسي. وقد اخترنا من مجموعاتهما القصصية القصص الساخرة التالية: «كيف نشأ روبنسون»، «أحاديث المائدة»، «كولومبوس يرمي مراسيه على الشاطئ».

«كيف نشأ روبنسون»

شعرت هيئة تحرير مجلة «المغامرات» المصورة التي بلغ عمرها العشرين ربيعاً، بنقص كبير في الأعمال الروائية القادرة على اجتذاب اهتمام القارئ الشاب.

كان هناك بعض المخطوطات الأدبية في هيئة التحرير، لكنها لم تكن من الجنس الأدبي الذي تخصصت به المجلة. فقد كانت مفعمة بالجدية الكلامية الفارغة. وكانت هذه الأعمال تلقي، والحق يقال، بظلها القاتم على روح القارئ الشاب، بدل من أن تشده إليها. وقد أراد رئيس التحرير جذب اهتمام القارئ الشاب بالذات.

في نهاية الأمر، قررت هيئة التحرير التوصية على رواية متسلسلة في حلقات.

أرسلت هيئة التحرير على جناح السرعة تكليفاً للكاتب (مولدافانتسيف). وفي اليوم التالي، حضر مولدافانتسيف وجلس على الديوان السوقي في مكتب رئيس التحرير.

بدأ رئيس هيئة التحرير يشرح المطلوب قائلاً:

– يجب أن تكون الرواية ممتعة، مليئة بالمغامرات الطريفة.

وباختصار، يجب أن تكون الرواية المطلوبة «روبنسون كروزو» سوفييتي، بحيث يقع القارئ في أسرها.

– روبنسون؟ هذا ممكن – قال الكاتب باختصار.

– ولكن ليس مجرد روبنسون، بل روبنسون سوفييتي تحديداً.

– وأي روبنسون آخر، روبنسون ليس رومانياً بالطبع.

كان الكاتب قليل الكلام، وكان يبدو واضحاً أنه رجل عملي. وبالفعل، أنجز الكاتب الرواية في الموعد المحدد. لم يبتعد مولدافانتسيف كثيراً عن الرواية الأصلية العظيمة «روبنسون كروزو». فروبنسون هو روبنسون.

شاب سوفييتي تتعرض سفينته لكارثة وتتحطم، ويقوده الموج إلى جزيرة غير مأهولة. وهناك، يقف هذا الشاب وحيداً ضعيفاً، أمام قوى الطبيعة الجبارة، تحيط به المخاطر من كل جانب: الوحوش، والنباتات المتسلقة، وفصل الشتاء القادم، والأمطار. غير أن روبنسون السوفييتي، المفعم بالطاقة والحيوية، يتغلب على جميع الصعوبات التي بدت وكأنها لا تقهر. وبعد ثلاثة أعوام، تعثر عليه بعثة سوفييتية. فوجدته في أوج قواه وريعان شبابه. لقد تغلب على الطبيعة، وبنى لنفسه كوخاً، أحاطه بطوق أخضر من السياج، وربى الأرانب، وخاط لنفسه ثوباً سميكاً من أذيال القردة، وعلَّم الببغاء أن توقظه كل صباح بالعبارة التالية: «قم، انتبه، إرمِ اللحاف! لنبدأ تمارين الصباح!».

– جيد جداً – قال رئيس التحرير – وبالنسبة للأرانب عظيم جداً.

فهذا مناسب، ويوافق روح العصر. لكن، أتعرف، إنني لم أفهم كما يجب، فكرة العمل الرئيسة.

– صراع الإنسان مع الطبيعة – قال مولدافانتسيف بإيجازه المألوف.

– نعم، لكنها تخلو من أي شيء سوفييتي!

– والببغاء! إنها في روايتي تحل محل الراديو السوفييتي. إنه مذياع خبير.

– الببغاء هذا شيء جيد. وطوق السياج رائع أيضاً. ولكن، لا وجود هنا للأوساط الاجتماعية السوفييتية. فأين، مثلاً، اللجنة النقابية المحلية؟ وأين الدور القيادي للمنظمة النقابية؟

اضطرب مولدافانتسيف فجأة. وما إن شعر أن الرواية قد لا تقبل، اختفت على الفور قلة كلامه، وأصبح خطيباً بليغاً مسترسلاً:

– ومن أين تأتي اللجنة النقابية؟ فالجزيرة غير مأهولة!

– أجل، صحيح تماماً، الجزيرة غير مأهولة، ولكن لا بد من وجود اللجنة النقابية. أنا لست أديباً، ولكن، لو كنت مكانك لأدخلتها في الرواية، باعتبارها مكوّناً سوفييتياً.

– لكن موضوع الرواية كله قائم على أساس أن الجزيرة غير مأهو...

وهنا، نظر مولدافانتسيف فجأة إلى عيني رئيس التحرير وتلعثم. لقد كانت عيناه ربيعيتين، فبرز فيهما فراغ آذاري، وزرقة، وأصبحتا خريفيتين، لدرجة أنه قرر القبول بحل وسط.

– إنك على حق – قال الكاتب رافعاً إصبعه – بالطبع، وكيف لم أستوعب على الفور؟ فقد نجا من السفينة إثنان: روبنسون ورئيس اللجنة النقابية.

– وعضوان متفرغان، وعضوة نشيطة، جامعة لاشتراكات الأعضاء.

– ولماذا هذه العضوة النشيطة الجامعة؟ وممن ستجمع الاشتراكات؟

– من روبنسون.

– يمكن لرئيس اللجنة النقابية أن يجمع الاشتراكات من روبنسون، فلن يكون لديه أي عمل.

– هنا بالتحديد، أنت على خطأ، أيها الرفيق مولدافانتسيف. إن هذا أمر لا يمكن السماح به مطلقاً. ليس من عمل رئيس اللجنة النقابية تضييع الوقت على التوافه، والركض لجمع الاشتراكات. إننا نناضل ضد هذا. وعليه أن يمارس عملاً قيادياً جدياً.

– في هذه الحالة، يمكن إيجاد عضوة نشيطة، جامعة للاشتراكات – قال مولدافانتسيف بخضوع – بل إنه أمر جيد، وستتزوج من رئيس اللجنة النقابية أو من روبنسون نفسه. ومن ثم ستصبح الرواية أكثر تسلية للقارئ.

– لا حاجة! لا تنحدر إلى السوقية، وإلى الخلاعة المرضية. فلتجمع العضوة النشيطة اشتراكات الأعضاء ولتحفظها في خزانة لا تحترق.

بدأ مولدافانتسيف يتململ فوق الديوان، وقال:

– اسمح لي، خزانة لا تحترق! هذا شيء غير ممكن في جزيرة غير مأهولة.

فكر رئيس التحرير ملياً ثم قال:

– مهلاً، مهلاً. في الفصل الأول من روايتك، ثمة مكان رائع. فالموجة تقذف إلى الشاطئ بروبنسون وأعضاء اللجنة النقابية ومعهم أشياء مختلفة...

– فأس وقربينة وبوصلة، وبرميل من الروم، وزجاجة فيها عقار واق من مرض الإسقربوط – عدد الكاتب بصيغة احتفالية الأشياء التي قذفت بها الموجة إلى الشاطئ.

– أشطب برميل الروم – قال رئيس التحرير بسرعة – ثم ما هذه الزجاجة التي تحوي الدواء الواقي من الإسقربوط؟ ومن يحتاج إليه؟ الأفضل زجاجة حبر، وخزانة مقاومة للحريق حتماً.

– لقد سيطرت هذه الخزانة على أفكارك! يمكن حفظ اشتراكات الأعضاء بصورة جيدة في جوف شجرة حُمَيرة[1]. ومن سيسرقها هناك!

– كيف من سيسرقها؟ وروبنسون؟ ورئيس اللجنة النقابية؟ والأعضاء المتفرغون؟ واللجنة الحزبية؟

– وهل نجت اللجنة الحزبية أيضاً؟ – سأل مولدافانتسيف بوجل.

– نجت .

---

١ – حُميرة: شجرة استوائية عريضة الجذع. – المترجم –

سيطر الصمت برهة، ثم سأل الكاتب بخبث:

- أيضاً، ربما قذفت الموجة بطاولة الاجتماعات إلى الشاطئ؟

- بالتأكيد. فمن الضروري توفير ظروف مناسبة لعمل الناس. وهناك أيضاً إبريق فيه ماء، وجرس، وغطاء للطاولة. يمكن للموجة أن تقذف أي غطاء: أحمر أو أخضر. أنا لا أستحي من الإبداع الروائي. أما ما يجب فعله، يا عزيزي، بادئ ذي بدء، فهو إظهار الجماهير... جماهير واسعة من العمال الكادحين.

- لا يمكن للموجة أن تقذف بالجماهير - قال مولدافانتسيف معترضاً - إن هذا مناقض لموضوع الرواية. تصور: موجة تقذف إلى الشاطئ بعشرات الآلاف من الأشخاص! هذا أمر مضحك، ولا تصدقه حتى الدجاج.

- بالمناسبة - قال رئيس التحرير معترضاً - إن قدراً ضئيلاً من الفكاهة السليمة والصحية المتفائلة لا يضير أبداً.

- لا، الموجة لا يمكنها أن تفعل ذلك.

- ولماذا، الموجة؟ - سأل رئيس التحرير مستغرباً فجأة.

- وكيف يمكن للجماهير أن تصل إلى الجزيرة؟ والجزيرة غير مأهولة؟

- ومن قال لك أن الجزيرة غير مأهولة؟ إنك تشوشني وتحيرني. كل شيء واضح. هناك جزيرة، بل والأفضل شبه جزيرة. هكذا أنسب. يحدث فيها عدد من المغامرات الطريفة والمسلية والجديدة. وينشط فيها

العمل النقابي. أحياناً لا يجري هذا العمل بشكل كاف. وتكتشف العضوة النشيطة، جامعة الاشتراكات، عدداً من النواقص والسلبيات في هذا العمل، على الأقل، في مجال جمع اشتراكات الأعضاء. وتساعدها فئات واسعة. ويبدو رئيس المنظمة النقابية نادماً وتائباً. ويمكن في نهاية الرواية عقد اجتماع عام. هكذا، ستكون الرواية مؤثرة جداً، من الناحية الفنية الروائية بالذات. هذا كل شيء.

– وماذا عن روبنسون؟ – قال مولدافانتسيف متلعثماً.

– آه، نعم، حسن أنك ذكرتني به. إن روبنسون يحيرني. احذفه نهائياً، فهو شخصية سخيفة، غير مبررة لرجل متذمر، شاك باك.

– الآن كل شيء مفهوم – قال مولدافانتسيف بصوت كأنه منبعث من قبر – غداً ستكون جاهزة.

– حسناً، إلى اللقاء. أبدع. بالمناسبة: عندك في بداية الرواية تحدث كارثة للسفينة وتتحطم. أتعرف، لا حاجة لهذه الكارثة. ولتكن الرواية بدون تحطم السفينة. هكذا ستكون أكثر متعة، أليس كذلك؟ حسناً، إلى اللقاء.

وبعد أن أصبح رئيس التحرير لوحده في المكتب، ضحك فرحاً وقال:

– أخيراً سيكون لدي في المجلة عمل أدبي حقيقي، عمل روائي، مليء بالمغامرات، وهو عمل روائي جيد.

١٩٣٢

أحاديث المائدة

كانت أسرة صغيرة، تتألف من ثلاثة أشخاص – الأب والأم والابن. كان الأب بلشفياً قديماً، والأم ربة بيت كبيرة السن. أما الابن فكان طليعياً متقدماً، حليق الرأس، تبلغ خبرته في الحياة اثني عشر ربيعاً. وكان يبدو أن الأمور تسير على ما يرام في الأسرة.

ومع ذلك، كانت تحدث الخلافات العائلية كل يوم على مائدة الإفطار. كان الأب، عادة، يبدأ الحديث:

– ما الجديد عندكم في الصف؟ – كان يسأل ابنه.

– ليس في الصف، بل في الزمرة – يجيبه الابن – كم مرة قلت لك، يا بابا، إن الصف مفهوم رجعي إقطاعي.

– حسناً، حسناً، فلتكن الزمرة. ماذا تعلمتم في الزمرة؟

– لم نتعلم، بل درسنا، آن لك أن تعرف.

– حسناً، ماذا درستم ؟

– لقد درسنا مسائل تأثير النزعة اللاسالية[1] على ولادة المذهب الإصلاحي

١– اللاسالية: نسبة إلى الاشتراكي الألماني فرديناند لاسال، مؤسس نظرية اللاسالية التي تؤمن بحق الانتخاب كوسيلة سياسية لتحرير العمل وبالروابط الإنتاجية كوسيلة لتطبيق الاشتراكية. – المترجم–

– هكذا إذن! النزعة اللاسالية؟ وهل عالجتم هذه المسائل؟

– عالجناها.

– هذا رائع! وأية مسائل عالجتم؟ إنها صعبة على الأغلب؟

– لا، ليست صعبة جداً. عالجنا مسائل الفلسفة المادية ومهامها في ضوء المهام المطروحة في الدورة الثانية للأكاديمية الشيوعية بالاشتراك مع الاجتماع العام لجمعية المزارعين الماركسيين.

أبعد الأب كأس الشاي من أمامه، ومسح نظارته ببطانة سترته، ونظر بانتباه وتمعن إلى ابنه. إنه طبيعي من حيث المظهر، صبي مثل بقية الصبية.

– حسناً، وفي اللغة الروسية ماذا تتعلمـ... أقصد تدرسون الآن؟

– في الحصة الأخيرة قرأنا قراءة جماعية قصيدة «فليعلو الصوت فوق شعر الحصان».

– عن الحصان؟ – سأل الأب مستبشراً – «ماذا يضحكك يا حصاني الغيور، ولماذا حنيت رقبتك؟».

– عن شَعر الحصان، – أجاب الابن بجفاء – ألم تسمع؟

«انطلقوا أيها الشباب، إلى الحقل

للصيد على ظهر الحصان...

وتدفقي يا أغنية، وارتفع أيها الصوت

واقطعا شعر الحصان الثمين»!

– هذه أول مرة أسمع مثل هذه القصيدة في حياتي! إنها غريبة – قال الأب – ومن كتبها؟

– أركادي باروفوي[٢]

– من؟ إنه صبي على الأغلب، من زمرتكم؟

– أي صبي هذا !... ألا تخجل يا أبي، أنت بلشفي قديم ... ولا تعرف باروفوي؟ إنه شاعر شهير. حتى أننا كتبنا منذ فترة قصيرة موضوعاً أدبياً بعنوان: «تأثير إبداع الشاعر باروفوي على الأدب الغربي».

– ولكن – سأل الأب بحذر – ألا ترى أن إبداع هذا الرفيق باروفوي يكاد يخلو من العاطفة الشعرية؟

– ولماذا يخلو من العاطفة؟ لقد عالج في هذه القصيدة بوضوح قضية الشَعر الذي لا يحتاجه الحصان، من أجل استخدامه في صناعة الفُرش.

– الشَعر الذي لا يحتاجه الحصان؟

– أبداً، لا يحتاجه.

٢– أركادي باروفوي: لم يعرف شاعر بهذا الاسم في الأدب الروسي في هذه الفترة، والأغلب أنه اسم متخيل، والمقصود السخرية من التسييس المزيف والمبتذل لمناهج التعليم والدراسة في تلك الفترة. – المترجم–

– وآذان الجياد، ألا تنوون قطعها وجمعها؟ – صرخ الأب بصوت مزعوج متأثر.

– هيا، كلا، تناولا طعامكما – قالت الأم مسترضية – إن جدالكما لا ينتهي.

تأوه الأب طويلاً، وهز كتفيه، وهمس بكلام غير مسموع، ثم استجمع قواه من جديد، واقترب من الطفل الغريب وسأله:

– وكيف تستجمون وتستريحون وتمرحون؟ بم تسليتم في الفترة الأخيرة؟

– لا وقت لدينا للتسلية.

– فماذا فعلتم إذن؟

– لقد صارعنا.

تحمس الأب وقال:

– هذا شيء يروق لي: أذكر أنني كنت في طفولتي أحب المصارعة كثيراً: لوي الذراع، تدوير الرأس، وتثبيت الرأس على الأرض. هذه أشياء مفيدة جداً. إنها لعبة رائعة: المصارعة الفرنسية.

– ولماذا الفرنسية؟

– أية مصارعة إذن؟

– إنها مصارعة عادية، صراع عادي، مبدئي، فكري.

– مع من تصارعتم؟ – سأل الأب بصوت يائس؟

– لقد تصارعنا مع النزعة الليبيديفية .

– وما هذه النزعة الليبيديفية؟ ومن هذا ليبيديف؟

– صبي من زمرتنا.

– وهل هو صبي سيء السلوك؟ هل هو صبي عابث؟

– إنه صبي ذو سلوك رديء للغاية يا أبي! لقد كرر مجموعة كاملة من أخطاء ديبورين[٣] في تقييم النزعة الماخية، والنزعة الماخائية، والنزعة الميكانيكية.

– ما هذا، يا للرعب!.

– طبعاً، إنه رعب حقيقي. إننا نخوض هذا الصراع منذ أسبوعين بصورة مستمرة. ونكرس طاقاتنا وقوانا كلها من أجله. والبارحة، كان عندنا استنفار سياسي عام.

أمسك الأب براحتيه وسأل:

٣– ديبورين: فيلسوف روسي منشفي معارض، ارتكب أخطاء في تقييمه للنزعة الماخية ونفى دور لينين في الفلسفة الماركسية. النزعة الماخية: تيار فلسفي ذاتي، ظهر في أواخر القرن التاسع عشر مؤسسه ماخ؛ النزعة الماخائية: اتجاه برجوازي ظهر في الحركة الثورية الروسية، زعيمه ماخايفسكي، اعتبر الإنتيلجنسيا طبقة طفيلية معادية للبروليتاريا والثورة؛

النزعة الميكانيكية: اتجاه فلسفي يفسر تطور الطبيعة والمجتمع تفسيراً ميكانيكياً، مماثلاً لحركة المادة. – المترجم–

- كم يبلغ عمره؟

- من، ليبيديف؟ إنه ليس صغيراً، عمره ثماني سنوات.

- صبي في الثامنة من عمره، وأنتم تصارعونه!؟

- وماذا علينا أن نفعل برأيك؟ هل علينا الرضوخ للنزعة الانتهازية، وإغماض أعيننا عن هذه المسألة؟

أمسك الأب حقيبته بيدين مرتجفتين، وخرج من البيت منزعجاً، قالباً الكرسي على الأرض أثناء خروجه. أما الصبي المنيع فقد ضحك بتسامح وصاح في إثره:

- وتزعم أنك بلشفي قديم!؟

وذات يوم، فتح الأب البائس الصحيفة اليومية، وألقى نظرة، ثم صاح صيحة فرح وانتصار. ارتجفت الأم، وأطرق الابن بخجل إلى فنجانه. وكان قد قرأ قرار اللجنة المركزية للحزب «حول المدرسة». وأصبحت أذنيه ورديتين وشفافتين كأذني الأرنب.

سأل الأب ابنه وهو يبتسم ابتسامة غريبة

- قل لي، ماذا سيجري الآن، يا تلميذ الصف الرابع (نيقولاي سيتنيكوف)؟

لاذ الابن بالصمت.

- ماذا درستم البارحة بصورة جماعية؟

استمر الابن في صمته و لم ينبس ببنت شفة.

– قضيتم أخيراً على النزعة الليبيدية، أيها المناضلون المتشددون الفتيان؟

بقي الابن صامتاً.

– هل اعترف الصبي البائس بأخطائه الديورينية؟ بالمناسبة، في أي صف هو؟

– في الزمرة التحضيرية.

– ليس في الزمرة التحضيرية، بل في الصف التحضيري! – قال الأب مزمجراً – آن لك أن تعرف.

وصمت الابن من جديد.

– البارحة قرأت – أضاف الأب قائلاً – إن شاعركم العظيم هذا، ما اسمه؟ أركادي باروفوي، لم يقبل في اتحاد الكتاب. ماذا قال في قصيدته؟ «إيه، أيها الشباب، انطلقوا إلى الحقل، ولنقطع ذيل الحصان من جذوره»؟

– «واقطعوا شعر الحصان الثمين» – ردد الابن بصوت مستغيث.

– نعم، نعم، باختصار «تدفق وارتفع يا صوت الحصان». أنا أذكر كل شيء. وعلاوة على ذلك، فشاعركم هذا يؤثر على الأدب العالمي؟

– لا، أعرف.

- لا تعرف؟ لا تثرثر عندما تتحدث إلى معلم: من كتب رواية «الأرواح الميتة»؟ أيضا، لا تعرف.؟ إنه غوغول، غوغول.

- غوغول...إنه صوفي متزهد، غامض، رجعي الميول، ومنحل... - ردد الصبي بفرح ما حفظه في المدرسة عن ظهر قلب.

- إنك تستحق علامة الصفر. عليك أن تقرأ غوغول، أن تحفظه، أما الدراسة، كما تسميها، فسوف تقوم بها في الأكاديمية الشيوعية بعد عشر سنوات. والآن قل لي، أيها التلميذ نيقولاي سيتنيكوف، ماذا تعرف عن مدينة نيويورك؟

- فيها، تظهر على أسطع وجه، وأكثر من أي مكان آخر، التناقضات الرأسـ...

- كفى! هذا أعرفه، ولكن قل لي: على شاطئ أي محيط تقع مدينة نيويورك؟

صمت الابن و لم يحر جواباً.

- ما هو عدد سكانها؟

- لا أعرف.

- أين يجري نهر أورينوكو؟[٤]

٤- أورينوكو: نهر طويل في أمريكا اللاتينية يجري في فنزويلا وكولومبيا، يبلغ طوله ٣٧٣٠ كم. - المترجم-

– من هي كاترين الثانية؟

– إنها نتاج...

– كيف؟ نتاج ماذا ؟

– الآن سأتذكر. لقد عالجنا هذا الموضوع... نعم، لأنها نتاج عصر التأثير المتزايد للرأسمالية التجا...

– أنت قل لي: من هي؟ أي منصب كانت تشغل؟

– هذا أمر لم ندرسه، و لم نعالجه.

– هكذا إذن؟ حسناً، قل لي: ماهي الأعداد التي تقبل القسمة على ثلاثة؟

– عليكما أن تأكلا، تناولا الفطور – قال الأم الحنون – جدالكما لا نهاية له دائماً

–لا، فليقل لي أولاً: ما هي شبه الجزيرة؟ – قال الأب محتداً – فليقل لي ما هو كوروسيفو؟[٥]، فليقل لي من هو هنري – صياد الطيور، ونتاج أي شيء؟

قفز الصبي من مكانه، ووضع المرجام في جيبه بيدين مرتجفتين، وخرج إلى الشارع.

٥– كوروسيفو: تيار بحري دافئ في المحيط الهادي، يظهر على شواطئ اليابان. – المترجم–

– يا لك من كسول – صرخ الأب السعيد في إثره – سأقول كل شيء لمدير المدرسة.

أخيراً، تمكن الأب من الثأر لنفسه

١٩٣٤

كولومبوس يلقي مراسيه على الشاطئ

- الأرض، الأرض! - صرخ البحار الجالس في أعلى السارية بفرح.

لقد حلت نهاية رحلة كريستوف كولومبوس القاسية، المترعة بالأخطار والشكوك. وظهرت اليابسة أمامهم.

أمسك كولومبوس بالمنظار المقرّب بيدين مرتجفتين.

- أرى سلسلة جبال كبيرة - قال لرفاقه البحارة - ولكن، يا للغرابة! لقد حُفرت فيها نوافذ - إنها المرة الأولى التي أرى فيها جبالاً بنوافذ.

- قوارب السكان الأصليين - صاح أحد البحارة.

تراكض مكتشفو الأرض الجديدة إلى ظهر السفينة التي تهزها الريح، ملوحين بقبعاتهم المصنوعة من ريش النعام، وهم يجرون وراءهم معاطفهم الطويلة على الأرض. صعد اثنان من السكان الأصليين، يرتديان ثياباً خضراء اللون، غريبة الشكل، إلى السفينة، ووضعا بصمت صفحة من الورق في جيب كولومبوس.

- أريد أن أكتشف أرضكم - قال كولومبوس بكبرياء - باسم ملكة إسبانيا إيزابيلا، أُعلن هذه الأرض ملكاً لإسبانيا.

- على أية حال، عليك بادئ ذي بدء، أن تملئ هذه الاستمارة - قال أحد السكان المحليين بصوت متعب - اكتب اسمك وكنيتك بأحرف مطبعية كبيرة، ثم جنسيتك، ووضعك العائلي، واكتب ما إذا كانت عندك إصابات بمرض التراخوما، وما إذا كنتم تنوون الإطاحة بالحكومة الأمريكية أم لا، وكذلك ما إذا كنت أبلهاً أم لا.

أمسك كولومبوس على الفور بسيفه، ولكن وبما أنه لم يكن أبلهاً، ضبط أعصابه والتزم الهدوء.

- لا تصح إثارة السكان الأصليين - قال كولومبوس لرفاقه - فالسكان البدائيون كالأطفال. عندهم عادات غريبة. وهذا أمر أعرفه من خلال خبرتي.

- هل لديك بطاقة عودة وخمسمئة دولار؟ - تابع القاطن الأصلي سؤاله.

- ما هو الدولار - سأله البحار العظيم بحيرة وذهول.

- كيف كتبت للتو في الاستمارة أنك لست أبلهاً، إذا كنت لا تعرف ما هو الدولار؟ ماذا تريد أن تفعل هنا؟

- أريد اكتشاف أمريكا.

- هل ستكون لديك دعاية وإعلام Publicity؟.

- دعاية؟ إنني أسمع بهذه الكلمة للمرة الأولى.

نظر القاطن الأصلي طويلاً إلى كولومبوس نظرة نفاّذة، ثم سأله أخيراً:

- ألا تعرف ماهي الدعاية؟

- لا.

- وتريد اكتشاف أمريكا؟ لا أريد أن أضع نفسي مكانك، أيها السيد كولومبوس.

- كيف؟ أنت تعتقد أنني لن أتمكن من اكتشاف هذه البلاد الغنية والخصبة - سأل ابن جنوة العظيم بقلق.

غير أن الساكن الأصلي كان قد ابتعد، وهو يتمتم بصوت خافت:

- لا ازدهار بلا دعاية.

في هذه الأثناء، كانت السفن الشراعية قد رست في الميناء. وكان الخريف جميلاً رائعاً في هذه المنطقة. كانت الشمس تتلألأ، وطيور النورس تنعطف وتدور حول مؤخرة السفينة.

وطأ كولومبوس، الشديد التأثر، الأرض الجديدة، حاملاً بإحدى يديه كيساً صغيراً من الخرز، أراد أن يقايضه في صفقة مربحة بالذهب وعاج الفيل، وباليد الأخرى علماً إسبانياً كبيراً. ولكن، حيثما ما كان ينظر، لم يشاهد أثراً للأرض والتربة والعشب والأشجار، التي ألفها في أوروبا القديمة الهادئة. كان يحيط به من كل جانب هنا الأحجار والإسفلت والإسمنت المسلح والفولاذ.

مر من أمامه حشد كبير من السكان الأصليين، حاملين بأيديهم أقلام الرصاص والمفكرات وآلات التصوير، وقد أحاطوا بالمصارع الشهير،

الذي نزل من السفينة المجاورة، ذلك السيد «الجنتلمان»، ذي الأذنين المفلطحتين والرقبة السمينة الغليظة بصورة لا تصدق.

اقتربت من كولومبوس فتاتان، مدهونتا الوجه، من السكان الأصليين:

– من هذا الرجل الغريب، الذي يحمل العلم – سألت إحداهن الأخرى.

– إنه، على الأغلب، دعاية لمطعم إسباني – أجابتها زميلتها.

وركضتا هما أيضاً لرؤية السيد «الجنتلمان»، ذي الأذنين المفلطحتين.

لم يتمكن كولومبوس من غرس العلم الإسباني على التربة الأمريكية. فقد كان عليه أن يحفر ثقباً بمثقب يعمل على الهواء المضغوط. واستمر عبثاً، يحاول نكش الرصيف بسيفه إلى أن كسره. وهكذا اضطر إلى السير في الشوارع، حاملاً العلم الثقيل الموشى بالذهب. ومن حسن حظه، أنه لم يعد بحاجة لحمل كيس الخرز، فقد صادرته الجمارك لعدم دفعه الرسوم الجمركية.

كان ينطلق مئات الألوف من السكان الأصليين إلى أعمالهم وشؤونهم، فيغوصون تحت الأرض، ويأكلون ويشربون ويتاجرون، دون أن يتطرق إلى أذهانهم أدنى شك في أن كولومبوس قد اكتشفهم.

قال كولومبوس محدثاً نفسه بيأس: «ها أنا ذا، لقد بذلت جهدي، وتدبرت المال من أجل الحملة، وعبرت المحيط العاصف، وخاطرت بحياتي – و لم يعرني أحد أدنى اهتمام».

اقترب كولومبوس من واحد من السكان الأصليين، يوحي وجهه بالطيبة، وقال له بفخر:

- أنا كريستوف كولومبوس.

- ماذا تقول؟

- كريستوف كولومبوس.

- أعد ببطء، حرفاً فحرف - فردد كولومبوس اسمه حرفاً فحرف.

- إنه يذكرني بشيء ما - أجاب الساكن الأصلي - آه، تذكرت، يذكرني بتجارة الآلات الميكانيكية الدقيقة، أليس كذلك؟

- أنا اكتشفت أمريكا - قال كولومبوس بصوت بطيء.

- ماذا تقول؟ متى؟ منذ أمد طويل؟

- الآن، للتو، منذ خمس دقائق.

- هذا أمر طريف حقاً. ولكن، قل لي: ماذا تريد، يا سيد كولومبوس؟

- أعتقد - قال البحار العظيم بتواضع - يحق لي اكتساب شيء من الشهرة.

- وهل استقبلك أحد على الشاطئ؟

- لم يستقبلني أحد. وذلك لأن السكان الأصليين لم يعرفوا أنني أنوي اكتشافهم.

– كان عليك أن تخبر مسبقاً. من يتصرف على هذا النحو؟ إذا كنت تنوي اكتشاف أرض جديدة، كان عليك مسبقاً إرسال برقية، وتحضير بضعة نكات وطرائف مرحة في صيغة مكتوبة، لتوزيعها على مندوبي الصحف والإذاعات، وتحضير مئة صورة. أما على هذا النحو، فلن تكتشف شيئاً، لا بد من الدعاية.

– هذه هي المرة الثانية التي أسمع فيها هذه الكلمة... – دعاية. فما هي الدعاية هذه؟ هل هي طقس ديني معين، أم قربان وثني؟

– لا تكن طفلاً! الدعاية هي الدعاية، يا مستر كولومبوس. سأحاول أن أساعدك بشيء ما. إنني أشفق عليك.

اقتاد الساكن الأصلي كولومبوس إلى الفندق، وأنزله في غرفة في الطابق الخامس والثلاثين، ثم تركه وحيداً، وقال بأنه سيبذل جهده لعمل شيء من أجله.

بعد ساعة ونصف، فتح الساكن الأصلي الطيب باب غرفة كولومبوس برفقة اثنين من السكان الأصليين. كان أحدهما يلوك شيئاً في فمه بصورة رائعة. أما الثاني فقد وضع حاملاً بثلاث قوائم وثبت عليه آلة تصوير، وقال:

– ابتسم! اضحك! هيا، ألا تفهم، افعل هكذا «ها، ها، ها» – وكشف المصور بهيئة جدية عن أسنانه وكشر كالحصان.

لم تعد أعصاب كولومبوس تحتمل، فضحك ضحكة هيستيرية. وهنا لمع «الفلاش»، والتقطت الآلة صورة كولومبوس. وقال له المصور: شكراً.

ثم اقترب القاطن الأصلي الثاني من كولومبوس، ودون أن يتوقف عن المضغ والعلك في فمه، أخرج قلم رصاص وسأله:

– ما اسمك؟

– كولومبوس.

– الفظه حرفاً فحرف...

– كـ ولـ وم ب وس

– جيد جداً، المهم أن أحفظ اسمك. متى اكتشفت أمريكا، مستر كولمان؟ اليوم؟ جيد جداً. وهل أعجبتك أمريكا؟

– لم أكوّن حتى الآن تصوراً كاملاً عن هذه البلاد الخصبة.

استسلم مندوب الصحيفة للتفكير بتثاقل، ثم قال:

– في هذه الحالة، قل لي مستر كولمان: ما هي الأشياء الأربعة التي حازت على إعجابك أكثر من غيرها في نيويورك؟

– أتدري، يصعب علي القول...

غرق مندوب الصحيفة من جديد في تأملات متثاقلة. فقد اعتاد على إجراء لقاءات مع الملاكمين ونجوم السينما، وكان صعباً عليه إجراء حوار مع مثل هذا النموذج الفريد والبليد مثل كولومبوس. وأخيراً، استجمع قواه، واعتصر سؤالاً جديداً، يطفح بالجدة والأصالة:

– إذن، اذكر لي مستر كولومبوس، شيئين حازا على إعجابك.

أصدر كولومبوس زفرة مرعبة. فهو لم يجد نفسه من قبل أبداً، في مثل هذا الموقف الصعب. ومسح العرق عن جبينه، ثم سأل صديقه الساكن الأصلي بخفر:

- ربما يمكن، مع ذلك، التخلي عن الدعاية، بشكل من الأشكال؟

- لقد فقدت عقلك - قال القاطن الأصلي الطيب مصفراً - فكونك اكتشفت أمريكا لا يعني شيئاً أبداً. المهم أن تكتشفك أمريكا.

قام مندوب الصحيفة بعمل عقلي جبار في ذهنه، خرج بنتيجته بسؤال خارق غريب للغاية:

- هل أعجبتك الأمريكيات؟

ودون انتظار الإجابة، أخذ يكتب شيئاً ما بسرعة، ويسحب أحياناً السيجارة المشتعلة من فمه ويضعها خلف أذنه، ويضع مكانها في فمه الفارغ قلم الرصاص... ثم ينظر بوحي وإلهام إلى السقف، ويتابع الكتابة من جديد. وأخيراً قال: «أوكـ ...ي» وربت على كتف كولومبوس المذهول، المغطى بالشرائط المخملية، وهز له يده مصافحاً ثم خرج.

- والآن، كل شيء على ما يرام - قال الساكن الأصلي الطيب - تعال نتنزه في المدينة. طالما أنك اكتشفت أمريكا فلا بد لك من رؤيتها. ولكن، لن يسمحوا لك بالخروج إلى شارع «بـرودواي» بمثل هذا العلم. اتركه في الغرفة.

اختتمت الجولة في شارع بـرودواي بزيارة مسرح بورلسك

Burlesque الكوميدي بخمسة وثلاثين سنتاً. خرج منه كريستوف كولومبوس العظيم والخجول راكضاً كالقط المسلوق. خرج من المسرح راكضاً بسرعة في الشارع، وصادماً المارة بأطراف معطفه، وهو يقرأ الأدعية والتعاويذ بصوت عال. وما إن وصل إلى غرفته في الفندق حتى ارتمى على السرير، ونام نوماً ثقيلاً على ضجيج عربات السكة الحديدية.

في الصباح الباكر، هرع القاطن الأصلي، حامي كولومبوس، ملوحاً بالصحيفة بيده، فرحاً مسروراً. رأى البحار العظيم في الصفحة الخامسة والثمانين صورته المكشرة برعب. وتحت الصورة قرأ باستغراب وذهول، أنه معجب بالأمريكيات إلى حد الجنون، وأنه يعدهن أكثر النساء أناقة، وأنه أفضل صديق لإمبراطور أثيوبيا هيلاسيلاسي، وأنه ينوي إلقاء محاضرات في الجغرافيا في جامعة هارفرد.

همّ ابن جنوة البار كولومبوس بفتح فمه، وأراد أن يقسم بأنه لم يقل أبداً ما كُتب عنه، ولكن ظهر على الفور في غرفته ضيوف جدد.

لم يضع الضيوف وقتهم في عبارات الترحيب والمجاملة، بل باشروا عملهم على الفور، وبدأت الدعاية تفعل فعلها السحري: فقد دُعي كولومبوس إلى هوليوود.

– أتفهم يا مستر كولومبوس – شرح له الزوار الجدد – نود لو تقوم بدور البطولة في فيلم تاريخي. إن هذا سيكون طريفاً وممتعاً جداً. وسيقبل الجمهور على مثل هذا الفيلم إقبالاً منقطع النظير. والشيء الأساسي، أن الحوار سيدور بلغة شارع برودواي المحلية المحكية. أتفهم؟ لم تفهم؟ إذن، سنشرح لك الأمر بالتفصيل: لدينا سيناريو. وقد كُتب السيناريو

بالاقتباس عن قصة ألكسندر دىماس «الكونت مونت كريستو». لكن هذا ليس بذي أهمية. فقد أدخلنا إليه عناصر اكتشاف أمريكا.

تمايل كولومبوس في مكانه، وحرك شفتيه، دون صوت مسموع. ويبدو أنه كان يتلو أدعية وتعاويذاً. لكن الزوار من هوليوود تابعوا بحماس:

– إذن، مستر كولومبوس، سوف تقوم بتمثيل دور «أميريغو فيسبوتشي» الذي تعشقه ملكة إسبانيا إلى حد الجنون. أما هو، فيعشق بدوره الأميرة الروسية غريشكا بجنون. لكن الكاردينال ريشيليه يرشو فاسكو ديغاما؛ وبمساعدة الليدي هملتون يرسلك في بعثة إلى أمريكا. كان مخططه الجهنمي واضحاً ومفهوماً: في البحر سوف يهاجمك القراصنة، فتصارعهم كالأسد. طول هذا المشهد ثلاثمئة متراً. أنت لا تعرف التمثيل على الأغلب. إن هذا الأمر ليس بذي أهمية.

– ما هو المهم إذن؟ – أخذ كولومبوس يئن.

– المهم هو الدعاية. فالجمهور يعرفك الآن. وسيكون من الممتع جداً له أن يشاهد هذا الرجل العلامة المحترم يصارع القراصنة. وينتهي الفيلم باكتشافك لأمريكا. لكن هذا ليس بالأمر الهام. المهم هو المعركة مع القراصنة. أتفهم: الفرّاعات الطويلة والبلطات، والمنجنيقات، والنار الإغريقية، والسيوف المحدبة ذات الحدين – وباختصار، هناك في هوليوود ما يكفي من أدوات التمثيل التي تعود إلى القرون الوسطى. ولكن، عليك أن تحلق ذقنك. لا حاجة لأية ذقون أو شوارب. فقد أُشبع الجمهور من رؤية اللحى والشوارب في الأفلام التي تمثل الحياة الروسية، لدرجة أنه لم يعد يحتمل مشاهدتها. إذن، تحلق ذقنك، بادئ ذي بدء، ومن ثم توقع عقداً لمدة ستة أسابيع. موافق؟

- أوكي!... - قال كولومبوس، وجسده يرتجف ويقشعر.

في وقت متأخر من المساء، جلس كولومبوس وراء الطاولة وكتب الرسالة التالية إلى ملكة إسبانيا:

«لقد عبرت عدة بحار، لكنني لم ألتق أبداً بمثل هؤلاء السكان الأصليين. إنهم لا يحتملون الهدوء أبداً، ومن أجل أن يستمتعوا بقدر أكبر من الضجيج، شيدوا طرقاً خاصة على أعمدة حديدية، تسير عليها عربات حديدية ليلاً ونهاراً، فتصدر لعلعة وأصواتاً مفضلة لدى السكان الأصليين.

هل هم من أكلة لحوم البشر، هذا أمر لم أتأكد منه حتى الآن، لكنهم على أية حال، يأكلون الكلاب الساخنة «Hot dog». لقد رأيت بأم عيني كثيراً من المطاعم الصغيرة التي تدعو المارة لتناول الكلاب الساخنة، ويمتدحون مذاقها.

ثمة رائحة عطرية خاصة تنبعث من جميع السكان هنا، يدعونها بلغتهم الأصلية «بنزين»، وجميع الشوارع مشبعة بهذه الرائحة غير المألوفة وغير المحببة للأنف الأوروبي. حتى أن الحسناوات هنا تفوح منهن رائحة البنزين.

لقد تأكدت هنا، أن السكان الأصليين وثنيون: ولديهم عدد كبير من الآلهة كتبوا أسماءها بالنار فوق أكواخهم. وهم يعبدون الإلهة كوكاكولا، والإله دراغيست - صودا، والإلهة كافتيريا، وإله البنزين الأكبر - فورد - فهو هنا بمثابة كبير الآلهة زيوس عند الإغريق.

سكان هذه القارة أكولون جداً، وهم دائماً يلوكون بأسنانهم.

وللأسف، لم تمسهم بعد يد المدنية. وبالمقارنة مع وتيرة الحياة الإسبانية المعاصرة المجنونة، فالأمريكيون بطيئو الحركة للغاية. حتى أن المشي سيراً على الأقدام يبدو بالنسبة لهم طريقة سريعة جداً للحركة. ومن أجل إبطاء هذه العملية، فقد صنعوا أعداداً كبيرة من الآليات التي يدعونها بالسيارات. وهم الآن يتحركون بسرعة السلحفاة بوساطتها، لكنها تروق لهم جداً.

لقد ذهلت من إحدى عاداتهم وطقوسهم التي يمارسونها كل مساء في مكان يدعونه «برودواي». حيث يجتمع عدد كبير من السكان الأصليين في كوخ كبير يدعونه «بورلسك». وفيه تصعد عدة فتيات من سكان البلد الأصليين، واحدة إثر أخرى، إلى مصطبة خشبية مرتفعة، وعلى وقع ضربات التام تام البربرية وأصوات الساكسفونات، يخلعن ثيابهن قطعة إثر أخرى. أما الحضور فيصفقون بأكفهم كالأطفال. وعندما تغدو المرأة عارية تماماً تقريباً، وقد وصل الحضور من السكان الأصليين أقصى درجات التوتر والضجيج، يحدث الشيء الأكثر غرابة في هذه الطقوس العجيبة: حيث تُسدل الستارة لسبب غير مفهوم، ويخرج الحضور من هذا الكوخ الكبير، كل إلى كوخه.

إنني آمل بمتابعة دراستي لهذه البلاد الرائعة، والتحرك إلى عمق هذه القارة. حياتي ليست في خطر. فالسكان الأصليون طيبون للغاية وبشوشون، ويعاملون الأجانب معاملة ممتازة».

١٩٣٦

القسم الثاني

القصة القصيرة الروسية الساخرة المعاصرة

سنتناول في هذه المرحلة نماذج من القصص القصيرة الروسية الساخرة التي نشرت في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وكما ذكرنا في المقدمة، فقد حمل الأدب الساخر في هذه المرحلة سمات الأدب الروسي الكلاسيكي الساخر، المتمثل في إبداع كبار الكتاب الروس مثل غوغول، سالتيكوف – شدرين، تشيخوف، غوركي إضافة إلى منجزات الأدب الروسي السوفييتي ومنجزات آداب الشعوب الأخرى المنضوية تحت لواء الاتحاد السوفييتي. كما تأثر بالأعمال الأدبية الساخرة العالمية التي تُرجمت إلى اللغة الروسية.

امتازت القصة الروسية الساخرة المعاصرة عن مثيلتها في العشرينات والثلاثينات بالجرأة والتنوع في طرح المواضيع السياسية والفكرية والاجتماعية والأدبية المختلفة، بعد رفع الحظر والرقابة عن الأعمال الفكرية والأدبية والفنية، وبعد تغلغل الاتجاهات والتيارات والنزعات الأدبية والفكرية والفنية الغربية إلى روسيا وإلى المجتمع الروسي.

وقد اخترنا مجموعة من أهم القصص القصيرة الساخرة لأبرز الكتاب الساخرين في هذه المرحلة، وهم: أركادي أركانوف، غريغوري غرين، سيمون آلتوف، فيكتور كوكليوشكين، ميخائيل جفانيتسكي، ميخائيل زادورنوف.

أركادي أركانوف

كاتب ومسرحي ساخر. ولد أركادي أركانوف عام ١٩٣٣ في مدينة كييف. أمضى طفولته في النزوح والمهجر. كنيته الأصلية (شتاينبيك). عمل منذ عام ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٧ محرراً في مجلة «يونست – الشبيبة»، ونشر عام ١٩٦٣ قصته القصيرة الأولى» الرمل الأصفر». عام ١٩٦٨، انتسب إلى اتحاد الكتاب السوفييت. وهو غزير الإنتاج، نشر حوالي مئة وخمسين كتاباً ومجموعة قصصية. كتب عدة مسرحيات أشهرها: «عرس لأوروبا كلها» (١٩٦٦)، «المأدبة» (١٩٦٩)، «قفص الدرج» (١٩٦٧)، «وهل كان الأب ديوما؟» (١٩٦٨)، «أخرج وحيداً» (١٩٨٠) عرضت غالبيتها في مسارح موسكو. وقد فاز بعدة جوائز أدبية روسية وسوفييتية. وقد اخترنا من قصصه القصيرة الساخرة القصة – المسرحية التالية: «محضر جلسة انتخاب كبير أطباء مشفى الأمراض العقلية» التي نشرها في الثمانينيات من القرن الماضي.

محضر جلسة انتخاب كبير أطباء
مشفى الأمراض العقلية رقم ٦

(قصة غريبة في رأس السنة)

الرئيس: أيها السادة المحترمون، أيها الرفاق والعلماء. أيها النابليونيون والقياصرة، والمخترعون، والموسيقيون، والفيزيائيون والشيزوفرينيون. اليوم، عشية رأس السنة، علينا اليوم إنجاز أمر هام. علينا انتخاب كبير أطباء بيتنا المشترك المفضل المحبوب. ويسرني إعلامكم أن اجتماعنا هذا يحضره مندوبو المجلسين - مجلس الرجال ومجلس النساء، وكذلك فصيل كبير من أصدقائنا الطيبين - الممرضين والممرضات بصفة مراقبين مع حق الصوت الاستشاري والمقرر. لقد اجتمعتم جميعاً هنا، تجمع فيما بينكم أفكار واحدة رغم اختلافها، ومثقلون بالهموم الشخصية. إن حياتنا تتحرك نحو الأحسن، يوماً بعد يوم، ولهذا لا يحق لنا التراجع.

صوت من القاعة: أتسمح لي بأن أقاطعك؟

الرئيس: تفضل.

(يخرج إلى الخشبة من الصالة رجل غاضب ويحاول بعصاه ضرب

جميع أعضاء رئاسة الجلسة. فيهب ممرض في بدلة جندي ويعطيه إبرة مهدئ بالحربة. يهدأ الرجل.)

الرئيس: يا رفاق: من لا يهمه الاجتماع، يستطيع الخروج. لا نجبر أحداً على الحضور. اغلق الباب هناك بالمفتاح ولا تسمح لأحد بالخروج! الديمقراطية يجب أن تعم الجميع!... سأنتظر. عندنا أيها الرفاق كثير من المسائل العالقة. ومنها، مكافحة سوء التغذية، النقص الدائم في قمصان المجانين... طبعاً بعضها يتم معالجته. وعلى سبيل المثال، الزلال، والملح والسكر في التحليل سوف يتم توزيعها بالبطاقات حصراً (ارتياح في القاعة، تصفيق، سلس البول).

سيكون علينا جميعاً وعلى كبير الأطباء الجديد عمل الكثير في قضية التحسين المطرد لنوعية الهلوسات. ونحن مضطرون للاعتراف بأننا لا نرى حتى الآن في هلوساتنا إلا الماضي المظلم القاتم. فالمستقبل المشرق لا يراه سوى أصحاب الرواتب التقاعدية الشخصية الضخمة، وفي حالة السكْر وحدها. ولا حاجة للحديث بأن كبير الأطباء الذي سننتخبه يجب أن يكون من وسطنا وبيئتنا.

صوت من القاعة: أعترض!

الرئيس: الكلمة للرفيق ذي البطاقة رقم ١٨.

الرقم ١٨: ولماذا من الوسط تحديداً؟

الرئيس: قدم نفسك، من فضلك.

الرقم ١٨: اسمي جمعة. نائب عن الجزيرة غير المأهولة الثامنة بعد

المئة. أرشح روبنسون كروزو بالإجماع. أقترح ترشيح نفسي بصفة بديل لمنصب كبير الأطباء، لكن أرجو أن تسمحوا لي بسحب ترشيحي لأنني لا أعمل أيام السبت لأسباب دينية.

الرئيس: هل انتهيت؟

جمعة: نعم انتهيت.

الرئيس: إذن، اذهب إلى مكانك.

جمعة: لكنني لم أقل كل شيء بعد.

الرئيس: تفو...تفو...تفو...! أحرمك من حقك في إلقاء كلمة! قل ما عندك!

جمعة: الآن انتهيت. (يتوجه نحو مكانه، تاركاً آثاراً رطبة.)

الرئيس: ريثما يجهزون المنصة للخطيب التالي، أرجو التصويت على اقتراح النائب جمعة. من منكم «موافق»، ارفعوا رجلكم!

أصوات: وماذا يفعل من لديه رجلان؟

الرئيس: من لديه رجلان ليمد الرجلين معاً

امرأة من القاعة: يجب انتخاب عَدّاد!

الرئيس: ملاحظة قيمة.

امرأة من القاعة: أقترح انتخاب محاسبنا.

الرئيس: أيها الرفاق! طبعا، انطلاقاً من منطق الإنسان العادي،

يجب انتخاب محاسب لوظيفة العدّاد. ولكن، علينا أن نأخذ في اعتبارنا خصوصية مؤسستنا. ولهذا فإن عدّادنا يجب أن يكون، بادئ ذي بدء، رجلاً شريفاً وموضوعياً. وقد تشاورت الآن مع نفسي، وقررت. أرشح لمنصب العداد طبّاختنا. خنزيرة بتروفنا، انهضي من مقعدك!

أصوات: إنها تشغل ثلاثة مقاعد!

الرئيس: ارفعوها، أيها الرفاق! خنزيرة بتروفنا، عدّي الأصوات، من يؤيد اقتراح النائب جمعة...

خنزيرة بتروفنا: هل أحسب بصوت عال أم بصوت هامس؟

الرئيس: بصوت هامس.

خنزيرة بتروفنا: همساً، أقول: أنا أحسب أن كل شخص يزيد وزنه على ثمانين كيلوغراماً، يجب أن يمتنع عن التصويت...

الرئيس: هذا صحيح. فالشرهون الذين يريدون قنص الفطيرة الشعبية، كان من الواجب ضربهم على قفاهم منذ زمن طويل... هذه مسألة خاصة... وسنعود إليها، والآن احسبي من يقول «نعم».

(يقفز إلى المنصة رجل يلبس قميص المجانين.)

الرئيس: فكوا قيد الخطيب... وأخرجوا الكمامة من فمه «غلاسنوست هي غلاسنوست»[1] (... قدّم نفسك، أيها الرفيق.

١- غلاسنوست هي غلاسنوست: (العلانية هي العلانية) شعار رفعه غورباتشوف في الثمانينيات من القرن العشرين عندما أعلن «البيريسترويكا- إعادة البناء»

الخطيب: الفيلد مارشال فون شميرتس. وقع في الأسر كجاسوس عام ١٩٤٤، رئيس كولخوز «هتلر كابوت»[٢]... البارحة ليلاً خرجت من العنبر لقضاء حاجة صغيرة[٣]...

الرئيس: أيها الرفاق، أعتقد أنه قد حان الوقت للتقيد بالمصطلحات... حان الوقت لنتخلص في مصطلحاتنا، من هذا المصطلح المهين حول «الحاجة الصغيرة»...عندنا مصطلح «الحاجة المحدودة»...

(انتعاش مرح في القاعة، طلقات نارية منفردة)

فون شميرتس: إذن، خرجت من العنبر لقضاء...» حاجة محدودة»...ولكن أمام باب المرحاض ذي الصفرين دفعتني بفظاظة القيصرة كاترينا الثانية وصاحت: «عليك أن تنتظر أيها الفاشي! قلت - أنا لقضاء «حاجة صغيرة»...» الهر[٤] الرئيس! أنا أرى أن جميع الحاجات متكافئة عندنا...

الرئيس: أعتقد أنه لا توجد لدينا حاجات خاصة. جميع حاجاتنا - عامة، مشتركة، وعلينا أن نقضيها معاً...

(يخرج إلى المنصة رجل يرتدي باروكة)

رجل الباروكة: أنا فيزيائي، اسمي اسحق نيوتن. إنني أتحدث باسم ثمانية عشر عالماً، يسكنون في هذا العنبر ببابه ذي الصفرين، الذي

٢- يسقط هتلر - المترجم.

٣- للتبوُّل - المترجم.

٤- الهِر - الرئيس باللغة الألمانية - المترجم.

تحدث عنه الفيلد مارشال المحترم. فخرقاً لجميع الأسس القانونية لجميع طوابق مستشفانا الفسيح، يأتون إلينا في عنبرنا لقضاء حاجاتهم. ونتيجة لتجاذب الأجسام هذا، ظهرت في عنبرنا خلفية إشعاعية خارقة بكل ما ينتج عنها من عواقب. وحدث هذا كله لأن واحداً من القمة، ولأغراض شخصية، نزع الرقم ١ من رقم باب عنبرنا، الذي كان سابقاً العنبر رقم ١٠٠! إننا نطالب بإعادة الرقم السابق لعنبرنا، كما نطالب بتشكيل لجنة تحقيق! حيث أن عنبرنا تسكنه نساء أيضاً...

الرئيس: خنزيرة بتروفنا، هل حسبت من يؤيد ترشيح الرفيق جمعة؟

خنزيرة بتروفنا: الآن سيحضرون الكومبيوتر!

(يتناقلون المحسب من صف لآخر)

صوت نسائي: باسم عنبر النساء، أرفع اقتراحاً بترشيح نائب واحد لشؤون النساء لكبير الأطباء. أرشح طبيبنا للأمراض النسائية كانسيلنبوغين نيكيتين.

صوت رجولي: أطالب بانتخاب طبيب الأمراض النسائية على أساس البديل.

الرئيس: تفضل إلى المنصة أيها الرفيق، قدّم نفسك.

الرجل: موخين. ممثل المرجل...أيها الرفاق! تعمل مؤسستنا منذ سبعين عاماً. وكما أذكر، لم ينتخب لمنصب طبيب الأمراض النسائية أي عامل من عمال المرجل. وهذا يغذي في أنفسنا عقدة نقص واضطهاد طبقي. أقترح ترشيح وقّاد الآلات البخارية عندنا ستيبان دولبونوس.

فهو شاب قوي، يمد يد العون، يتحمّل الحرارة... ويمكننا أن نساعده في حال الضرورة...ستيبان! قف. اظهر نفسك للشعب!

(ينهض من مكانه شاب بمريول وبيده المحراك. أصوات نسائية «نعرفه، نعرفه!»)

كانسيلنبوغين: أنا شخصياً، ليس لدي أي اعتراض على الرفيق دولبونوس، ولكن بودي أن أطرح عليه سؤالاً، باعتباره زميلاً مقبلاً. قل لي، ما هو علم أمراض النساء؟

الرئيس: سؤال غير أخلاقي!

دولبونوس: بالضبط. نحن هنا لسنا في قاعة امتحان! ولكن، سأقول: علم أمراض النساء – هو نزعة إنسانية ليس تجاه النساء فقط، بل وتجاه الرجال. ويداي، قبل عملي هذا، معتادة...

كانسيلنبوغين: شكراً! سوف أصوت لك بيدي الاثنتين.

الرئيس: ما يزال أمامنا كثير من المسائل المختلفة، ونحن لم ننتخب حتى الآن كبير الأطباء. خنزيرة بتروفنا، هل حسبت أخيراً عدد من قال «نعم»؟

خنزيرة بتروفنا: بقي القليل!

الرئيس: أيها الرفاق! هل هناك من لديه أسئلة ما؟ فليصرح بها، بشرط عدم تجاوز قواعد الكلام.

رجل في البنطال الداخلي: أتسمح لي بالحديث؟ أيتها النساء!...

الرئيس: تفو... تفو... تفو...! وقتك انتهى. من المتكلم التالي؟

امرأة بشوارب: باسم محاربي فرقة الخيالة الأولى...

الرئيس: تفو...تفو..تفو..! وقتك انتهى. المتكلم التالي!

رجل بلحية: أنا فريديك إنغلز! لدي سؤال للرئيس. قل لي: أليست الأسرة خلية المجتمع؟

الرئيس: نعم خلية.

رجل بلحية: فلماذا إذن تعيش أسرتك في قصر، بينما نعيش نحن جميعاً في خلايا؟

الرئيس: باطل، باطل، باطل! خنزيرة بتروفنا! هل حسبت أخيراً، من قال «نعم»

خنزيرة بتروفنا: لقد حسبت... أنهكت من التعب...

الرئيس: حسناً، كم شخصاً قال «نعم»

خنزيرة بتروفنا: حسب المعطيات الدقيقة، قال «نعم» إثنان أو ثلاثة.

الرئيس: ومن قال «لا»؟

خنزيرة بتروفنا: الآن سأحسبهم.

الرئيس: أيها الرفاق! ريثما تحسب خنزيرة بتروفنا عدد الأصوات، أود إخباركم شيئاً. أيها الرفاق! برأيي أن الجميع أنهكهم التعب، ونريد

استراحة. لدينا اقتراحان. الرفيق نابليون بونابرت يقترح ثلاث دقائق، أما قومندان المستشفى فيقترح ساعة.

أصوات: ثلاث دقائق! يعيش نابليون بونابرت!

الرئيس: لقد فهمتكم. فاز اقتراح القومندان. تعلن ساعة القومندان! سنتابع اجتماعنا بعد أن يجرى لكم جميعاً ما يلزم من حُقن وتسريب وتقطير ومعالجة صحية!

شهية جيدة!

كو-كا-ريكووو!

غريغوري غورين

كاتب روسي ساخر، وكاتب مسرحي وكاتب سيناريو. ولد غريغوري غورين عام ١٩٤٠ بموسكو في أسرة ضابط برتبة عقيد، وأم طبيبة. كنيته الأصلية أوفشتين. تعلق بالأدب منذ صغره، وكتب قصصاً قصيرة ساخرة حول مواضيع مدرسية. في عام ١٩٦٣ تخرج طبيباً من معهد الطب الأول بموسكو، ومارس الطب لمدة أربع سنوات مع الاستمرار في نشر قصصه الساخرة في الصحف والمجلات السوفييتية. ثم تفرغ للأدب وكتابة المسرحيات والسيناريو، وترأس قسم الأدب الساخر في مجلة «يونست – الشبيبة». وقد صدر له عام ١٩٦٦، بالاشتراك مع ثلاثة من كتّاب القصص القصيرة الساخرة، الكتاب الأول في الأدب الساخر بعنوان «أربعة كتّاب في كتاب واحد». واشترك مع الكاتب أركادي أركانوف في تأليف ونشر ثلاث مسرحيات كوميدية «المأدبة»، «مسرحيات كوميدية صغيرة»، «البيت الكبير». ومن أشهر مجموعاته القصصية: «القنفذ»، «لن أدعك تموت من الشوق». وقد اخترنا من قصصه التي نشرها في الثمانينيات القصة القصيرة التالية «شيء ما أزرق، مخطط» (بوح موظف في مهمة).

شيء ما أزرق، مخطط

(بوح موظف في مهمة)

حدثت هذه القصة كالآتي: أرسلني الكولخوز في مهمة في الخريف الماضي. وصلت إلى موسكو. نزلت، كالعادة في فندق «ناسيونال»، في البهو. وفيه عامل آذن، من معارفي القدماء، حيث كان يعمل عندنا مهندساً زراعياً.

تركت عنده متاعي، وخرجت إلى المدينة، تمشيت قليلاً، حول الفندق، ثم تناولت طعام الغداء في مطعم «بودابست»، في قسم المأكولات الجاهزة. وقررت أن أباشر العمل، وأن أقوم بجولة على المحلات التجارية.

اقتربت من مخزن تجاري مركزي، ورأيت طابوراً. فرِحت قائلاً: إذن، يبيعون شيئاً ما. لدينا عادة شعبية معروفة: طالما هناك طابور، إذن، يبيعون شيئاً ما قيّماً. وهنا، أدركت أنهم فعلاً، يبيعون بضاعة متميزة، لأن الطابور كان طويلاً جداً، لأنه يبدأ بالشارع، ويتجه نحو الطابق الأول، ثم يصعد عالياً على الدرج، متجهاً نحو الأفق.

اصطففت بحركة آلية في ذيل الطابور، وسألت المرأة الواقفة في الأخير:

– من يقف في الآخر؟

أجابتني:

– أنا أقف في آخر الطابور.

أسألها:

– وماذا يبيعون؟

أجابتني:

– يبيعون شيئاً ما، لكنهم طلبوا مني أن لا يقف من بعدي أحد، لأن البضاعة المعروضة لن تكفي.

أخاطبها:

– وكم ثمن هذه البضاعة التي يبيعونها؟ أجابتني:

– عشرون روبلاً. أقول:

– سعر مناسب، يمكنني الوقوف في الطابور. ووقفت.

واصطف خلفي أناس آخرون. إن الوقوف في منتصف الدور أكثر متعة – والهواء لا يصيب الظهر. ووقفت.

بيد أنني تساءلت في نفسي، وهذا مفهوم: ولماذا أقف أنا في هذا الطابور؟ وأطرح أسئلة مساعدة على الواقفين: من أجل ماذا نقف، أيها الرفاق؟ وما هي البضاعة؟ هل هي من الصناعة الخفيفة أم الثقيلة؟

الجميع يلوذ بالصمت. نصف الواقفين في الطابور، مثلي، لا يعرف، والنصف الثاني يعرف ويلتزم الصمت، ويبعد عيونه كي لا يزعج النصف الآخر.

أقف في الطابور.

في الأعلى، في أول الطابور، ظهر البائع وصاح:

– أيها الرفاق، تذكروا، لم يبق سوى القياسين ١٥و ١٦! وخرج.

اضطرب الطابور، واضطربت أنا أيضاً لأنني لا أعرف: هل هذه القياسات جيدة أم سيئة؟ فكرت في نفسي قائلاً: لا بأس، سنجد مخرجاً: إذا كانت القياس صغيراً سنمطّه، وإن كان كبيراً فنقصه. أما إذا كانت البضاعة كهربائية، فسنستخدم المحول لتحويلها إلى تيار آخر.

أقف في الطابور.

بعد ساعة، سرت إشاعة: وكأن ما يباع في الطابور، يمكن شراؤه من خلال القسم الثالث في المخزن بدون دور.

وطالما بدون دور أو طابور، فمفهوم أنه سيبدأ التدافع والتزاحم. دفعوني من الجهات الأربع، باتجاه القسم الثالث. أخذت أرفس وأجهد لأتخلص في البداية، ثم استسلمت – لا أصرخ ولا أتنفس، بل أوفر طاقتي للوقوف أمام الصندوق.

أطاحوا بي إلى طاولة البيع في القسم الثالث، صرخت البائعة تسألني:

– ماذا تريد؟ ..أجبتها:

– أريد ما تبيعونه!

صاحت بي منرفزة:

– أنا أسألك: ماذا تريد؟ بلون أزرق أم مخطط؟

أسقط في يدي وقلت:

– آنستي، عزيزتي، أرني ماهي البضاعة، «من شان الله»!

فقالت لي:

– ماذا تخترع ؟! إنها مغلّفة. فقلت لها:

– إذن، اعطني القطعتين!

دفعت ثمن البضاعة واستلمت الإيصال، سلموني عند المراقبة علبتين، وبدأت أتجه نحو المخرج. شعرت في يدي، أن إحدى العلبتين ثقيلة، والثانية خفيفة، وفيها شيء يتحرك... ومن حولي يتزاحمون، ويتدافعون، ويكاد بعضهم أن يوقع بعضهم الآخر على الأرض.

وهنا، اقترب مني رجل أوزبكي، كبير في السن، وألح علي قائلاً:

– بِعني، يا عزيزي علبة من العلبتين! لقد جئت إلى موسكو أربع مرات من أجل هذه العلبة!

قلت له:

– يا عم! قد أبيعك علبة منهما، ولكن قل أولاً، ما هذا الذي اشتريته أنا؟

فقال:

– إنني لا أعرف ما اسمه باللغة الروسية، ولا يترجم هذا الاسم إلى اللغة الأوزبكية!

فأجبته:

– في هذه الحالة، لن أبيعك شيئاً، أنا بحاجة إلى العلبتين!

أمسك الرجل الكبير السن بيدي، يرجوني، فاندفعت بعيداً، هرباً منه، وتعثرت، وسقطت من على الدرج...

استعدت وعيي في اليوم التالي فوجدت نفسي في المستشفى. وأول سؤال وجهته للممرضة:

– أيتها الأخت الطيبة، أين «هو»؟ ... سألتني مستفهمة:

– ما «هو»؟

– ما اشتريته؟

– وماذا اشتريت؟ أجبت :

– أنا نفسي، لا أعرف ماذا اشتريت.

فقالت لي الممرضة:

– هكذا، إذن، عندما تتذكر ما اشتريته، سوف نخرّجك من المستشفى.

سيمون آلتوف

كاتب قصصي ومسرحي ساخر، ومقدّم لقصصه ونكاته الساخرة على المسرح والتلفزيون. ولد سيمون آلتوف عام ١٩٤٥ في لينينغراد. وتخرج من معهد البوليتكنيك فيها. بدأ الكتابة الأدبية الساخرة عندما كان في السادسة والعشرين من عمره. واكتسب شهرته الكبيرة بعد أن قام أشهر الممثلين الساخرين والفكاهيين الروس (مثل غينادي خازانوف، كلارا نوفيكوفا، إفيم شيفرين، أركادي رايكين) بتقديم مؤلفاته وقصصه الساخرة على خشبة المسرح. فاز عام ١٩٩٤ بجائزة المهرجان الدولي للأدب الهجائي الساخر. وأشهر كتبه المنشورة: «الحظ»، «فرحة الكلاب»، «التحليق عالياً»، «٢٢٤ صفحة مختارة». وقد اخترنا من مؤلفاته القصص الساخرة التالية: «تَزوجْ، لا تتزوجْ»، و«المكتب»، «يوميات سائح».

تَزوجْ، لا تتزوجْ!

قال لي أحدهم: لا تكن غبياً، تزوّج! وقال لي آخرون: لا تكن غبياً، لا تتزوج!

يعني، علي أن لا أكون غبياً، فمن أكون؟!

قالوا لي، إذا قررت الزواج، فعليك الزواج من النساء، ولا خيار آخر لديك. ولكن من أية نساء؟ أتزوج من امرأة أكبر مني أم أصغر؟ إذا كانت أكبر، فكما يقول من عانوا من مثل هذا الزواج، ستكون حياتك أبسط، أشد بساطة، ولكن لفترة محدودة. لأنها سرعان ما تغدو بالنسبة لك كأمك، وبعدها كأبيك.

وإذا تزوجت بالعكس من امرأة أصغر مني، فكما يقول المجربون، فستشعر بحياتك معها أفضل ولمدة أطول. لأنها شابة صبية، كزهرة أيار، تزهر من الصباح حتى المساء، وبما أنك الأكبر سناً، فأنت تقوم بجميع الأعمال المنزلية بنفسك. تطبخ، وتغسل، وتنتظر إلى حين أن تذبل.

فماذا أفعل؟ حسناً، لقد بحثنا هذه المسألة.

من الأفضل يا ترى: الزوجات الذكيات أم الزوجات الجميلات؟

بالطبع، يطيب لكل رجل أن تكون زوجته جميلة. ولكن أي رجل يجرؤ على ذلك؟ بقية الرجال الذين لا يتمتعون بهذه النعمة يزورونك في بيتك. وتبدأ الغيرة غير المبررة، والمعارك السخيفة، وباختصار، تعيش على أعصابك.

وماذا بالنسبة للنساء الذكيات؟ أن تكون لك زوجة أذكى منك – هذه مسألة لا يقبلها إلا الهواة. في حين لو كانت زوجتك غبية، فستشعر بنفسك عالماً أكاديمياً! لكن هذه ليست حياة، بل قاعة محاضرات.

حسناً، انتهينا من هذه المسألة.

ما هو الأفضل، أن تكون زوجتك مقتصدة، حسنة التدبير، أم سيئة الإدارة والتدبير؟ مع الزوجة المقتصدة، المدبرة، ستكون دوماً، شبعاً، بثياب مرفيّة ومكوية، حليقاً. وبيتك في نظام كامل. ولا يمكنك انتقاد أي شيء. إذن، ستبقى في كل أيامك تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، باحثاً عن شيء تنقده أو تهاجمه. وإذا كانت زوجتك سيئة التدبير والإدارة، ستجد كل شيء مقلوباً رأساً على عقب، ستبحث طوال أيامك عن بنطلونك، ولن تجده، ثم تبصق وتخرج بالجاكيت. ربما تكون الحياة على هذا النحو أكثر طرافة، ولكن، كم يمكنك الصبر على هذه الحياة؟

وإذا ما تزوجت، فكم مرة؟ أحياناً، تتطلع إلى ملاطفة إنسانية بسيطة، فتجد أمامك زوجتك! فماذا تفعل؟

أخيراً، كم طفلاً يجب أن تُرزق؟ ينصحك من ليس لديه أطفال بخمسة أو ستة أطفال. ومن لديه طفل واحد يقول: طفل واحد – كثير! ولماذا عندما تنتظر صبياً تولد بنت، وعندما تنتظر بنتاً، يولد صبي.

وعندما لا تنتظر أحداً يولد توأم! ثم، إذا ما تزوجت، وعشت مع زوجتك، أفلا تمتعض من أن عليك أن تهديها باقة ورد كل يوم كي تألف رائحتها، أو مرة في العام، كي تنفر وتبكي من رائحة ورد الميموزة؟

وإذا أردت أن تساعدها في الأعمال المنزلية، فهل ستأخذ على عاتقك الجزء الذي يتطلب قوة رجل من عملها، أم لا تعيقها في أعمالها، ولتنمو وتتطور بصورة منسجمة؟

وهل ستتنازل لها في كل شيء، أم فيما ترغب فقط؟

هل ستبقى مخلصاً لزوجتك؟

إذا كنت ستبقى مخلصاً، فكم مرة؟ كم مرة ستقول لها أنت المرأة الأفضل، والأجمل، والوحيدة؟ مرة في الأسبوع؟ أم كل يوم خميس؟ أم تقول لها مرة واحدة، ولكن بحيث تتذكرها طيلة حياتها؟

وهكذا، انتهينا أيضا من بحث هذه المسألة! إذن، هناك مخرج واحد. بل اثنان! إما أن تتزوج، وفي أسوأ الأحوال، لا تتزوج. ثم بعد ذلك، تتضح الصورة. ذلك أن حياتنا كلها تتكون من هذه الأشياء الصغيرة، التي يجب أن لا نعيرها أي اهتمام.

المكتب

ليس لديك «أوفيس» (مكتب) - إذن لست رجل أعمال. يبدو أن المكتب هو ذلك المكان الذي يجب على رجل الأعمال الغربي أن يدرك فوراً، أن من غير الممكن الاهتمام فيه بتوافه الأمور، أو على الأصح، يجب عليه أن لا يفهم أن هذا المكان يهتم بالتوافه.

رغم أن المستوى المعاصر من تقدم العلم والتقنية يسمح بخلق صورة العمل الدؤوب والفوار رغم انعدامه. إن على التقنية أن تخدم الإنسان وليس العكس. يجب أن لا يظهر أبداً لأحد، أن العاملين في مكتبك، لا يقومون بأي عمل، وينكشون أنوفهم. فاليوم، يمكن نكش الأنف عن طريق الفاكس والتلكس والكومبيوتر وجهاز التصوير وغيره من التسميات المعروفة وغير المعروفة التي ظهرت وستظهر، ولكن هذا التنكيش في الأنف العصري يبدو من الخارج رائعاً! جميع الأجهزة في المكتب يجب أن تعمل دون توقف. وكل ما يمكنه أن يصفّر أو يطقطق أو يغمز أو ينوّي أن يعمل بملء طاقته. إن مكتبك يجب أن يشبه في كل دقيقة رئاسة أركان في أثناء العمليات القتالية.

العيب الوحيد في التكنولوجيا الغربية أنها لا تعمل من تلقاء ذاتها. فالفاكس لن يصلك من تلقاء ذاته إذا لم يرسله أحد! كن متأكداً، أنه لن

يصل! انتظره كثيرون، لكنه لم يأت. كي يرن جهاز الهاتف، يجب أن يتصل بك أحد. قد يبدو الموقف بلا مخرج، فمن سيتصل بك، ويرسل لك التلكس إذا لم تكن لديك أية أعمال مع أحد. لا، هناك مخرج! في الغرفة الملحقة بالمكتب، يجري تركيب الأجهزة، فأجلس الناس فيها، وليتصلوا بك ويرسلون الفاكسات، والتلكسات! كل شيء رائع!

يجب على العاملين في المكتب أن يعملوا بشرف، لقاء ما يتقاضونه من رواتب، مهما كان ذلك قاسياً. عليهم جميعاً أن يدخلوا ويخرجوا باستمرار، ومن المفضل أن يكونوا لاهثين. الرجال يجب أن يحضروا للعمل في المكتب في الوقت المحدد تماماً، وأن لا يكونوا حليقي اللحى بشكل كامل، والنساء غير مسرفات في المكياج، وأن تكون تحت عيونهم دوائر. فهذا يخلق انطباع انشغالهم الشديد بالعمل لدى الزبون. «أنهم أناس لا وقت لديهم للنظر في المرآة، والسبب مفهوم للجميع».

وستعطي جهودك مفاعليها. فرجل الأعمال الزائر، عندما يدرك أن العاملين مشغولون بأعمالهم، فمن غير المناسب تقديم اقتراحات سخيفة، ومن خلال وتيرة العمل هذه، هنا تجري أعمال ضخمة تقدر بأكثر بكثير من مليونين أو ثلاثة ملايين من الدولارات. فيجلس على طرف الكنبة، أملاً باستراحة قصيرة من العمل، لكن الاستراحة لا يسمح بها. عندما تتحدث بالهاتف، حوّل حديثك إلى صراخ، وبوجه متضرج بالغضب، ومع قليل من الشتائم، كي يعرف الغريب مدى انشغال الموظف.

تظهر الإحصائيات، أن نصف رجال الأعمال، عندما يجد نفسه في هذا الوضع «المجنون» ينسحب بعد خمس دقائق، وتنقله سيارة

الإسعاف إلى المستشفى، لأن الإنسان العاقل لا يمكن أن يستوعب بعقله ما هذا الذي يحدث: كل شيء وكل شخص يغمز، ويكتب، ويصرخ، ويرن، ويطقطق، ويركض، ويصرخ، دون أي عائد، وبلا أي مردود.

هذا أحد أسرار مهنة رجال الأعمال. ولا تنسوا: أن الأمر ليس بهذه السهولة، كما قد يبدو. فنتيجة الصفر تتطلب بذل كل الطاقة وكافة الجهود! وكما يقول المثل، لكل لعبة أدواتها!.

يوميات سائح

في ١٠ نيسان، تحقق حلم الأحمق – اشتريت بطاقة رحلة سياحية، وها أنا ذا كالأحمق في لندن. تعلمت بالإنكليزية أن أسكت، عندها تساعدك البائعات في فهم ما تريد قوله!

اشتريت ربطة عنق، وحذاءً ضيقاً «مودرن». أما حذائي المهترئ القديم فرميته بعيداً عن إنكلترا!

مررت بنهر التايمز الشهير. يا له من جمال! عندهم حركة المرور يسارية. ووسائل المواصلات تتحرك في الجهة المعاكسة للعقل السليم. تفرط من شدة الضحك!

معنا في المجموعة السياحية امرأتان جميلتان من مدينة ساراتوف. ثمة احتمال لقصة غرامية مع الشقراء من جهة، ومع السمراء من جهة أخرى. لأن الصدر الرائع للأولى بارز من الأمام، في حين أنه بارز من الخلف لدى الثانية.

١٢ نيسان. تحركنا نحو البرج الشهير Tower Bridge. سجنهم الشهير – المتحف. الناحية السلبية في البرج هي أن حذائي أصبح ضيقاً جداً على رجلي! أو أن رجلّي تضخمتا من الطعام الإنكليزي. وبآخر اليوم صرت أعرجُ، وقطعت على هذا النحو نصف لندن، كما بدا لي.

خلعت الحذاء في الفندق، – وخرجت رجلاي إلى الحرية، سعيدتان، مثل سجناء البرج.

دعتني امرأتا ساراتوف إلى غرفتهما. وكي لا أعرج أمامهما، حضرت بجواربي دون حذاء. شربنا الفودكا. وضعت عينيَّ على الشقراء، ويدي على السمراء. لكني توقفت في الوقت المناسب، فعلي أن أحافظ على قدميَّ قبل جولة الغد السياحية.

١٣ نيسان. اقتادونا إلى متحف الفنون الوطني. وأخذ الحذاء يضغط على قدميَّ لدرجة التوى معها وجهي! لم تثر اللوحات إعجابي كثيراً، فالمقاعد قليلة، ولا مكان للمرء كي يجلس. توكأت على الدليلة الإنكليزية، وسألتها، كيف يمكنني الذهاب إلى الحمام. فابتعدت عنيّ جانباً! إنها أمّة متحفظة! هم يذهبون إلى الحمام، ولا يسمحون للآخرين بالذهاب. لم أعد أحتمل، فخلعت الحذاء، وتأملت اللوحات بجواربي دون حذاء. فاكتشفت أن هناك لوحات وأعمال فنية جيدة!

في الشارع، أحسست بالبرد وأنا بجواربي دون حذاء. لا سيما وأن الشرطي اقترب مني حاملاً عصاه. واضطررت إلى ارتداء الحذاء، لكن كعبي قدميّ لم يدخلان فيهما.

بصراحة، لندن تروق لمحبيها فقط. نهر التايمز قذر كالخنزير. وسائل المواصلات تسير باتجاه معاكس. أنظر إلى اليسار، فيدفعوني من اليمين. ولا أذكر كيف استطعت أخيراً الوصول إلى الفندق. وكيف استطعت أخيراً إخراج قدميَّ من الحذاء، حتى أنني بكيت من السعادة.

في الساعة الثانية ليلاً، طرقت المرأتان باب غرفتي، فلم أفتح.

لم أستطع السير حتى الباب لأفتحه! يا لنساء ساراتوف، كم هنّ فاجرات!

١٤ نيسان. خلال الليل استعادت قدماي شكلهما الطبيعي. في الصباح، قمت بتغطيسهما بالماء الساخن، ثم كشطتهما بالسكين. وقفزت نصف ساعة من الكرسي إلى أن أدخلتهما في الحذاء. ولسوء طالعي، كان البرنامج لهذا اليوم نزهة في أنحاء المدينة سيراً على الأقدام! كنت أسير مثل الفارس الذي سرقوا من تحته الفرس.

وماذا أقول لكم عن المدينة؟ الإنكليز في الشارع بالآلاف! المطر يتساقط غزيراً، وهم يتبسمون! إنها مدينة المجانين! أما فتيات ساراتوف فيضربن الأرض بكعاب أحذيتهن، وكأنه لا يهطل المطر. حاولت أن أفكر في الجنس، لكن قدمي أصابهما تشنج.

وبالكاد تمكنت من الوصول إلى غرفتي. لم أستطع خلع حذائي. استلقيت فوراً على الأرض، رغم أنه كانت لدي حاجة للدخول إلى الحمام. قُرع باب غرفتي. وهجمت ساحرتا ساراتوف. كانتا في الروب دي شمبر على جسد عار، وهما تضحكان وتهجمان نحوي. طلبت منهما أن تخرجا قدميَّ من الحذاء. فظنت الغبيتان أن هذا نوع من الممارسة الجنسية، وبدأتا تقطعاني وتشداني باتجاهات مختلفة. أخيراً، تمكنتا من إخراج الحذاء مع البنطال. وسقطتا على السرير، واستسلمتا للنوم وكأنهما قتيلتان. يعني أنني قد أرضيت الاثنتين.

١٥ نيسان. ذهب الجميع إلى الجولة السياحية، وأنا مستلق في غرفتي، أنظر إلى قدميَّ المنتفختين. وهذا غالباً، أهم مشهد كان لي في العاصمة الإنكليزية.

١٦ نيسان. حملوني على الحمالة النقالة إلى الطائرة. وانتهت الرحلة السياحية، كما ينتهي كل شيء في حياتنا. وصلنا إلى مدينة بطرسبورغ في المساء. ثلاثة أيام أمضيتها في شقتي حافي القدمين وأنا أغني.

١٩ نيسان. خرجت إلى المدينة بحذائي القديم. كم أنت جميلة يا بطرسبورغ!

فيكتور كوكليوشكين

كاتب ساخر، وكاتب مونولوغ وسيناريو ساخر. ولد فيكتور كوكليوشكين في موسكو عام ١٩٤٥. درس في المعهد المتوسط للطباعة والنشر، ثم درس في الدورات العليا المسرحية للمعهد المسرحي بموسكو. ومنذ عام ١٩٦٩، أصبح مسؤولاً عن صفحة «الكراسي الاثنا عشرة» في صحيفة «ليتراتورنايا غازييتا» الأدبية. وهو كاتب نصوص لأشهر الممثلين الفكاهيين الساخرين في روسيا مثل إيفيم شيفمان، يفغيني بتروسيان، فلاديمير فينوكور. شارك في عدة برامج تلفزيونية بصفة فكاهي وناقد. فاز بعدد كبير من الجوائز الفنية والأدبية الروسية والسوفييتية. صدر له أكثر من عشر كتب تضم مجموعات من القصص القصيرة والقصص والروايات الفكاهية، أشهرها: «جيد عندما تشرق الشمس» (١٩٨٨)، «الفكاهي» (١٩٩٣)، «التألق» (١٩٩٩)، «حياة مضحكة» (٢٠٠٢). وقد اخترنا من مؤلفاته القصتين الساخرتين التاليتين: «الاستشارة الطبية»، «كشاف الكذب».

الاستشارة الطبية

البارحة، دخلت إلى عيادة الأمراض النسائية... دخلت إليها بالصدفة. هطل مطر غزير، و لم أجد مكاناً أحتمي به من المطر غيرها. وعندما اكتشفت أين أنا، كان الوقت قد تأخر.

وكي لا يطردوني، جلست في الزاوية، أنظر إلى الأرض، وأنتظر... وانتظرت...

- أيتها المواطنة - قيل لي - إنه دورك.

نهضت، لا أعرف ماذا أفعل، المطر اشتد أكثر، كما أراه من خلال النافذة. وسمعت النساء من حولي يعلقّن على وضعي:

- امرأة شابة، تشعر بالقلق.

نظرت إلى نفسي وثيابي: أرتدي بدلة رجالية، لكنها من «الجينز»، تسريحة شعري...أيضاً شبابية دارجة.

فكرت في نفسي قائلاً: حسناً، سأدخل إلى الطبيب، ابتعاداً عن الفضيحة، وسأشرح وضعي للطبيب، كي لا أسمع صراخ النساء.

دخلت إلى العيادة، كانت الطبيبة مستغرقة في الكتابة، ودون أن ترفع رأسها، خاطبتني:

– الكنية.

– كريفوروتشكو – أجبتها

– الاسم؟

– جينيا.

– اجلسي – قالت الطبيبة، ثم أضافت دون أن ترفع رأسها أو تتوقف عن الكتابة:

– أنتِ للمرة الأولى في عيادتنا يا جينيا؟ أجبتها:

– نعم للمرة الأولى. دكتورة، بالصدفة دخلت إلى العيادة... قاطعتني وهي تكتب:

– متزوجة رسمياً؟

– نعم للسنة الثالثة.

– هل أجريت عمليات إجهاض؟ ...

قلت خائفاً

– لا، لم أعمل...

– أحسنتِ يا جينيا – مدحتني الطبيبة واستمرت في الكتابة. قررت أخيراً وضع حد لهذه المهزلة وقلت للطبيبة:

– دكتورة، أنا فعلاً اسمى جينيا كريفوروتشكو، لكنني لست امرأة...

– غريبة – قالت لي الطبيبة وهي تكتب دون أن ترفع رأسها – لا بأس، اخلعي ثيابك وسنرى الآن وضعك.

فكرت في نفسي: حسناً، سترين الآن! وخلعت ثيابي من فوق البطن، واقتربت منها.

لمستني، دون أن تنظر إلى صدري وقالت:

– جينيا، سيكون صعباً عليك إرضاع طفلك ... صرخت قائلاً:

– سأطعمه بالملعقة... استمرت الطبيبة في الكتابة وخاطبتني قائلة:

– أعصابكِ أيضاً، ليست سليمة – ثم أضافت – سأكتب لك منقوع جذر حشيشة الهر، ستأخذينه ثلاث مرات في اليوم، وعندما يبدأ الطفل بالحركة في بطنك، تراجعيني ثانية.

– دكتورة! – صرخت يائساً – لن أولّد أبداً....

– جميعكن هكذا تقلن في بداية الحمل – ابتعدت عني واستمرت في الكتابة – ثم، ودون أن تلاحظن، تولّدن...لا تخافي يا جينيا، ستستحقين إجازة الولادة، وتستجمعي قواك وتولّدي.

وهنا، وللمرة الأولى، رفعت الطبيبة عينيها ونظرت إليّ، أما وجهها فأصبح أشد بياضاً من مريولها الطبي. تنفست الصعداء وقالت:

– من أنتَ ؟

– أنا كريفوروتشكو...جينيا...

– أنت قاتل... – قالت الطبيبة وسقطت على الأرض

ومنذ تلك اللح... اللح...اللحظة، وأنا أتـ...أتـ...أتلعثم

كشّاف الكذب

قرروا فحصي على كشاف الكذب. رغبت في أن أعمل أمين صندوق في البنك. فقالوا لي: «لا بد من فحصك، فقد تختلس أموال الآخرين!». فقلت: «وإذا ما اقتطعتم أنتم أموالي؟». فسألوني: «وهل لديك أموال؟». أجبتهم: «قد تصبح لدي أموال؟». أجابوني: «عندما ستصبح لديك أموال، سنخطفها منك. أما الآن، تفضل إلى الكشّاف».

أوصلوا الأسلاك والمآخذ الكهربائية إلى جسدي، وقالوا: «والآن، انظر إلينا». أنظر، كانت هناك زجاجة على الطاولة خلفهم. سألني أحدهما، الجالسان وراء الجهاز: «كنيتك؟». أجبت: «برخوروف». فقال لي: «الكشاف يدل على أنك تقول ما لا تفكر فيه!». أجبت:

- أبعدوا زجاجة الفودكا عن الطاولة، وسيبين الجهاز، أنني أقول الحقيقة.

سألني الرجل طويل القامة: «هل خنت زوجتك يوماً ما ؟». أجبت: «لا !».

استطالت رقبة الرجل القصير وأصبحت أطول من رقبة الرجل الطويل وسألني: «لماذا؟». أجبت:

– لأنني أعزب.

نظر إلي الرجل الطويل نظرة حوّلتني إلى رماد، وسألني:

– «هل لديك صلة بعالم الإجرام؟»

– بالطبع، لدي صلة! ...سألني:

–.بمن ؟! ..أجبته:

– ها هوذا قد جاء لعندكم...

صعدت عينا الرجل الطويل إلى جبينه. فأنزلهما بيده وسألني:

– اتجاه أي حزب أقرب إليك؟ ... فأجبته:

– وكيف تفهم هذه الأحزاب، إذا كانت تقول شيئاً، فينتج عندها شيء آخر. عن أي شيء عليّ أن أتحدث؟ عما تقوله هذه الأحزاب أم عما تفعله؟

فرقع شيء ما في الجهاز، وخرج منه دخان. فقال لي الرجل الجالس أمامه:

– أنت حيوان – خرّبت الجهاز!

– أنا لست مذنباً – قلت له – في أنه لا يفهم أفكاري.

فصاح الرجل الطويل قائلاً:

- وهل أنت نفسك تفهمها؟

- ليست لدي أية فكرة بأن أفهم أفكاري - قلت له.

قاما بإصلاح الجهاز، وسألني الرجل الطويل:

- هل لديك أملاك وأموال غير منقولة في الخارج؟

- نعم - قلت بصراحة.

- وماهي ؟- سألني الرجل الطويل بلهفة.

- قبر جدي، بقي في أوكراينا![1]

غص الرجل الطويل بِنَفَسه، فسألني القصير على الفور:

- لو أنك استلمت السلطة، ماذا كنت ستفعل؟

- لسكرت حتى الثمالة من المصيبة!- أجبته

- ولماذا؟ - سأل الرجل الطويل صارخاً.

- لأن عندنا دوماً: من ينتخبونه بود وصداقة، يشتمونه فيما بعد بود وصداقة- أجبته.

سقطت عدستا الرجل الطويل على الأرض. فرفعهما، ومسحهما بمحرمته، ووضعهما على أذنيه. أما الرجل الثاني القصير فقال:

١- بعد انهيار الاتحاد السوفييتي انفصلت أوكراينا عن روسيا وأصبحت دولة أجنبية - المترجم.

– أمر غريب! الجهاز لا يكتب شيئاً.

– إنه مخلوق شنيع! يخاف، أن يكتب الحقيقة.

أخيراً، فطن الرجل الطويل إلى أين يجب وضع عدستيه وقال:

– أجب بصورة موزونة: أوروبا

– زائد – plus أجبته

– لا تبصق في البئر، فستحتاج إليه– قال

– البصاق – أجبته

تحركت أذنا الرجل الطويل، أما القصير فتوترت أوداجه وسألني:

– ما هو رأيك، هل أخطأت الحكومة القيصرية ببيعها ألاسكا لأمريكا؟

– لا، لم تخطئ، ولكن كان عليها أن تبيع روسيا كلها، ولعشنا الآن أفضل مما نحن عليه.

اهتز كشاف الكذب بعنف، وسقطت أجزاء منه على الأرض، أما الرجل الطويل فقد انفصلت أذناه عن وجهه، وأخذتا تحلقان تحت السقف. سألني الرجل القصير، صارخاً من الأسفل:

– هل تؤمن بأن روسيا ستنهض وتنبعث؟

– بالطبع، لقد حبِلت من هذا الكلام شخصياً، وتوحمّت وأصبحت أشتهي الموالح.

وهنا طارت أذنا الرجل الطويل من النافذة، أما القصير فقد خرج من شق في أسفل الباب، وأنا فصلت الأسلاك الكهربائية والمآخذ، وذهبت للبحث عن عمل آخر.

ميخائيل جفانيتسكي

كاتب روسي ساخر، وممثل، وُمقدِّم لمقاطع من مؤلفاته الساخرة على المسارح، وقد فاز بجائزتي فنان الشعب في أوكرايينا (١٩٩٩) وفنان الشعب في روسيا الاتحادية (٢٠١٢). وهو من أشهر الكتاب الساخرين الانتقاديين في روسيا. ولد ميخائيل جفانيتسكي عام ١٩٣٤ في مدينة أوديسا في أسرة طبيب، وفي عام ١٩٥٦ أنهى معهد أوديسا للهندسة البحرية وعمل في مرفأ أوديسا بعد التخرج. وكان في سنوات دراسته الجامعية يشارك في المسرح الجامعي ويقدم فقراته الفنية الساخرة. في عام ١٩٦٣، تعرف على الفنان الروسي الشهير أركادي رايكين، أثناء زيارة مسرح لينينغراد للمنمنمات الفنية والمسرحيات الساخرة، وأدخل أعمال جفانيتسكي الفنية في مسرحه، ومن ثم دعاه للعمل معه في مسرحه عام ١٩٦٤ بوظيفة رئيس القسم الأدبي. وتفرغ منذ تلك الأثناء لعمله الأدبي والفني، حيث قدم أعماله الفنية الساخرة في أوديسا ولينينغراد وموسكو. ومنذ عام ١٩٨٨ أسس جفانيتسكي مسرح موسكو للمنمنمات الفنية، ومن عام ٢٠٠٢ يشرف على برنامج تلفزيوني في القناة الروسية الأولى.

أشرف على أربع مسرحيات: «تحليق الطيور»، «مختارات»، «الكباريه السياسي» (١٩٨٩)،» الطائش الهرم» (١٩٩٩). وصدر

له أكثر من اثني عشر كتاباً ومجموعة قصصية ساخرة، منها «مدينتي أوديسا» (١٩٩٣)، «حقيبتي» (٢٠٠٤)،» الأعمال المختارة» (٢٠٠٨، ٢٠١٠، ٢٠١١)، «الصيف الحار» (٢٠١١). ونقدم للقارئ فيما يلي مجموعة هامة مختارة من عدة مجموعات من قصصه القصيرة الساخرة: «الثورة الجنسية»، «الدولة والشعب»، «أكتب قصة بوليسية»، «الجنة الموعودة»، «إلى الأسفل كالحلزون» «بمناسبة يوم الفكاهة»، «في الحياة الزوجية».

الثورة الجنسية

مهما قلنا ومهما تأففنا، لن لن نموت من السأم- سبعون عاماً من الثورة، إنها خبرة كبيرة. وإلى أي شيء لم يستنهضونا ويثوّرونا!: الحرب الأهلية، نشر الحركة التعاونية، التصنيع، الحرب، الاستيلاء على أراضي الدول المجاورة، الصراع مع العلماء، الصراع مع الكتّاب، الصراع مع أمريكا، النضال من أجل الخبز، بناء محطة براتسك الكهربائية، بناء الخط الحديدي الرئيسي بايكال- آمور...

لم نعش لحظة هدوء واحدة- إشعال النيران أثناء الرحلات، القاطرات الحديدية، حقائب الظهر، التخشيبات المؤقتة. أسوأ بقليل، أحسن بقليل... دائما كان هناك ما ينقصنا، دائماً نحملُ صحننا بيدنا ...إما الدواء، وإما الخبز، وإما البطاطا... وإما شيء آخر...

شقة من غرفة واحدة لثلاثة أشخاص وثلاثمائة روبل تعويض الوفاة والدفن... كل شيء كان يمنعنا من الملل والسأم. استسلم الجميع للراحة، أما نحن فانطلقنا لتسوية الأرض البكر، ونهضنا بالزراعة.

كان الآخرون يرقصون الروك أندرول، ويركبون السيارات الفارهة، ويستخدمون الفيديو. أما نحن فانطلقنا لبناء الخط الحديدي الرئيسي بايكال- آمور. ومن جديد، وجدنا أنفسنا في العواصف الثلجية

والغابات. لقد ذهبنا. و لم يخدعنا أحد. قالوا سنبني الخط الحديدي الرئيس بايكال–آمور، فذهبنا. قالوا سنشيد محطة براتسك الكهربائية، فانطلقنا. قالوا سنغمر الأرض بالماء فغمرناها. لقد أنجزنا كل شيء. وها هي شاهدة علينا: قناة الفولغا– الدون، محطة براتسك الكهربائية، الخط الحديدي الرئيسي بايكال–آمور، الأرض البكر المحروثة. رأيتها بأم عيني. وشيدنا المدن براتسك، آنغارسك، نيجنيكامسك، نيجني فارتوفسك...– و لم يتبدل شيء في حياتنا. إما أسوأ أو أحسن ضمن أطر السيء جداً.

لكننا لا نمل ولا نسأم، نكتب القصائد الشعرية، ونغني أمام المواقد النارية، ثوريون للأبد، صراصير جامدة. نحلم وأرجلنا مضمدة الجروح...وجميع المذنبين قُبروا. حتى أن المذنبين من الصف الثاني ماتوا. ونحن لا زلنا نحلم بالأغاني المعزوفة على الغيتار. أحياناً نرفع قبضاتنا في الهواء عالياً: «اعطنا شيئاً بالمقابل يا كوزباس، يا دونباس، أيها الفضاء، يا سوليكامسك!...»[1]. ونتوجه لغزو الشمال مع فرق الأوركسترا! – أربعون عاماً في الشمال، كي نعود إلى الجنوب لأيام معدودة معتلي الصحة وبلا أسنان...

و لم نشعر بالملل. وانضممنا إلى الصراع ضد المشروبات الكحولية ضد أنفسنا، وحاربنا طويلاً، دمرنا معامل البيرة، وقطعنا أشجار الكرمة. لا، لا لن تشعر بالملل معنا، ولا نشعر نحن بالملل.

انضممنا إلى البيريسترويكا[2]، وتوجهنا إلى الساحات. وانطلقنا

١– كوزباس، دونباس، سوليكامسك: أسماء مشاريع صناعية واقتصادية ضخمة نفذها الاتحاد السوفييتي في سيبيريا وأقصى الشمال. – المترجم–

٢– البيريسترويكا – إعادة البناء التي أطلقها غورباتشوف في عام ١٩٨٥. – المترجم–

في الجنس... واتضح أننا متخلفون حتى في هذا المجال، دون أن ندري. فقد كنا نستخدم وسائل بدائية، في حين أن منجزات كبيرة تحققت في هذا المجال... واحد مقابل ثلاثة، اثنان مقابل خمسة... فقد أصبحت قديمة ممارسة الجنس الزوجية. مارسنا الجنس في السرير، وفي الماء، وفي عربة القطار، وعلى مقعد الحديقة العامة، والأهم من ذلك، مارسنا الجنس بشكل مكشوف، ودون ترو، وبدعم المحيطين لساعات طويلة...

لن نفلح بالطبع في أن نسبق إيطاليا وفرنسا في الغذاء، لكن يمكننا أن نتبارى مع المتخلفين جنسياً مثل الكاميرون وأثيوبيا الجائعة. وانتشرت الأدبيات الجنسية أكواماً. ونرى مقاطع الرجل الجنسية بصورة رائعة. ويمكنك أن ترى الآن من أين تنشأ هذه التطلعات الجنسية لدى هذا السافل، وكيف يتصرف هذا الحقير في وضعية معينة. وبالطبع تجد صورة المرأة بمقاطعها الجنسية الكاملة. وتدرس هذا الجمال، وتدرك أين تُهدر قوانا وأموالنا التي جمعناها بالعمل في غابات التايغا في الشمال.

إنه لأمر مذهل، كيف يَنتج جسد مغاير تماماً من الخضار العفنة ذاتها، ومن هذا العوز كله. فلا شيء متوفر من الطعام، ولا شيء متوفر من الملابس، لكنها امرأة ناعمة ومغرية. ويرغب بها أي رجل، بالطبع، كي نحجب هذه الحياة. فلنخرجها من هنا، ولنلفها بقطعة قطن، ولنتمتع بالنظر إليها وتأملها.

ولكن، لا، إنها تعترض، وتنفر، وترغب في المشاركة في الحياة الاجتماعية بكليتها، بكامل رائحتها الزكية الفواحة. لا بأس، فربما تتمكن النساء من تحسين حياتنا. لم يتمكن الرجال من تحقيق ذلك.

فوضعياتهم دائماً مختلفة. وهذا ما يدعى بالبديل. أي حائط تجاه حائط. كما اخترع ذلك أحدهم، وهنا يأتي آخر، ويخترع وضعاً معاكساً. وهذا موجود دوماً في عالم الحيوان: ديكان معاً، تيسان، خروفان على الجسر وما شابه ذلك. يمكن للمرأة أن توّفق بينهما، بيد أنه لا وقت لديها فهي تشارك أيضاً في الثورة الجنسية، مفندة أطروحة البلاشفة، الزاعمة أن المرأة السوفييتية ليست «سكسية». فهذا غير صحيح! وهي مغمورة بالجنس.

من أجل طمأنة الوالدين، أقول: الجنس ليس علاجاً، لكنه ليس مأساة. ولا حاجة للخوف من مشكلة الجنس- فمع اختفاء المواد الغذائية تختفي هذه المشكلة. لقد رأيتم الرجل بمقاطعه كلها: إن هذا الأنبوب يأتي من المعدة. فإذا لم يُرم فيه صباحاً أي شيء، فبحلول المساء لن يستطيع أن يلدغ امرأة، لا بل ولن يستطيع أن يدندن بلحن. أما عند المرأة، فبالعكس، لا يتغير أي شيء، بل يصبح وضعها أفضل. وهذا ما يظهر بوضوح من مقاطعها.

وعموماً، الجنس مثله مثل السوق، يتطلب وفرة في المواد الغذائية، وتشكيلات غنية من الألبسة وأدوات الترفيه والتسلية. ونحن لا زلنا في بداية الطريق الجنسي، حيث لا يزال الرجل وبقايا المواد الغذائية وحدها يُستثار، ويخاطر، ويقوم بالتحرش الجنسي والاغتصاب، وكأنه يستعرض بذلك قوته الغاشمة. لكن هذا لأيام معدودة. فقد اجتاز العالم هذه المرحلة. فالرجل ينتظره انحسار كبير، مرتبط بالخروج إلى السوق العالمية، والتجارة العالمية، والمخاطرة والإفلاس. آنذاك ستظهر المرأة بأحدث الصرعات، وسترتقي، مرتدية أحلى الأزياء وتقدم له الفاتورة الحقيقية. ستقدم له فاتورة الحساب على كل ما عانته من إهانات ليلية،

ومضاجعتها في الممرات ومداخل المنازل الباردة، ومقاعد الحدائق الرطبة... وهنا لن يكون أمام الرجل سوى أن يفتح لها باب سيارة المرسيدس. وسيبدأ الصراع آنذاك بين أصحاب سيارات المرسيدس. وعندها ستبدأ المرأة بالارتقاء من جديد، إلى الدورة الجديدة من ارتقاء الرجل، المرتبط بنقص النفط. وستعود من جديد قوة العضلات، وهلمّ جرا...

لكن علينا أن نجتاز هذا كله، فنحن ما زلنا في نقطة البداية من الثورة الجنسية. وقد رأينا للمرة الأولى مقاطع الرجل ومقاطع المرأة على انفراد. وعلينا أن نراهما معاً...

١٩٨٨

الدولة والشعب

علاقاتنا بدولتنا البروليتارية مرهفة للغاية. كانت البروليتاريا تحارب الشرطة، الفلاحون يحاربون اللجان الحزبية المناطقية، الإنتيلجبنسيا تحارب الكي جي بي (لجنة أمن الدولة)، والفئات المتوسطة تحارب جهاز مكافحة سرقة الملكية الاشتراكية والاستغلال.

وهكذا اكتسبنا خبرتنا: ما إن ندير ظهورنا حتى يستغلوننا. علينا مواجهتهم وجهاً لوجه. ما إن نعرض عنهم حتى يهاجموننا، وما إن يعرضوا عنا حتى نهاجمهم.

في عداد الكهرباء- بكلة، في خط الكحول- تحويلة، في الصهريج- خرطوم- وننهب جزعين، متطلعين ذات اليمين وذات الشمال. نشرب بالتأكيد كل ما هو سائل: وقد علمتنا الممارسة باتباع كل ما يخطر في ذهننا. أيدينا تتحرك باستمرار، متلمسة، مقاربة... يمكن فكّه- نفكّه. يمكن أن يسيل- نأخذ. قابل للكسر- نكسره، ونتأمله ليلاً على عداد الكهرباء المعطّل.

تأخذ الدولة منا كل ما تستطيع أخذه. ونحن نأخذ منها كل ما نستطيع أخذه. هي دولتنا ونحن شعبها. ويبدو أنه لم يبق لديها أو لدينا شيء. باستثناء المؤسسات العسكرية...

هوائي فريد من نوعه في الشرق الأقصى... ابتعد المراقب عنه دقائق، ولا وجود للهوائي... اختفى بين العنابر والمباقل...

شاحنة ترقد على جنبها بعد حادث مروري، يفتشون وينهبون ما بداخلها. وعند الصباح– لا تجد سوى الهيكل. سارقون، نهابون...

والدولة بدورها ليست غافلة. تبتعد عن المحلات التجارية خمسة أمتار فترتفع الأسعار. الصحف تضاعفت ضعفين، البنزين– ضعفين، التاكسي– ضعفين، المرتديلا– أربعة أضعاف. ونحن كالمتفرجين...

والرأي العام العالمي يستغرب بوحشية: ارتفاع الأسعار لا يؤثر علينا. أي لا يترك أي انطباع ملحوظ من الجانب.

من يخشى مواجهة الدولة، يتوجه صارخاً نحو أبناء جلدته: «لماذا راتبي ضئيل؟! لماذا معيشتي سيئة؟!». ويجد بالطبع الجواب الشافي: «ولماذا أنا راتبي ضئيل؟! ولماذا معيشتي سيئة؟!».

أما الدولة فقد ألفنا استجابتها. وهي جاهزة كل ثانية. الغلاء، ارتفاع الأسعار، زيادة الحسومات والضرائب، البطاقات التموينية– بهذا تستجيب الدولة لصراخنا. السلسلة انتهت ونحن نبحث عنها. وجدناها: البنزين– من العربات القلاّبة، الأنابيب– من ورشات البناء، اللحم– من المسالخ، السمك– من المحطات الكهرومائية. ننهب، نشفط، جزعين متطلعين يميناً وشمالاً. وهكذا، فالنتائج لدينا ولدى الدولة صفرية، باستثناء التبعات الأخلاقية، طبعاً. النزعة الأخلاقية انهارت إلى الحضيض لدى الجانبين.

يجب أن نوفي الدولة حقها- فهي أول من تحرك: «كيف يمكن الاستمرار على هذا النحو، فنحن لا نعيش بطريقة إنسانية...»

أما الشعب- وما المشكلة، لقد اعتاد الشعب بصورة كاملة، تكيّف، وجد حيِّزه، فلا يقول إلا ما هو ضروري، ويذهب إلى حيث يلزم الأمر، ويفك بيديه ورجليه، وأسنانه، وهو ينظر إلى الدولة بعينيه-

- دولتنا دولة العمال والفلاحين- تقول الدولة

- بالطبع- يجيب الشعب!- ويفك البراغي، ويحل العزق، ويكسر.

- كل ما هو للدولة هو ملكك.

- بالطبع، وإلا كيف، طبيعي!- يجيب الشعب- هذا هو الطبيعي- ويحل العزق، ويفك، ويكسر.

- لا أحد يوفر لك مستلزماتك في فترة الشيخوخة والطفولة إلا الدولة-

- هذا صحيح تماماً - يوافق الشعب،- إن هذا مستحيل...هذا ضروري، بالفعل،- ويسكب من الوعاء الكبير في العلب التي تتسع لثلاثة ليترات.

- في مستشفيات الدولة وحدها يستقبلونك، ويضعونك في السرير، ويعالجونك.

- فيها وحدها، فعلاً، وإلا لكان الموت مصيري منذ زمن،- يوافق الشعب. ومن الخلف يمارس أعمالاً أخرى، ربما يعالج نفسه.

– أتعرف، في المطاعم الشعبية الحكومية وحدها تجد النوعية الأصلية. أليس كذلك؟

– نعم، بالتأكيد– يجيب الشعب موافقاً، ويذهب إلى المنعطف حاملاً الأكياس الكبيرة.

–إلى أين أنت؟– تسأل الدولة الشعب عن طريق الشرطة.

– أنا هنا، ليس بعيداً.

– لم أفهم.

– أنا هنا، على مقربة. لا تنشغل بي عن أعمالك. ها هوذا الوضع الدولي يتأزم... لا تنشغل. وهنا نحن نحل مشاكلنا بأنفسنا.

– لم أفهم. ما معنى بأنفسكم؟ أهي الفوضى؟ سلطتنا سلطة الشعب. وهذا يعني أنه لا يصح أن يتحرك كل حسبما يريد. نتحرك معاً، وفي الاتجاه المطلوب.

– لا داع للقلق، أنا سأبتعد لدقيقة واحدة.

– إلى أين، إلى أين؟

– يا إلهي، لن أذهب إلى أي مكان.

– وماذا في الأكياس التي تحملها؟

– أين ؟

– ها هي.

– ماذا؟

– ماذا في الأكياس؟

– ماذا في الأكياس، ماذا؟ أين ترى الأكياس؟ لا أعرف، أردت أن أعود بعد دقيقة فقط.

– أتعرف أن الموسم سيء هذا العام. الظروف المناخية، الربيع الطويل الذي استمر طويلاً. عموماً، قحط.

– وماذا يهمنا، سواء أكان موسماً جيداً أم سيئاً، على أية حال، يجب أن نأكل...

– وماذا يعني...

– الخير كثير.

– هذا لأننا نشتري البضائع من الخارج، بينما علينا نحن أن ننتجها.

– طبعاً علينا إنتاجها، لكن هذا كثير جداً... فأنتم سوف تشترون. ونحن بأنفسنا سنستهلكها. فالخير كثير، ويكفي للجميع.

– لا، علينا أن لا نشتري شيئاً، علينا أن ننتجها بأنفسنا...

– في هذه الحالة، لن تكفي.

– ماذا تلفّق. على أية حال، أنت لا مبال بأي شيء. يا للرعب، غير مهتم بأي شيء، أكانت هناك دولة أم لم تكن.

– وماذا، وهل هناك فرق؟

– كيف؟ قف! نحن دولتك، هل تعرف هذا؟

– أعرف.

– وأنت شعب، هل سمعت بهذا؟

– سمعت.

– إذن، تصَرَّفْ، كما على الشعب أن يتصرف.

– كيف؟

– عليك أن تكافح من أجل سلطتك الوطنية.

– أكافح من؟

– الشكوك... فهذه هي سلطتك الوطنية.

– هذه هي؟

– نعم هذه هي. وليس لديك سلطة أخرى. ولن تكون أخرى، وساهتم بذلك. لهذا، عليك أن تؤيدها بشدة. إنها ليست مجرد سلطة. إنها ديكتاتوريّتك. أنتم العمال والفلاحون، وبدونكم لا يمكن عمل أي شيء، فلا تتحامق.

– هكذا...

– نعم، وإلا كيف! فبناء على رغبتك تُحجز الأنهار، وتبنى الأقنية وتوضع الأسمدة...

– هكذا إذن...

– أنت أردت ذلك، أليس كذلك؟

– متى؟

– ما بك تستغبي...، لقد أردت ذلك دوماً.

– أردت، نعم. يا له من حديث مزعج...اسمح لي لدقيقة.

– قف! أجب بشكل لائق، كما يجب.

– أنت غبي، صاحب السعادة.

– لا تجرؤ! أنا دولتك الوطنية الشعبية. أجب، كما يلي: «سمعاً وطاعة، أيها المواطن الآمر!».

– سمعاً وطاعة، أيها المواطن الآمر.

– واعلم، إذا ما سأل أحد، فأنت نفسك أردت هذا. واضح؟

– تماماً، واضح.

ونظرت الدولة بحرارة إلى الشعب.

– أصلح وضع قميصك كما يجب، بكّل الزر. نعم هكذا. ممنوع فصل أحدنا عن الآخر– قالت الدولة.

– لماذا؟ – قال الشعب– بالطبع، رغم أن...

– ممنوع. ممنوع. ولا تفكر بالانفصال... فكر بكل شيء أولاً. فأية

دولة هذه بدون شعب. فلدينا ما يكفينا من النمائم والتلفيق، وكأننا نعيش في جو من القمع.

– لا أبداً، معاذ الله. لقد أردت الابتعاد لدقيقة واحدة والعودة.

– ممنوع. قف على مرأى مني. لا تتحرك. قل، ماذا لديك؟

– هل يمكن إلغاء السلطة؟

– إنها سلطتك.

– وهل يستحيل إلغاؤها؟

– والأعداء، والأصدقاء؟

– أي أعداء، وأي أصدقاء؟ إنني لا أرى أحداً.

– عبثا لا ترى. إنهم يحيطون بنا. علينا أن نأكل الأعداء. علينا أن نطعم الأصدقاء، وإلا لن يطلب صداقتنا أحد.

– ماذا، وبشكل دائم؟...

– بشكل دائم. وإلا، يتخلى عنا الجميع. يتوقف الأعداء عن معاداتنا، ولن يصادقنا الأصدقاء. ونحن بحاجة إليهم. الموقف صعب معقد. هيا، اذهب، أطعم الأصدقاء، أما الأعداء فأنا أتكفل بهم، وعليك أن تفهم كل شيء. وإلا سيكون معيباً. ليس لدى أية دولة مثل هذا الشعب الجاهل... اذهب. قف! أتحبني؟...

أكتبُ قصة بوليسية

- لماذا لا تكتب شيئاً جدياً؟

- أنا أكتب... وأنت قاطعتني بالذات عن الكتابة

- ماذا تكتب؟

- أكتب قصة بوليسية، حيث يكشف مفتش الشرطة عن جريمة قتل لكنه لا يستطيع اكتشافها.

- وماذا بعد؟ سيكتشفها في نهاية القصة؟

- لا، لن يتمكن.

- عفواً... اعذرني... أين تحدث الجريمة؟

- عندنا.

- وفي أي شيء يكمن مغزى القصة البوليسية؟

- في هذا بالذات.

- وهل لديه أدلة؟

- جميع الأدلة لديه. وبصمات الأصابع. والمسدس والطلقات الفارغة. والجثة.

- والقاتل؟

- موجود، وحتى أنه لا يكلف نفسه عناء الاختفاء.

- فماهي المشكلة إذن؟

- في هذا بالذات.

- وأين تكمن المكيدة؟

- في أقرباء القتيل. إنهم يتصارعون من أجل الإرث. والإرث كله مسروق.

- فما هي المكيدة إذن؟

- يترددون إلى الشرطة، ويلاحقونها، وقد سأم الجميع منهم. وسيزجونهم في السجن في النهاية.

- والقاتل؟

- وماذا به ؟

- يختفي؟

- وعلام الاختفاء؟ لقد قتل الضحية بموافقة قسم الشرطة وبتوجيهه.

- وأين المكيدة هنا؟

– كيف أين؟ المكيدة عندنا، في موسكو.

– وبم ستسترعي اهتمام القارئ؟

– وبم سأسترعي انتباهه؟ ليس لدي مالاً لأغريه.

– وهل ستنتصر الحقيقة؟

– وأنّى لي أن أعرف؟ أنا نفسي أنتظر.

– بيد أنك أنت الكاتب؟

– وماذا في الأمر؟

– إذن، في قصتك البوليسية الوضع كالآتي: الشرطة لا تستطيع اكتشاف الجريمة. والقاتل حر طليق. وأسرة المقتول في السجن... وقسم الشرطة– مشارك في الجريمة...أين هنا القصة البوليسية؟

– في هذا بالذات.

– وكل هذا لا يصل إلى نهاية معينة؟

– يعينون وزير داخلية جديد.

– هكذا إذن، وماذا يفعل الوزير الجديد؟

– لقد سرقوا سيارة زوجته.

– بناء على توجيهه؟

– نعم...

– وهل يعثر على الجناة؟

– لا .

– وعلى من تقع العقوبة؟

– على المارة.

– وعلام كتابة هذا كله؟

– كي يُنتخبوا جميعاً في الدوما.[1]

– وسيُنتخبون؟

– بالتأكيد.

– ولماذا؟

– عندي في قصتي هذه، يعتقد السكان خطأً، أن انتخاب المجرم أفضل من انتخاب الشرطي.

– وهل تعتقد أن كتابك هذا سيقبلون على شراءه؟

– لقد بيع بالكامل.

– ومن اشتراه؟

١– الدوما – اسم البرلمان الروسي – المترجم–

– لجنة الانتخابات.

– غير أنك لم تنجز بعد كتابة القصة؟

– هم أنفسهم سينجزونها.

– إذن، أهنئك. لقد قمت بعمل جاد.

– شكراً، قالوا لي الشيء نفسه.

– وماذا ستكتب لاحقاً؟

– قصة كوميدية.

– كوميدية بوليسية؟

– بالتأكيد.

– وماذا يحدث فيها؟

– الجميع يعاقرون الخمرة.

– أين ؟

– هنا.

– آمل أن القارئ سيستمتع بقراءتها؟

– لا.

- فلماذا تكتبها؟

- ولماذا لا أكتبها؟

• على خلفية حوادث الرعب مع الرهائن، والتفجيرات في محطات المترو وعربات القطار، يمكن قراءة القصص البوليسية الأكثر دموية- فهي تفيد كمهدئ...

١٩٨٩

الجنة الموعودة

اكتشفت في أيامنا هذه ظاهرة محزنة للغاية: لم يعد الناس يسعون إلى الجنة.

إما لأنها لم ترسم بما يكفي من الألوان الجميلة.

وإما لأن توصيفها لم يكن محدداً بما فيه الكفاية.

إن جهنم أقرب إلى الفهم.

في الجنة: الطيور، الروائح الطيبة، المساواة، العيش حسب الحاجة، البحبوحة والأخوة الشاملة...

إنها تذكّرنا بحالة أخرى، تذكرنا نحن تحديداً.

ليس بحالة سنعيشها، بل كأنها حالة سبق أن مررنا بها.

من هنا يأتي غياب السعي إليها، وعدم الثقة بالسلطة العليا.

لا بد من إعادة النظر، بشكل ما، وبشيء ما، في المعطيات الأساسية.

إننا واثقون، بأن من المستحيل القيام بذلك، لدرجة أن كثيرين منا، إن لم نكن كلنا، يبدأ العمل بصورة فردية، سعياً للوصول إلى بلوغ الجنة

في البيت، بالرغم من جميع المشاحنات، والتوزيع السيء للأموال والموارد وظهور الطبيب في غير أوانه.

- الجنة - يعلّمونا- هي رفاهية جماعية، تعاونية، أما جهنم فهي عقوبة فردية.

بيد أن مواطنينا، الذين مرّوا عبر هذا كله، يؤكدون بأن جهنم بالذات - القضبان الحديدية، الزنازين، وما شابهها- هي الوضعية الجماعية التعاونية.

أما الجنة- ومهما بدا هذا غريباً- فهي مسألة شخصية، فردية، داخل السور، ضمن البيت، عن طريق بتر الأعين غير اللازمة، والأحداث والأخبار الأخيرة التي لا تغدو أبداً أخيرة، بصرف النظر عن الوعود الشخصية.

فكّروا، ماذا يمكنكم أن تعرضوا على الإنسان المتزحلق على الجليد، والإنسان الذي يركب الطائرة، ومن الطائرة إلى الحوّامة، ومن الحوامة إلى المنحدر الثلجي، ومن المنحدر الثلجي إلى مطعم فرنسي على شاطئ دافئ، ومن العشيقة بدلاً من الزوجة...

فماذا أعددتم له في الجنة؟

آه، يا إلهي!

هناك لا وجود للنساء كما ألفناهن واعتدنا عليهن.

إنهن في الجنة محاورات، عاملات في المكتبات، موظفات للمسامرة.

أخيراً، إنهن في الجنة متساويات وحرّات. عفواً، بالنسبة لمن؟

ليس عليهن أن يتبعن أحد أو ينضوين تحت لواء أي رجل. ونحن الآن لا نصدق عندما يقال لنا:

« أنا لك وحدك!»، «أنا لك إلى الأبد!»...

فالحب له توقيته الخاص، هذا بالنسبة للحب!!!

الآن، أنا لك– فاستمتع الآن!

ولا حاجة لأن تحبني.

أخشى أن لا يكون هناك حب في الجنة، وذلك تجنباً للمشاحنات والمبارزات.

جولات ونزهات جماعية، حوارات.

حول ماذا يتحاورون؟ فكل شيء واضح.

فقد تم الوصول إلى جميع الحقائق في الجدال على الأرض.

لا نقاشات ولا جدالات في الجنة

هناك من أجل الطمأنينة ثلاثة مجلدات في المكتبة

المجلد الأول– «الحقائق»

المجلد الثاني– «التشريعات».

المجلد الثالث - «الماهيات».

لا وجود للنقود.

تجلس إلى المائدة وتشرب الخمر، ولا تسكر.

تشرب ثانية، والنتيجة ذاتها.

وكيف يمكن التخلص من السأم؟

تستلقي إلى الديوان، تغفو، ترى حلماً، تستيقظ:

- أجل!

غفوت. استيقظت:

- أجل! أنا هناك. أنا في الحلم.

استيقظت، لم تستيقظ...

ومن المستحيل الانتحار.

تتبادل الحديث مع دوستويفسكي.

أردتما قول أشياء ذكية، بيد أن الحقائق معروفة، والماهيات مكشوفة، ولا وجود للنزاعات.

يجلس فيودور دوستويفسكي في الزاوية متجهماً

ورداً على تحيتك: «تحياتي، أنا معجب بـ...»- لم يحر جواباً.

أما الرسام شاغال فكان يرسم، ويرمي في سلة المهملات.

لا مجال لقول أي شيء، فجر جيد في نهاية النفق!

الشيء الوحيد المتوفر هو الصمت!

أما الشبيبة الراحلة فوجدت لنفسها أغنية أخذت ترددها وتتراقص على أنغام دولاب الطاحون.

تلك هي الحياة النظرية في الجنة، فعلى من تفرضها؟!

أما الناس، وخاصة الذين اجتازوا النضال من أجل الرفاهية، والمساواة والأخوة في الاتحاد السوفييتي، فقالوا:

- قف! واصمت! دعني أدرك! دعني أعمل! وسأدع الآخرين يعملون.

سأشتري ما يتحرك هناك، ما يهدهد، إنه يحلق، يسبح، يغسل، «يمسّج»، يقّبل، يرحل بالطائرة.

ينتقل من الشتاء إلى حر الصيف، يحضر المأكولات اللذيذة

مائدة جميلة على الشاطئ، حيث البحر والنخيل وأشجار الباأوباب...

دعني أستفيد، أتذوق، أحس وأستعد.

أما أنت هناك، فاعمل لتدخل الجنة:

اكتشف لنا هناك ما لا نعرفه.

فيشة ما، قطعة ما، وضعاً ما، كي نسعى إلى الجنة بدءاً من شهر أيلول، بحيث نكون منتظمين، نظيفين، جميلين روحياً.

وأن نقول، حاملين أرواحنا الطاهرة على أيدينا:

«افتح، يا إلهي! هذا أنا ناقص العقل، آتيك بروحي.

أنت تعرف، بأنه كان هناك اضطراب بحري أو أمواج، وأنا كنت على قارب في جزر الهاواي وتتصور، لقد غرقت.

عموماً– مرحباً! مثل – يوماً سعيداً!»

إلى الأسفل كالحلزون

أخيرا! تنفس الجميع الصعداء.

في اجتيازنا لطريق التطور الارتقائي إلى الأسفل بحركة حلزونية، عدنا من حيث انطلقنا. ولكن، والحق يقال، بدون مال، وبدون أفضل الأدمغة والعضلات. مثل خاسر في الكازينو يعود إلى بيته.

ماما، لقد عدنا، ماما! إلى بيتنا! إلى بيتنا

الحمد لله يا أبنائي! فلتحل علينا السعادة من جديد!

أنا لم أفقد يوماً تفاؤلي، لكن الأحداث الأخيرة كشفت لي كل شيء. لقد قلت: إما أنا سأعيش حياة جيدة، أو مؤلفاتي ستغدو خالدة.

ودارت الحياة ثانية باتجاه مؤلفاتي.

وها هي تصرخ وتخاطبني:

- لقد انتهى كل شيء، أنت في أزمة، لم تركب قطار الميترو منذ ثلاث سنوات! فعن أي شيء ستكتب؟ الجميع يتحدثون عن هذا الموضوع. وعموماً، الآن، حقوق الإنسان، والحرية الشخصية أعلى من الدولة. أما أنت، فقد أصبت بالتخمة، ثلاث سنوات لم تدخل إلى الميترو.

أما النقد فتألق صائحاً: سكّير أبدي، أكول شره، سمين الوجه، القدح في يدك دوماً...نعم القدح في يدي دوماً، لأنني كنت أدرك، أن هذا لن يستمر طويلاً.

الجميع يحكم بالأقوال، وأنا أحكم بالوجوه. أنا لا أعرف الكلمات، لكنني أفهم الوجوه.

اقترب مني ميكانيكي السيارات قائلاً:

– لقد بدّلت «الرادياتير» في سيارتك.

نظرت إلى وجهه، وقلت:

– لا، أنت لم تبدله.

– أقصد لحمته.

– لا– قلت – لم تلحمه.

– الآن، سألقي نظرة فاحصة– وذهب يفحصه. عندما أخذ يصرخ الجميع «الحرية!»، ذهبت مع الآخرين لفحص الوجوه.

كل شيء طبيعي. إنهم شعبنا، ناسنا. لن يستطيعوا الصمود أمام الحرية. إنهم يحبون خرق القوانين. فافرض عليه المحظور والممنوع، كي يخترق القانون. إنه يعرف هذه الحقيقة.

– من فعل هذا ؟

– أين؟

- هنا، انظر؟

- وماذا فعل؟

- أرى ما فعله. ولكن من فعله؟

- وهل هذا ممنوع؟

- ممنوع.

- لست أنا.

إن حريتنا هي ما نفعله، عندما لا يرانا أحد. جدران المصاعد، مراحيض محطات السكك الحديدية، أغطية سيارات الغير. إن أيدينا الأمامية تعيقنا. أما أيدينا الخلفية، فهي شيء آخر. والقادة عندنا في الخلف وليس في الأمام. فهم لا ينادوننا، بل يرسلوننا. وهذا شيء آخر تماماً. يمكننا إغلاق أعيننا والامتثال للأوامر: «الكتف الأيسر إلى الأمام! أمامِ سر! قف! استرح! انتبه! وقوف قف!...»

لهذا يطالبنا شعبنا الآن بتوفير النظام العام، وهو محق في ذلك. فالإلزام، والإرغام، والتوقيت الدقيق... هي في دمنا، أما الأمانة... والنقاوة...والاستقامة فهي شيء آخر.

لقد عشنا في ظل النظام سبعين عاماً، ولا يمكننا العيش بدونه.

عموماً، حريتنا- هي الحثالة، وحلمنا هو النظام في الحثالة.

الفرق غير كبير، لكن بعضهم يشعرون به.

وهم يعلموننا: الآن ديمقراطية، أما الآن فديكتاتورية.

ما يُنشر في ظل الديمقراطية يُقال شفاهة في ظل الديكتاتورية.

في الديكتاتورية الجميع يخشى السؤال، في ظل الديمقراطية الجميع يخشى الجواب.

في الديكتاتورية تكثر عروض الباليه وسرد النكات، في ظل الديمقراطية تكثر الرحلات والسرقات.

إنه خوف حيواني كبير متماثل...

في ظل الديكتاتورية تتلقى الضرب من فوق، وفي ظل الديمقراطية تتلقاه من الأسفل.

أما في ظل النظام العام الكامل فتتلقى الضرب من جميع الجهات.

إن القول بأن الشرطة تحمينا في ظل الديكتاتورية لا يخلو من المبالغة. إنها تحرسنا. وبخاصة في أماكن الاعتقال. وهذا ما كان ويبقى. أما في الشارع، وفي الوسط الجوي والمائي– فهذا من عمل المتوفيّن أنفسهم، لهذا كان عدد القتلى في الحروب عندنا مماثلاً لعدد القتلى في وقت السلم.

عموماً، حريتنا لا تختلف عن الديكتاتورية إلا قليلاً، بحيث يتمكن من معرفة ذلك رجل غير مثقف كالنائب العام.

يهتم كثيرون بمصير الإنسان الهرم، الذي ازدهر في الظروف الاستنباتية لديكتاتورية البروليتاريا ويهلك في الظروف القاسية التي

لا تحتمل لازدهار الحرية. لكن هذا مجرد زعم. وكل ما في الأمر، أنه يظهر للعيان بصورة أوضح وبصوت أقوى في الظروف الدفيئة السرية والأقبية. وهو نفسه لديه توجهاته الواضحة.

إنه يجلس مقيداً، وينبح على كل قطار قادم، أي أن الموضوع، والنباح، والقيد، ومعامل القوة الفاعلة واضحة للجميع.

في ظروف الحرية، هذا العجوز حر، غير مقيد، رغم أن الطوق ملفوف حول رقبته. ولا يعرف مكانه في اللحظة المعنية. ونباحه مسموع بين صفوف القوات المسلحة تارة، ومن على جدران الكرملين تارة أخرى، وفي الغالب هو يبحث بتركيز عن البراغيث، بشوق كبير إلى طعام العشاء.

والغبي يدرك أن في جلوسه مقيداً يكتسب قوة روحية نافذة أكبر إلى عالمه الداخلي. لأن الركض بدون قيد يمكنه إنجازه في خياله فقط، وهذا ما يهتم به القرّاء.

بالطبع، ليس من المعيق أبداً أن يجلس الكاتب فترة في السجن، للوصول إلى نوعية رفيعة من الأدب الذي يخرج من ذاته. ولكن، وبصراحة، لا يرغب بذلك. فعلى أية حال، يمارس الكاتب كثيراً من الأنشطة: وتختلط عليه الأسرة ومواعيده مع الأبناء... لذلك فالاعتقال في السجن سيكون زيادة على اللزوم.

- لكن ما يسرّ النفس الآن - الإحساس بسرداب جديد. لقد انتهت إلى غير رجعة الاضطرابات، والتراكض المحموم، والمسيرات، والانتخابات، والمناظرات، ومن جديد الهمس في المطابخ،

والتلميحات، ومن جديد الإدارة الثقافية والالتزامات المفرطة. ويأتيك الصياح من جديد: «إنك بمؤلفاتك وكتاباتك تهين الإنسان السوفييتي»، وتجيب صارخاً: «وأنتم بسياراتكم «الغزلانية» تجعلونه مقعداً». يا للجمال.

لكن من يقودنا من جديد إلى السرداب، إلى الأقبية، لا يتطرق إليه الشك، مع أي محترفين يتعامل. فقد قيل له اخرج من هنا، حسب جميع قوانين الصوتيات، أقوى وأشد بعشر مرات، والأهم، انه يحفظها على الفور.

أما شعار القيادة الأبدي «لنعمل غداً أحسن من اليوم» - فيفسرونه في السرداب بما يماثل: لا معنى للعمل اليوم.

بمناسبة يوم الفكاهة

إنه الربيع. تكتسي الأشجار بالأوراق، وتتعرى النساء.

كل شيء يتقدم. كل شيء يتراجع.

وعموماً، إنه الأول من نيسان. العيد الاحترافي لمن يضحَك، ولمن يضحِك. في هذا اليوم نتخلى عن هوسنا الشمولي- البحث عن المعنى فيما يحدث. ونضحك ونمرح.

ليبحث عن المعنى أولئك الذين انتخبناهم. فهم على أية حال يبدون أفضل منا. ما إن ننتخبهم تختفي آلامهم وتظهر أفراحهم. إذن، نحن لم نخطئ.

إننا ننتخب من لا يصح انتخابه بدقة كبيرة، بحيث لا حاجة لنا لأن نقلق.

الفرق بسيط بين الفيلسوف والسياسي. السياسي لا يعلمكم بأفكاره- بل يخمن أفكاركم.

يمكنه تخمينها. لكنه عاجز عن تحقيقها.

لهذا نحن نحيا حياة جيدة: قليل من البؤس، وقليل من السوء، ونرغب بقليل من المرح. وكل شيء قليل بقليل.

الأول من نيسان يوم الضحك.

كل شيء مضحك منذ زمن طويل، أما الآن فمهمتنا أن نمرح.

وهـل كنا نشكو مـن قلة المـوظـفـين؟ والآن أُضـيـف إليهم الأوليغارشيون[1].

الجميع ينطلقون في غير الاتجاه المناسب، مشعلاً الضور الأزرق. ونحن نبحث على قارعة الطريق، بحثاً عن القطع النقدية الصغيرة المتساقطة منهم.

لا نفهم كثيراً في الاقتصاد. بينما يقولون لنا أن جاسوسنا قد ألحق خسارة بالولايات المتحدة الأمريكية تقدر بملايين الدولارات لصالح روسيا. ونحن نتساءل، وأين هذه الملايين؟.

ظهر عندنا نابغة– من موظفينا. هو نفسه يكتب قواعد اللعبة. وهو نفسه يخرج إلى الساحة. وهو نفسه يلعب. هو نفسه يبدل قواعد اللعبة أثناء اللعب، إلى أن يفوز. ثم يستقيل، ويصبح مدير المصرف، و لم نعد نراه إلا في الحفلات والمآدب الراقية، مرتدياً «البابيّون Papillon» والنظارة القاتمة.

هل عندك أسئلة له؟ ليس عندي سؤال.

إنه الربيع. تكتسي الأشجار بالأوراق، وتتعرى النساء.

١– الأوليغارشيون من كلمة الأوليغارشيا Oligarchy حكم الأقلية النافذة المستغلة المهيمنة على السلطة .– المترجم–

إن أوليغارشيونا، ولانعدام المخيلة عندهم، ساروا على الخطوات الهرمة للمكتب السياسي. ومثلهم يقيمون في صومعاتهم. ومثلهم ينطلقون بسياراتهم الجامحة المرفقة بنباح السائق: «ابتعد!» شخصية كبيرة تطير، ابتعد!.

ويجمعهم بالموظفين الفقدان الرهيب لحس الفكاهة، وصياحهم مثل الكراكي «سنعالج المسألة»، «سنكتشف التراجع»، وامتلاكهم لجيل ثان من الزوجات!

حتى الآن، لا يزال الجيل الثاني

السؤال الأكثر وقاحة في وسط الأوليغارشيين: «هل هذه ابنتك؟»

يوصل إلى المدرسة بالسيارة الفارهة اثنين: ابنه إلى الصف العاشر، وزوجته إلى الصف الثامن...

يسيرون بمرافقة الحراسة. يمزحون والحراسة ترافقهم، يتناولون الطعام برفقة الحراسة. يبكون في حراسة...

هل نريد مثل هذه الحياة، أصدقائي؟

نعم، نريد!

أهنئكم بعيد الفكاهة!

نحن نعرف أن نوعية الحياة السيئة توّلد نوعية رفيعة من الفكاهة. اليوم، أصبحت الفكاهة أسوأ... أسوأ إلى حد مقرف. وهذا يعني؟... ربما، ربما...

اليوم تضحكنا النساء بنكاتهنّ السمجة عن الأعضاء التناسلية. ويغني الرجال بحنان عن فتياتهم المغطّيات بالفرو والجواهر.

ولكن، رغم كل شيء، فنحن في الفكاهة دوماً، وكما كنا، في المقدمة.

وكما يقال في حكومة جورجيا: «هي الأكثر ثباتاً من بين جميع ودياننا!»

إنه الربيع. تكتسي الأشجار بالأوراق وتتعرى النساء.

أما موقفنا من الإصلاحات فهو معقد.

لم نشارك حتى الآن في الإصلاحات. ننتظر الانتهاء منها، من أجل البحث عنها واكتشافها.

لا وجود للسوق عندنا حتى الآن، لكن العلاقات السوقية قد تشكلت.

- لن يقبل أحد ضربة جزاء بمثل هذا المبلغ- يصرح المدرب بصورة قطعية، أما الهدف في الزاوية العليا اليمنى من الشباك فلن يرميه أحد.

عموماً، لقد بدأت قيم العالم المحيط بالوصول إلينا.

عندما أعلن مقدِّم الحفلة الموسيقية، أن المهم في الإنسان- بالنسبة له- ليس الثقافة ولا التربية ولا العقل- هدرت القاعة بالتصفيق الحاد. هذا مسّر.

رئيسنا أيضا، ذو فكاهة، رغم أنه أخذ ينزاح عليه في الفترة الأخيرة انزعاج خفيف. يبدو، أن هناك من ينغص عليه العيش. هذا محزن. فقد كان بودنا حياة طويلة مشتركة...

لقد كان أسعد حظاً منا. فنكاته ومزاحه يستقبل بالقهقهة قبل النطق به. بيد أنه يتقن المزاح والتنكيت. علينا أن نعطي الرجل حقه، فنحن لسنا طبولاً فارغة بلا دماغ. سنستقبل نهفاته من الأعلى ونكاته الجيدة من الأسفل، عنه نفسه كي لا يستغرب. أما التحقق والتجريب، فسنبدأه- ومهما بدا هذا مضحكاً- على الحيوانات.

إنه الربيع. تكتسي الأشجار بالأوراق، وتتعرى النساء.

ومع ذلك، فعندما تقوم مؤسسة الكهرباء بقطع التيار، تظهر السلطة السوفييتية على الفور- لا حاجة للفيديو، لا حاجة لصالات الديسكو، لا حاجة للدعايات.

وبفضل نوعية البناء الرديئة، إذا ما أصبح الجدار في الشقة دافئاً، فهذا يعني أن أحداً ما استلقى إلى جانبه.

إنه الربيع – تغرد الطيور وتصدح النساء.

أصبح عندنا حياة جديدة. ونحن منذ زمن نحيا بطريقة جديدة، وكان بالإمكان أن نشعر بها منذ زمن لولا الأجور والرواتب.

فالرواتب- الوغدة اللئيمة- تجرّنا إلى الوراء.

من أجل زيادة رواتب السكان سوف يوزعون عدسات زجاج مكبرة خاصة، وعدسات خاصة لكشف محتويات السلاّت الغذائية.

إن العمر المتوسط للرجل في بلادنا ٥٨ عاماً.

إنه سن رائع.

إنه سن الازدهار.

إنه سن العقل.

بل هو أيضاً سن الازدهار الجنسي. فالرجل في الثامن والخمسين يبدأ حياته.

ومما هو مؤسف أنه في هذه السن عليه أن ينهي حياته.

هذا ضروري. فعلم الإحصاء لا يرحم.

إنه الربيع. يذوب الجليد، ويقوى عود النساء.

اليوم، يمكننا أن نضحك على حياتنا كما نريد. فهذا إنجاز حققناه. وطالما بقي هذا الإنجاز معنا، قد تكون الحياة قاسية، سيئة، لكنها ليست مقرفة، مهينة، كما كانت بالأمس.

سنشرب نخب هذا الإنجاز. وكما قال رئيس الصرف الصحي في مدينة أوديسا– سنشرب نخب الخراء، الذي يطعمنا!

١٩٩٢

في الحياة الزوجية

أسوأ ما في الحياة الزوجية هو عدم التناسب في الوقت. أنت تريد، مثلاً، المشاجرة، أما هي فقد ذهبت لتنام. وأنت بحاجة ماسة للمشادة: لديك وقت كاف، وذريعة رائعة. وليس هناك من تتوجه إليه. قمتَ بتجميع وترتيب جميع الكلمات اللازمة – وليس هناك من توجهها له. ورداً على صراخك: «هل أنت نائمة؟ – لا جواب – ماذا بك، قررت أن تنامي ليلاً؟؟»

لا. مثل هذه الزوجة لا تناسبنا.

من أجل المشاجرة، عليك أن تتزوج من امرأة نشيطة، سريعة، ذات مزاج دموي، تنتقل بسهولة إلى الصراخ والزعيق، والبكاء والارتجاف. آنذاك ستكون أنت في وضعية جيدة: سريعاً، حساساً، تتقن الهرب، مثل وشق شاب. ليلا، لا تستسلمان للنوم، تتسطحان في الزاوية على شرشف، برأسين مرفوعين، ويستمع أحدكما للآخر.

وبسبب طريقتكما في التعبير، لم يبق لديكما صحون ولا فناجين ولا كاسات. إنها مشاجرة موسيقية بامتياز، وهذا ما يؤكده الجيران. مشاجرة موسيقية، بل وحفلة موسيقية، من الممتع مشاهدتها من الجانب. بداية، يكون صوتكما منخفضاً، مثل معـ... معـ... أوكـ...

طبـ...طبـ...، ثم يتحول إلى عواء، زعيق، بكاء، آ، آ، طاخ، طاخ، وانكسر طقم القيشاني - وساد الهدوء. في الفصل الثاني من الحفلة صوتكما منخفض، مستقر- معـ...معـ... أوكـ...، ارتفاع الصوت، عواء، زعيق، بكاء، طاخ، طاخ- هدوء.

مثل هذه الزوجة، عموماً، تنعش، وتثير وتزعج، لكنها لن تكون علامة فارقة. من أجل اختتام حياتك، عليك أن تتزوج من نجمة الفضائح والمشادات، من أستاذة الكلمة، باردة، حاقدة، ذكية، تلتقط من كلمتين وتحفظ إلى الأبد. آنذاك، تدخلان معاً في العويل والزعيق والبكاء، تمسكان بالجدران، وبالحبوب، وتبحثان عن كأس الماء جانباً، وتلمسان طيلة عدة ليال منفردة كل ما يقع تحت أيديكما.

هذه علامة فارقة، هذه ماركة مسجلة. إنها لا تسلك بصورة سطحية، وتتلف الأعضاء الداخلية. وتعطيك لقباً دقيقاً، يرافقك طيلة حياتك: «إي!...أنت، أيها الحقير الغبي، تعال إلى هنا». عندما تسيران معاً، متأبطين في الشارع، تخاطبك على هذا النحو قبل اللقاء مع الأصدقاء. تظهر الجمجمة من خلال وجهك، ثم ترتسم ابتسامتك على الجمجمة. «قررتما استنشاق الهواء؟»- يسألكما الأصدقاء. تماماً، يمكنك استنشاق الهواء. تود لو تقتلها- نعم! تود لو تموت - نعم! الجميع يسألك:- ماذا بك؟ وهي تسألك: - ماذا بك؟ ولا تجيب- لقد اختفى صوتك.

هذه فضيحة حقيقية تسّرع من وتيرة الحياة. وبين هذه الفضائح يكون الحب رائعاً، عنيفاً، ويكون الحب الأخير، مع فقدان الوعي، وبتوقفات واستراحات للإنعاش. بعد ذلك، تطلب الطلاق.

لأن، آه، لأن الفضيحة لا تفسد المرأة، بل تنعشها وتحييها. إنها تتشاجر، تتشاحن، تفضح، وتنتعش وتتنشط. وتصرخ بزوجها: «يعتلك الموت!» - فتنفذ طلبها على الفور...

ميخائيل زادورنوف

كاتب روسي ساخر، ومؤلف ومقدم برامج تلفزيونية، ولد عام ١٩٤٨ في مدينة يارمال (جمهورية لاتفيا السوفييتية سابقا) في أسرة الكاتب المعروف نيقولاي زادورنوف. وهو من أشهر الكتاب الساخرين في روسيا. تخرج عام ١٩٧٤ من معهد موسكو للطيران باختصاص مهندس ميكانيكي. مارس العمل الهندسي لمدة أربع سنوات. بدأ بالنشر منذ عام ١٩٧٤. عمل مخرجاً في مسرح «روسيا» الجامعي، ثم رئيس قسم الأدب الساخر في مجلة «يونست- الشبيبة». اكتسب شهرته بعد ظهوره على شاشة التلفزيون بصفة مقدم ومذيع برامج أدبية ساخرة. من أشهر برامجه التلفزيونية «حول الضحك»، «بانوراما الضحك»، «التذاكر نفدت»، «التنبؤ الساخر». فاز بعدة جوائز أدبية. بدأ بنشر كتبه الأدبية الساخرة منذ عام ١٩٩٠. ومن أهمها: «نهاية العالم»، «لا أفهم»، «العودة»، «عالم مجنون مجنون». وقد اخترنا مجموعة من أشهر قصصه الساخرة وهي: «رسائل جندي أمريكي من العراق»، «بيت مجانين الكون»، «رسالة شكر»، «هموم وطن: ما قل ودل».

«يوميات جندي أمريكي»

(رسائل من الجبهة)

(١)

تحية لك عزيزتي. اليوم عيد في قاعدتنا العسكرية. سنطير إلى العراق قريباً. هذه بلد بعيدة جداً. زملائي يقولون إنها أبعد من المكسيك. وقد نبهتنا القيادة إلى أن الحرب ستكون قاسية جداً، لأن الحر شديد جداً هناك. أكد لنا الرقيب أن العراق يقع في جنوب أفريقيا، بينما يجزم العقيد، الذي كان سابقاً مدرساً للجغرافيا، أن كلام الرقيب غير صحيح، وأن العراق يقع في شمال الهند وليس في جنوب أفريقيا.

لقد خاطبنا الرئيس الأمريكي صباح اليوم، على جهاز «الباجر» وبيّن لنا أن الزعيم العراقي صدام حسين لا يريد أن يتقاسم معنا نفط بلاده، هذا معناه، أن الرئيس العراقي ضد الديمقراطية. لهذا أصبح من واجب أمريكا الأساسي الآن إدخال الديمقراطية إلى العراق، لأننا نحن- الشعب الأمريكي- هو الموزع المعتمد للديمقراطية في العالم. وأشار العقيد إلى أن رئيسنا الأمريكي زعيم جريء حقاً، فقد

استجمع شجاعته ورباطة جأشه وأعلن الحرب على بلد أصغر من بلده بعشرين مرة.

نحن جميعاً واثقون من النصر السريع لأن رئيسنا رئيس مبارك ولدينا أحدث الأسلحة، بما فيها «البامبرز» المضاد للمشاة، وألغام بطعم الثمار البرية. ولكن، ثمة شيء لا نستطيع فهمه: كيف ننطق الاسم نطقاً صحيحاً: عراق Iraq أم Iran إيران ؟

هناك خبر آخر سعيد. بدءاً من الآن، سيكون باستطاعتك مشاهدتي في أوقات كثيرة على شاشة التلفزيون، الذي سينقل المعركة على الهواء مباشرة، خلال فترات الاستراحة ما بين عرض مسلسل «الموت بفرشاة الأسنان» والبرنامج الاستعراضي «تأثير العواصف الشمسية على غشاء الذكورة لدى ضفادع كاليفورنيا».

عزيزتي... لا تقلقي عليَّ، فقد أخذت معي كريم حماية البشرة من الشمس.

(٢)

تحياتي لك عزيزتي. لقد وصلنا إلى العراق. فعلاً، الجو هنا حار جداً. ومن خلال ما نراه حولنا، فإن هذا البلد ليس الهند، لأن سكان العراق لا يشبهون الهنود على الإطلاق. والمهم، أن العقيد أكد لنا أن النطق الصحيح باسم البلد هو «عراق Iraq» أما «إيران Iran» فقد اتضح أنه اسم مواد مشعة «إيران–٢٣٨» .

وقد نبهنا الرقيب إلى أن المعارك الحربية ستبدأ غداً، حسب ما سمعه

من الإذاعة. وقال أيضاً، إن الإنجليز والبولنديين والإسبان سيحاربون معنا أيضاً... لكنه لم يوضح، مع من سيحاربون.

بيد أن القيادة أرعبتنا بعدم توفر الظروف الإنسانية في هذه الحرب، وأن الخنادق القتالية خالية من أجهزة التكييف والحمامات، لكننا نحن الأمريكيون أبطال، حتى لو لم يوزعوا علينا الكوكاكولا المثلجة أثناء المعارك.

مساءً، وصلت إلى المعسكر شاحنات مموهة بالثيران، والأغاني والزعيق. إنها كتيبة الكيمياء الأوكرانية وصلت للمشاركة في الحرب. وكان منظرها رائعاً في تمويههم الغابي الأخضر على خلفية الصحراء. وكان الجميع يرتدون بدلات خضراء مموهة، ووضع الجنود على رؤوسهم أغصان الأشجار الصغيرة. أما الضباط فقد وضعوا على رؤوسهم خيطان من القنب لتمييزهم أثناء القصف.

وبعدهم وصل الإستونيون واللاتفيون والليتوانيون. وأكد لنا الرقيب بأنهم قبائل من الاحتياطي الأمريكي، الموجود في الجهة الخلفية من أوروبا. وعموماً، هم في غاية الطيبة. وقد أحضروا معهم مساعدة إنسانية للأطفال العراقيين: فالإستونيون جلبوا معهم مركبتين محملتين بأغذية الأطفال، والليتوانيون جلبوا عربتين من ألبسة الأطفال، أما اللاتفيون فقد جلبوا مئتي عربة محملة بكتب تعليم اللغة اللاتفية!

لكن الأهم، أنهم ألحقوا بفصيلتنا سرية من الحقوقيين. لهذا، لا داع للقلق، فحتى إذا ما أصابني العراقيون بجروح خفيفة، سيضطرون لدفع تأمين مالي كبير.

(٣)

عزيزتي:

اليوم، خرجنا إلى مواقعنا، لأول مرة. واتضح لنا أن العراقيين متوحشون فعلاً. فهم لا يفهمون أننا نحتل قراهم بصورة قانونية، بدعم من مجلس الشيوخ الأمريكي. وقد أطلقوا نيرانهم أول أمس على طائرة مسالمة تابعة لنا، كانت تقصف مدنهم.

وأنذرتنا قيادتنا بألا يقع أحد منا في الأسر، لأن العسكريين العراقيين يعذبون الأسرى الأمريكيين ويحرمونهم من «البوب كورن– البوشار»، ويصادرون أجهزة «دي في دي DVD»، ولا يسمحون لهم بوضع ساق على ساق على الموائد، ويمنعونهم من استخدام الخيطان لتنظيف أسنانهم.

بالمقابل، نشعر بأنفسنا أبطالاً. ويقال بأن العالم كله أخذ يستجيب لحربنا في العراق. فالمطرب بريتي سبيرس بدأ يتعلم اللغة العراقية، أما المطربة مادوناً فقد أطلقت لحيتها وأصدرت كتاباً جديداً باسم «في السرير مع صدام».

غير أن الأمر المرعب حقاً، هو تلك الأقنعة الأوكرانية الواقية من الغازات السامة التي تم توزيعها علينا. وتنبعث منها طيلة الوقت، رائحة الثوم وشحم الخنزير، حتى أننا قررنا أن من الأفضل أن نستنشق الغازات السامة– الإبريت والسارين– بدلاً من وضع هذه الأقنعة.

قولي لابني، أن «بابا» سيعود حتماً إليه حياً، إذا لم يرغموني على ارتداء هذا القناع الأوكراني، المضاد للغازات، على وجهي.

(٤)

عزيزتي... يوماً بعد يوم، يصبح الوضع أصعب فأصعب. لقد مر علينا شهر كامل ونحن نستنشق رائحة الثوم، ونشعر أن ثمة كتيبة أوكرانية بجوارنا، في مكان ما. وعندما هبت الرياح، ذات مرة، من ناحيتها، دارت الخوذة على رأس رقيبنا، لدرجة أنه سقط من على الناقلة المدرعة. وأرادت الممرضة أن تحقنه بإبرة ضد الكزاز. غير أنه رفع عليها دعوى في المحكمة بتهمة التحرش الجنسي.

أما العراقيون، فقد اتضح لنا أنهم برابرة بكل معنى الكلمة. فهم لا يعرفون أننا الأقوى في العالم، ومن ثم يواصلون هجماتهم علينا دون توقف! أما أجهزة الليزر الأحدث التي نصوب بها على الأهداف المعادية، فهي لا تعمل، فقد تبين لنا أن هؤلاء المتوحشين لا يستعملون التلسكوب لنتعقبه بالليزر!

في الأسبوع الماضي، وصلتنا طائرات مروحية حديثة، تحلق على ارتفاع منخفض، بحيث لا يستطيع أحد رصدها. لكن فلاحاً عراقياً، أول أمس، عطلته مروحية عن زراعة حقله فأسقط الطائرة المروحية بفأس قديمة. وقد رفع البنتاغون دعوى ضده لاستخدامه سلاحاً لم تقرّه الأمم المتحدة. وقد طالب الرئيس الأمريكي من مجلس الشيوخ بتخصيص خمسة مليارات دولار للحماية من الفؤوس وسن قانوناً ضد المجارف، لتقادم الأجهزة المضادة للبوم.

(٥)

كان هذا اليوم من أصعب الأيام التي مرت بنا. فقد ضلت طريقها مكنة «البوب كورن»، أثناء توجهها إلينا، وكذلك مطعم «ماكدونالد» الميداني. كذلك توقفت دباباتنا عن التقدم لأن إشارة المرور، عند حدود بغداد، كانت حمراء. وتبين لنا فيما بعد أن إشارات المرور عند هؤلاء العراقيين المتوحشين كلها تالفة، في حين أننا بقينا واقفين بدباباتنا أمام الإشارة الحمراء حتى المساء. وأكد لنا الرقيب أنه لو لم يكن هناك عراقيون لانتصرنا منذ زمن طويل.

طلب الصحفيون منا، عند دخولنا بغداد، أن نغرقها بقذائف النابالم، كي يتوفر لهم الضوء الكافي لالتقاط الصور. وقد نبهتنا القيادة بعدم قصف شمال بغداد بالقنابل، لأن مجموعة سينمائية من هوليود تصور فيلماً جنسياً عن اعتقال صدام حسين بعنوان «غرام صدام في مدينة الأحلام». في البداية كان المرشح لأداء دور صدام النجم اللامع أرنولد شفيرزنيجر، أو توم كروز، أو جوليا روبرتس وماكالي كالكين، لكن الأجرَ كبيرٌ جداً عن هذا الدور، لدرجة أن صدام حسين نفسه وافق على أداء الدور.

أحسست باليأس والقنوط، لأن الحرب أوشكت على الانتهاء، ولم أظهر ولا مرة واحدة على شاشة التلفزيون، وقد بدأت أرفع يدي الاثنتين عالياً، وألوح بهما لك أمام الكاميرات. وفي النهاية، لاحظ الصحفيون وجودي، وظهرت صورتي على الشاشة، مصحوبة بعنوان يقول: «الجنود الأمريكيون يستسلمون ببطولة عند مشارف بغداد». يا إلهي، لك الحمد، لقد أصبحت نجماً تلفزيونياً.

(٦)

اقتربنا من مشارف بغداد. وصادفنا في الطريق أشجاراً كثيرة جرداء، التَوتْ أغصانها ويبست أوراقها. وشاهدنا طيوراً كثيرة، وحشرات، وثعابين ميتة بعيون جاحظة. إذن، لقد مرت الكتيبة الأوكرانية من هنا! وأنقذتنا بمرورها، لأن القوات العراقية لم تتحمل رائحة البصل وهربت كلها تاركة المدينة خلفها. وبعد ذلك، دخلت قواتنا البطلة إلى المدينة.

(٧)

عزيزتي:

يمكنك الآن أن تباركي لنا. فقد استطعنا، بفضل ذكاء الرقيب، أن نلقي القبض على أربعة وثلاثين صدام حسين، أي أكثر بأحد عشر صدام حسين مما اعتقلته الفصيلة المجاورة. أما الأوكرانيون فقد ألقوا القبض على ثمانية صدام حسين فقط، من بينهم امرأتان وقطة!

وقد أرسلت قيادتنا كل الحسينيين الصداميين المعتقلين لإجراء فحص «الكود الجيني» لشواربهم. والخبر السار أن أحد الحسينيين الذين ألقت فرقتنا القبض عليهم، شغل المرتبة الأولى بقرار لجنة التحكيم. وقد تأكدت اللجنة من شخصيته... والآن يجمعون المعلومات عنه.

غير أن المؤسف، هو أننا عبثاً حاربنا، كما أعتقد، وتحملنا كل هذا الحرمان، لأن مفتشي الأمم المتحدة لم يعثروا على أية أسلحة نووية. وقد تبين أن جميع جهود العلماء النوويين العراقيين لم تثمر عن شيء.

بالمقابل، أرسل رئيسنا لكل جندي على جهاز الباجر رسالة تهنئة بمناسبة انتهاء العمليات بنجاح، وأكد فيها، أننا دولة محبة للسلام، ولهذا لا يمكننا أن ندع السلام وحيداً. الأرجح، أننا سننقل عما قريب هذا «السلام» إلى كوريا الشمالية، وهي على حد قول الرقيب، جزيرة تقع في المحيط الهادي.

ملحوظة: في مساء اليوم نفسه، بدأت في بغداد عمليات نهب واسعة النطاق. فقد فجأتنا الكتيبة الأوكرانية للحرب الكيميائية بالهجوم علينا فجأة بأقنعتها الواقية من الغاز، وحاولت بمختلف الوسائل، أن تنتزع منا كل ما نهبناه من العراقيين. واتضح لنا أن الأوكرانيين لا يتلقون أية رواتب وأن القيادة عندهم أخبرتهم بقولها: «كل ما ستحصلون عليه في العراق ملك لكم!»، لهذا كانت العمليات القتالية بيننا وبينهم من أشد المعارك التي لم تشهد الحرب لها مثيلاً!

عزيزتي... إذا لم أرجع إليك، فبلّغي ابني أن أباه كان أمريكياً حقيقياً، وموزعاً بطولياً للديمقراطية في العالم!

رسالة شكر

الرفيق المحترم الأمين العام :

يكتب إليكم معبرين عن شكرهم، سكان المدينة التي زرتموها بالأمس القريب زيارة عمل. حقيقة، ورغم أنكم لم تعلموا سلطات المدينة عندنا بزيارتكم إلا قبل ثلاثة أيام، ولكن وحتى خلال هذه الأيام الثلاثة، تمكنوا بنجاح من إنجاز أكثر مما أنجزوه خلال أعوام السلطة السوفييتية.

أولاً: قاموا بدهن جميع واجهات الأبنية على الشوارع المقرر مروركم فيها. ثم قيل لهم بأنك تفضل مخالفة مخطط السير المرسوم، فاضطروا لدهن بقية الأبنية في المدينة. وقد ثابروا في عملهم وبذلوا جهوداً لدرجة أنهم دهنوا بعض البيوت مع نوافذها.

ثانياً: تمت إنارة جميع الشوارع وتزفيتها وتشجيرها، بمناسبة تشريفكم...عشية قدومكم تم حفر ٣٥٦ نفقاً للمشاة تحت الأرض. وظهرت في المحلات التجارية الغذائية المنتجات الغذائية التي كنا نعتقد أنها دخلت في الكتاب الأحمر للبضائع النادرة. بما فيها تلك المعلبات التي لم نراها منذ اثني عشر عاماً، عندما غرقت، في المياه الدولية القريبة من مدينتنا، السفينة المحملة بهذه المعلبات للجائعين في أفريقيا.

ثالثاً: قام عمال البناء أخيراً، بإنجاز بناء الجسر الذي أعلنت عن الاحتفال بإنجازه في الخطة الخمسية السابقة، والذي انهار وابتعد عن الشاطئ عندما كانت الأوركسترا تصدح بموسيقاها، واللجنة كانت تقص الشريط الحريري إيذاناً بالإنجاز. وأخيراً، قام العاملون في شبيبة الثورة (الكومسومول) بتكنيس الطريق إلى المطار بمكانسهم المنزلية. أما العاملون النقابيون فقد كنسوا الغابة الواقعة على جانبي الطريق ولونوا أوراق جميع الأشجار باللون الأخضر الناضر، وغسلوا بالشامبو اليوغسلافي جميع النصب التذكارية في المدينة. إضافة إلى ذلك، نظّفوا نصب مندلييف التذكاري لدرجة انه أصبح نصب لومونوسوف[1]. وعلاوة على ذلك، وخشية من غضبكم، سلم بعض المسؤولين في المدينة للدولة فيلاتهم الشخصية، وافتتحوا في بعضها خلال هذه الأيام الثلاثة دور الحضانة وروضات الأطفال التي كانت مدينتنا بأمس الحاجة إليها. أما فيلا مدير إدارة اللجنة الحزبية للمدينة فقد تم إعادة تجهيزها لتكون البناء الجديد للمحطة الجوية. أما الحوض المسقوف المخصص للخيار في مزرعته الكبيرة، فقد تم تعبيده ليكون خط إقلاع وهبوط لطائرات (إيل- ٨٦).

وانتفض بقية قادة المدينة وتحولوا نحو الأحسن. وبما أن جميعهم يعرفون أنكم تقدرون في القائد، بادئ ذي بدء، رأيه الشخصي، اجتمع قادة مدينتنا ثلاثة أيام، وصاغوا الآراء الشخصية لكل منهم في اللجنة الحزبية للمدينة التي صدقت هذه الآراء.

١- مندلييف: عالم كيمياء روسي كبير (١٨٣٤-١٩٠٧)؛ لومونوسوف: عالم لغوي وأديب وعالم فيزياء روسي كبير(١٧١١-١٧٦٥)، مؤسس جامعة موسكو - المترجم-

كما يعرف الجميع عندنا معرفتكم العميقة بشؤون تربية المواشي. لهذا تم عقد مؤتمر استشاري للباحثين العلميين موضوعه: «كم عدد الضروع الحلوبة عند البقرة». وتبين بنتيجته أن عددها أربعة، وليس خمسة، حسب الخطة الموضوعة سابقاً، منذ أن أُرسلت البروليتاريا إلى القرى لتطبيق المزارع التعاونية.

بالطبع، لم يمر كل شيء بدون مبالغات. وعلى سبيل المثال، عشية وصولكم إلى مدينتنا، أجريت لأسباب غير معروفة مناورات تدريبية في الدفاع المدني. ولكن وبما أن صافرات الإنذار قد تعطلت، والأجهزة الواقية من الغازات تعمل على الزفير فقط، كان لا بد من نزعها عند كل شهيق، ففي الساعة الثالثة ليلاً، وبعد الصياح الحاد من جانب رئيس الدفاع الوطني: «انتبه! انفجار نووي! انبطح!» خرج الجميع من بيوتهم وانبطحوا على الأرض، وغطوا بعناية وجوهم بأكفهم، وأغلقوا بإحكام جميع أزرار سترهم من الإشعاع. وبالنتيجة، تأخر نصف موظفي المدينة في اليوم التالي عن أعمالهم صباحاً، بانتظار انتهاء الإنذار.

كما تم إصدار كتاب–هدية عن مدينتنا، مزود بأربع صور للأبنية الحديثة في مدينتنا، وبصورة أدق، للبناء الوحيد المنجز من الجهات الأربع. وعلى طول طريق سيركم، كان يتنقل كشك واحد مليء بالخضار.

أخيراً، سرت شائعة مفادها، أنكم تحبون زيارة المتاحف والتحقق من العناية بها في كل مدينة تزورونها. هنا، وبأمر من مدير الثقافة، الذي شغل هذا المنصب فور تخرجه من المدرسة الصناعية التابعة لمعمل الآجر، تم بواسطة الحفارة، هدم البيت القديم الذي عاش فيه الكاتب أنطون تشيخوف، وتشييد البناء الجديد الذي عاش فيه. وفي الحديقة

المجاورة للمتحف تم وضع نصب يجلس فيه أنطون تشيخوف على مقعد الحديقة، وهو يقرأ، بإعجاب تقريركم في الاجتماع الأخير للجنة المركزية للحزب.

غير أننا لسنا عاتبين على قادتنا، بسبب هذه المبالغات. فنحن نتفهم ظروفهم الصعبة الآن. فقد قلتم لهم بأن عليهم أن يكونوا شخصيات محترمة، لكنكم لم تعطيهم التعليمات التوضيحية اللازمة من أجل أن يصبحوا شخصيات محترمة. قلتم لهم بأن عليهم أن يغيروا أنفسهم وفق مسيرة إعادة البناء، لكنكم لم تحددوا فترة زمنية لذلك. وهم لم يستطيعوا فهم متى يقدمون لكم تقاريرهم، بأنهم قد أعادوا بناء أنفسهم قبل الموعد المحدد.

علاوة على ذلك، تقولون لهم دوماً أن عليهم السير إلى الأمام، لكنكم لم تشرحوا لهم أين إلى الأمام. فهم لا يعرفون. فمن المعروف عندنا في المدينة، أن كل من يميل إلى الفن ويبدع فيه يعمل في مجال الفن. ومن يميل إلى العلم يعمل في مجال العلم. ومن يميل إلى الإنتاج يعمل في مجال الإنتاج. أما كل من كان كسولاً في شبابه، ولم تكن لديه أية مهارات أو ميول، فقد التحقوا جميعاً بالعمل في شبيبة الثورة (الكومسومول) والنقابات، وأخذوا يقودون أصحاب المهارات والخبرات، إلى أن اختفت خبراتهم ومهاراتهم، بفضل قيادتهم.

باختصار، نشكركم على زيارتكم الكريمة. مدينتنا أصبحت جميلة، خضراء، مزودة بوسائل الراحة والرفاهية. وأخذت تحلق الطائرات في الكولخوزات المجاورة. وأخيراً، تم تشغيل الشبكة الهاتفية مع المدن الأخرى، التي قام الألمان بقطعها أثناء انسحابهم.

بيت مجانين الكون

لقد اختلط الحابل بالنابل في بيتنا - الأرض. وكل شيء تداخل وتشابك وتشوش.

الحرب أصبحت تدعى عملية إحلال السلام. والعسكريون- صانعو السلام. يطلقون النار سلمياً. ويقتلون سلمياً. لديهم دبابات سلمية. وقنابل ذرية سلمية! وفي صراعهم من أجل السلام، قلب صانعو السلام الأمريكيون عدة بلدان رأساً على عقب.

لقد تحولت الأرض إلى مستشفى مجانين الكون!

لقد ُكتب على أوراق الدولار النقدية: «نحن نؤمن بك، يا الله !»

ويرشحون مخترعي «الفياغرا» لنيل جائزة نوبل !

وفي الصين تُبنى الرأسمالية بقيادة الحزب الشيوعي الصيني وبإشراف كونفوشيوس، أما أوكرانيا فترسل المعونات الإنسانية إلى العراق...لأمريكا!

والغجر أدركوا أن سرقة الجياد أصبحت غير مربحة- فتحولوا إلى هوكرز- قراصنة الإنترنت.

ونجوم هوليوود يتحولون إلى بوذيين. ومادونّا اعتنقت القبلانية[1]. وهذا مثله مثل أن يبدأ بن لادن بالرقص على أنغام «بحيرة البجع».

أفضل المتسابقين في «الفورمولا ١» هم الفنلنديون. يبدو أنهم لا يجدوا الوقت الكافي للضغط على الفرامل.

لكن أكثر ما تشابك واختلط وتشوش كان في روسيا، حيث ترتفع أسعار النفط، ويزداد الشعب فقراً. حيث علماء الريجيم والتنحيف الأكثر سمنة، وخبراء التجميل تغطيهم البثور، ورجل المخابرات هو الديمقراطي الأكبر! في روسيا، حيث مدراء المخابر السابقون أصبحوا سياسيين والحقوقيون اقتصاديين. وينشأ إحساس لديك بأنهم لا يقودون البلاد بل يحاكمونها. فهم وحدهم يمكنهم أن يبيعوا المصانع والمعامل الحكومية السابقة إلى مستثمرين أجانب، بحيث أصبحنا مديونين لهم.

لقد انتقل الأدباء الساخرون إلى ممارسة السياسة لأن السياسيين احتلوا مكانهم في كتابة الأدب الفكاهي الساخر.

الجيش أصبح خطِراً في وقت المناورات فقط. وهو خطِر فقط على المقيمين في الداخل. فهذا الجيش غير قادر على الهجوم على أحد. فكي تكون قادراً على الهجوم، عليك أن تكون قادراً على الركض. يمكنك أن ترى خنزيراً يرتدي تنورة الباليه ولا ترى جنرالاً يركض. وقد أصبح الضباط أكثر سمناً من مصارعي السومو. ولم يعد الرئيس يعلق الأوسمة والنياشين، بل أصبح يضعها على كرشه كما يضعها على طاولة.

١- القبلانية Cabala: طائفة من اليهود تفسر الدين اليهودي تفسيراً رمزياً صوفياً - المترجم-

لقد اختلط وتشوش كل شيء!

القهوة بلا كافيئين، والبيرة بلا كحول. والنواب بلا ثقافة. وتحولت الإنتيلجنتسيا إلى عصابة. الفقراء أغنى من الذين يقدمون لهم الصدقات. وشرطة السير تساعد في شرعنة السيارات المسروقة.

رجال الأعمال يفتحون أكشاك لزوجاتهم، اللواتي يسمّين أنفسهن سيدات أعمال، ويخلطون الدخل بالربح.

وهجم الفنانون على البزنس. لقد اشترت نجمة أغاني البوب الشهيرة مزرعة الدجاج من راقص الباليه، لأن هذه المزرعة كانت تعيقه عن الرقص.

يتعلم الأطفال في المدارس الاختباء من الانفجار النووي بين المقاعد. وتمضي المربيات الليل في دور الحضانة. وذلك كي يطردن الإرهابيين بالمكانس، إذا ما هاجموها ليلاً.

شاشات التلفزيون تخدر الشعور بالخوف. فإذا ما حدث حريق أو تبادل إطلاق النار، لم يعد الشعب يركض ويتفرق بل يلتصق بشاشات التلفزيون. حتى أن خبر زرع قنبلة في مطعم لم يعد يخيف الزبائن، ورداً على طلب مغادرة المطعم بسرعة. يجيبون بهدوءٍ «الآن، سنكمل طعامنا ونغادر».

الطبيعة ذاتها أصبحت عاجزة! التيارات الدافئة في المحيط الأطلسي لا تعرف أين تتجه. ولم يعد البط البري يرحل إلى الجنوب، إنه يتهادى بين الحفر. القطط تنوّي طيلة العام. يصلحون التدفئة المركزية شتاءً. أما

سيارات ترحيل الثلوج فهي جاهزة للعمل في فصل الصيف وحده. وفي الضواحي، استبدلوا المسرح وصالات السينما والماء الساخن بالإنترنيت... على علب السجاير يكتبون: «التدخين مضر بالصحة». والمولات تتغذى بوسائل ضد العث. ويسمون الماء ذا الرائحة الذكية بماء التواليت. كما يسمون البيرة راعية المباريات الرياضية!

أما العيد المفضل عند الشعب فهو عيد رأس السنة، حسب التوقيت القديم.

يتعلم الأطباء الطب والعلاج على الأموات، لكنهم يعالجون الأحياء. وأصبح المعالجون بجلسات الطاقة الحيوية المعالجين الرئيسين، ولعملهم المرهق الدائم بدأت تظهر علامات زرقاء تحت أعينهم الثالثة.

واتجهت النساء نحو كرة القدم والهوكي والملاكمة. وهنّ أسرع من الرجال في رصف عوارض السكك الحديدية وفي تعمير لبنات الآجر... لقد حل كل من الذكر والأنثى مكان الآخر. فإذا ما أدخل السارق يده إلى حقيبة يد المرأة، تمسك به من يده، وتديرها، وتسحب منه هويته ونقوده... وتمسك به من رقبته وتقوده إلى مخفر الشرطة!

أما السلطة فلا تكافح إلا المتقاعدين. والكنيسة توقع عقوداً مع شركات التأمين، كي لا تؤمّن على السيارات غير المنارة بدون توقيع البطريرك. والأساقفة يتبادلون القبلات مع الموظفين، كما كان يفعل أمناء اللجان الحزبية. أما البطريرك، وتعبيراً منه على شكره على الامتيازات الجمركية، كاد أن يقبل يد الرئيس في الحفلات الدورية لعرض جثامين بعض الأشخاص.

الأتراك يرممون الكنائس الأرثوذكسية.

كل شيء انقلب رأساً على عقب!

قطاع الطرق أصبحوا مؤمنين متديِّنين، لدرجة أنهم يسعون لأن يقضوا على أعداءهم قبل أحد الصوم الكبير!

وبدأ الأوليغارشيون بتشييد كنائسهم ومعابدهم الخاصة ضمن مزارعهم، وقرروا تهيئة حياتهم الآخرة. صلوات للنخبة. تقديس الكمبياليات في مذبح درجة رجال الأعمال VIP. وأصبح الزبون نفسه يوصي مسارات تطواف الصليب. حسب المزارع! ومقاطع من الكتاب المقدس في الإعلانات! في مستوصف «أحبب طبيبك!»، ومعمل أحذية «أبدع زوجاً من الأحذية!».

ازدحام الراغبين بالصحوة في الطابور الطويل منذ الصباح على الماء المقدس من أجل التعميد.

– أين تحشر نفسك، أيها التيس؟

– أنت التيس، أنا من أجل الماء المقدس...

– وهل نظرت إلى سحنتك يوماً ما؟ أي ماء مقدس. أنت بحاجة إلى محلول ملحي مقدس.

تعلم الجميع التوبة! فبعد أن خان زوجته، وسرق جاره، وأوصى بقتل رئيسه: «اغفر لي، يا إلهي، لأنني أكلت بيضتي فِرَّة !».

الشيء الوحيد الذي بقي منطقياً هو شعارنا. وبخاصة شعار الحزب

السياسي الروسي الرئيس، حزب «روسيا الموحدة» بشعاره - الدب! إنه شعار دقيق للغاية. ففي الصيف يهدم المناحل وأعشاش الطيور، وفي السيرك يتنقل على الدراجة النارية ويرقص لسيده، والأهم، أنه ينام نصف عام كامل وهو يمص ُخفّه!

في ما تبقى اختُرِقت قوانين المنطق. فقد ارتفعت حرارة الأرض. ولكن حتى ارتفاع حرارة الكون كله انقلب على روسيا بربيع مثلج وصقيعي، ضمخ عصرنا المكفهر وزينه حتى الصيف.

ما قلّ ودلّ

كان المثقفون دومـاً أول من يسير على طريق تطور الإنسانية وتقدمها. يتلوهـم التجّار الذين يكدسون الأموال على أفكار المثقفين. وفي الثغرة ذاتها التي يحفرها التجّار، يبدأ السياسيون بالعوْم. وكانوا دائماً يحاولون مصادرة أموال التجار الذين جمعوها من أفكار المثقفين.

***

ينقسم الناس إلى ثلاث فئات: متنورين، ومتمردين، وعامة الناس. المتنورون هم الأفكار، والمتمردون هـم المحرك، وعامة الناس– هم وقود التاريخ، وبعبارة أدق– السماد! إذن، العامة ضروريون لتحقيق التطور. فبدون السماد، سيقل عدد المواليد من المتمردين والمتنورين. لهذا لا حاجة للهزء والسخرية بالعامّة، بل يجب حمايتها!

ومن المؤسف، أن غالبية الناس تخطئ في تحديد الفئة التي تنتسب إليها. فالسياسيون، مثلاً، يعتبرون أنفسهم – فكر التاريخ. من الناحية الحقوقية، هذا ممكن وصحيح. لكن عجلة التاريخ لا تديرها القوانين الحقوقية بل قوانين ميكانيك التموّج، وهي قوانين الفضاء. وبحسب هذه القوانين، السياسيون هم مجرد رغـوة فوق السماد. وليسوا بالمتمردين. وكي يصبح شخص من العامة متمرداً، من الضروري أن

يقدم على خطوة حاسمة إلى الأمام. ومن أجل تحقيق هذه الخطوة، عليه أن يتلقى رفسة من الخلف. لكن السياسيين لا يشعرون بالرفسات. ولهذا، وبحسب نظرية داروين في الارتقاء، تتكون لدى المخلوقات الزاحفة، الخالية من العمود الفقري، الدروع الصدفية الأخشن.

***

في العهد السوفييتي، كانت لدى الحكومة مصيبتان: المحصول، وقلة المحصول. الزمن تغير، والأحوال تغيرت، لكن المصيبتين بقيتا في روسيا... وهما الآن: سعر النفط المنخفض، وسعر النفط المرتفع.

***

في عهد الاتحاد السوفييتي كنا نعيش حياة سيئة. وبعد ذلك، جاء الديمقراطيون وسرقونا. وتكمن موهبة الديمقراطيين في أنهم تمكنوا من سرقة الفقراء.

***

سلطاتنا تتحدث عن الشعب، وتتناسى الإنسان.

***

لو كان باستطاعتي لدعوت نصف موظفينا للمبارزة، لكن الدعوة إلى المبارزة وتسجيلها وصياغتها قانونياً تستغرق سنوات عديدة، بحيث لن أكون بعهدها قادراً على المبارزة.

***

كتب عمر الخيام- شاعر الشرق وفيلسوفه الكبير- في رباعياته الحكمة التالية:

« إذا ما استدار قطيع الأغنام إلى الوراء

ومشى في الاتجاه المعاكس،

فإن الخراف العرجاء هي التي تقود مسيرة القطيع»

يبدو وكأن عمر الخيام قد استطاع تفسير مصائب اليوم لروسيا، التي تكثر من الاستدارة إلى الوراء وتسير في الاتجاه المعاكس، بحيث أن الخراف السليمة لا تتمكن أبداً من السير في الأمام. وبالنتيجة، كثيراً ما نهذي ونسير ببطء دوماً وأبداً خلف الخراف المريضة، الضعيفة، العرجاء!

***

قاعدة معاصرة: بعد مضي ستة أشهر على الانتخابات، إذا لم تشعر بالخجل من الذين انتخبتهم، فهذا يعني أنك لم تشارك في الانتخابات.

***

في أثناء الانتخابات يجري الرهان على الغالبية الساحقة، التي تُسحق كل يوم.

***

لقد تم بعناية فائقة اختيار الدب شعاراً لحزب «روسيا الموحدة».

وبخاصة إذا ما تذكرنا حكاية «القن». ومن لم يقطن فيه: الفأر، والضفدع، والأرنب. ثم يأتي الدب ويقول: «هذا أنا الدب، سينهار القن فوقكم!» وجلس فوق القن وانهار على من فيه.

الفهرس

ثمة علامة فارقة تميز الآداب عامة، والأدب الروسي خاصة. وهي ازدهار الأدب الساخر، أو ما يمكن أن ندعوه مجازاً بـ «أدب العدسة المكبرة»، في المراحل الانتقالية الصعبة التي يمر بها هذا المجتمع أوذاك.

وهذه ظاهرة طبيعية إيجابية. فمن الملاحظ في الآداب عامة، أن ازدهار السخرية والفكاهة، وانتشار التورية والعبارات القارصة والتلميحية، والمبالغة، يتزامن أكثر ما يتزامن، مع مراحل التحولات.

الثورية والتغيرات الاجتماعية الكبيرة، والانتقال من نظام اجتماعي- سياسي إلى نظام آخر. ولم يشذ الأدب الروسي عن هذه القاعدة. فقد ازدهر الأدب الروسي الساخر، والقصة الروسية القصيرة الساخرة تحديداً، وانتشر انتشاراً واسعاً في السنوات العشر الأولى التي أعقبت ثورة أكتوبر عام 1917 ، وفي أعقاب «البيريسترويكا» وانهيار الاتحاد السوفييتي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وتعد هذه الفترات الزمنية المذكورة بحق) العشرينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين والعقد الأولى من القرن الحادي والعشرين (من الفترات النادرة والفريدة في مجال الأدب الساخر، والقصة الروسية القصيرة الساخرة والانتقادية الفكاهية. ولعل أصدق دليل على ازدهار هذا الأدب الساخر، في المراحل المذكورة، صدور الأعداد الكبيرة من المجلات الساخرة والفكاهية فيها. ورغم انتشار الأدب الساخر في الأجناس الأدبية المختلفة) الرواية، المسرحية، القصة، القصة القصيرة إلخ لكنه كان أكثر انتشاراً وتركيزاً في أدب القصة القصيرة.


ISBN 978-2-843090-58-5
9 782843 090585